موسوعة

النجف الأشرف

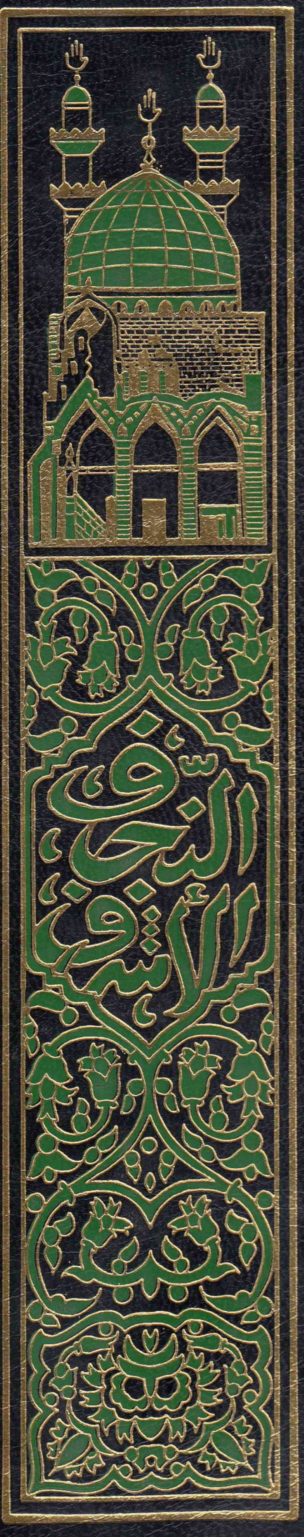
الحركة الإصلاحية في الحوزة العلمية

جمع بحوثها
جعفر الدجيلي

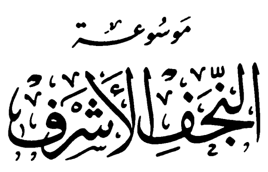
بإشراف لجنة
من رجال الفكر والعلم والأدب

الجزء التاسع

دار الأضواء




شبكة الفكر
alfeker.net


موسوعة
النجف الأشرف

الطبعَة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب/ ٤٠/ ٢٥ غبيري فاكس/ ٦٠١٠١٩
تلكس/ ٢٣٤٠٧ هادي - بيروت - لبنان

موسوعة

النجف الأشرف

الحركة الإصلاحية في الحوزة العلمية

جمع بحوثها..
جعفر الدجيلي

بإشراف
لجنة من رجال الفكر والعلم والأدب

الجزء التاسع



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم : المؤرخ الإسلامي الكبير
السيد حسن الأمين

النجف ومعاهدها التي جاوز تاريخ إنشائها الألف سنة والتي انطلق منها خلال تلك القرون ما لا يحصى عدداً من أفذاذ الرجال علماً وفكراً وأدباً وشعراً ، وانبعثت من رحباتها إلى أرجاء العالم الإسلامي قيادات شقت طريق الجماهير إلى مقاومة الاستبداد والاستعمار .

النجف هذه لم يقيض لها من يكتب تاريخها ويسجل أحداثها ويعرّف بها التعريف الذي يستحقه ماضيها الزاهي الحافل .

ولولا محاولات بذل فيها أصحابها ما يستطيعون من جهد فردي ، كهذا الذي قام به أخيراً الباحث المحقق الأستاذ علي البهادلي في رسالته الجامعية ، لولا هذه المحاولات لظلت النجف وكأن لا تاريخ عريق ، ولا ماضي أصيل لها يستحقان ما يستحقان من جهد المؤرخين وعناء الباحثين .

حتى قيض الله لها (دار الأضواء) وعلى رأس إدارتها رجل الخير والبر الحاج جعفر الدجيلي فأصدرت (موسوعة النجف) التي حوت الشيء الكثير مما كان يجب أن يسجل عن النجف في مختلف الحقب التاريخية ، وبين ما حوته دراسات مفصلة عن المرجعية الدينية في النجف ، هذه المرجعية التي كانت من

أبرز الزعامات العالمية وأكثرها عطاء وأعظمها أثراً في توعية الجماهير وقيادتها في السبيل القويم . وهو ما يراه القارئ في هذا الكتاب .

وإذا كان لنا بعض الملاحظات على بعض ما تضمنته فإننا نرجئ الإشارة إلى تلك الملاحظات إلى مناسبة أخرى .

على أنه لا يفوتنا أن ننوه بالدور العظيم الذي كان لمرجعية الرجل العظيم السيد أبو الحسن الأصفهاني الذي نود أن يتفرغ لدراسته بعض المختصين وفاء لتلك الفترة الإصلاحية الكبرى .

ونحن على ثقة تامة بأن (دار الأضواء) ستواصل جهودها فتسد كل فراغ لم يسد في تاريخ النجف وتاريخ معاهدها وتاريخ مرجعيتها . سائلين الله لها كل خير وفلاح .

حسن الأمين

بيروت ٢٥/ ٩/ ١٩٩٦م

١٢ جمادى الأول ١٤١٧هـ

المؤسسات أو المدارس الاصلاحية

تمهيد

مع إطلالة العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري (أي بدايات القرن العشرين) بدأت التيارات الحديثة الوافدة من أوروبا تقتحم البلاد الإسلامية، ومنها تيار (المدرسة) بنظامها المعروف، وهو مختلف بطبيعة الحال عن الأنظمة الحوزوية، لذلك حاول بعض الحوزويين أن يفيد من هذه النظم في تعديل الأسلوب الدراسي، وظهرت معالم هذا التحرّك لدى بعض حوزوي سوريا ولبنان والعراق، ففتحت مدارس خاصة في هذا الميدان.

بيد أن هذا التحرّك يظل محدوداً بالقياس إلى ضخامة الدراسة الحوزوية... إنه يقتصر في البدء على الدراسة الابتدائية فالمتوسطة فالإعدادية، وهي مراحل لا تسمح إلاّ بتلقف محدود للعلوم الحوزوية وحتى في المرحلة الجامعية، فإن الطالب لا يتجاوز مرحلة السطوح في مستوياتها العادية وليس المعمّقة. ويستثنى من ذلك: الدراسات العليا (الماجستر والدكتوراه) حيث تسمح هذه الدراسات بالوصول إلى مرحلة الاقتدار الفقهي. إلاّ أن أمثلة هذه الدراسات تظل أيضاً محدودة في نطاق جزئي منحصر في باب واحد أو أكثر من الأحكام دون أن تفرز فقيهاً متميزاً يضارع فقهاء الحوزة المقتدرين...

طبيعياً، ينبغي أن نضع فارقاً بين المطالبة بتطوير المنهج والمادة الحوزوية وبين استبدال ذلك بمناهج الدراسة الوضعية، حيث إن المادة الحوزوية **لا تطاولها** عادة الدراسة الحديثة، كما أن طرائقها في اقتحام المادة وهضمها لا تضارعها الطرائق التي نشاهدها في الدراسة الحديثة... لذلك، فإن الانفتاح العلمي -

لدى البعض ـ على التيارات الحديثة لم يكن ليستهدف ـ في الواقع ـ إلاّ غرضين: أحدهما ينحصر في تحضير المعرفة البدائية والمقدمات، أو في أفضل الحالات (السطوح) ـ، والآخر: متصل بتطوير المنهج واختزال المادة بقدر الحاجة إلى حذف ما لا ضرورة له من الممارسات، وما عدا ذلك لا يتردد اثنان في أن الاقتدار الحوزوي لا يقاس بما هو مألوف في الدراسات الحديثة... ولهذه الأسباب بدأت بوادر المطالبة بالمدرسة الحديثة أو بتطوير المنهج الحوزوي تتكثف على يد فقهاء من أمثال شرف الدين في لبنان، والأمين في سوريا والمظفر في النجف في تلكم الفترات المبكرة، وأخذت الأصوات من هنا وهناك تتصاعد في مطالبتها بهذا التطوير... ومن الطبيعي أن تتفاوت وجهات النظر في تقبل أو تحفّظ أو رفض هذه المستويات من المطالبة، ممّا ترتب على ذلك نشوء صراعات تتضاءل أو تتصاعد حسب التركيبة النفسية والثقافية لهذه الشخصية أو تلك... إلاّ أن المهم في الحالات جميعاً أن الحوزة ظلت محتفظة بتميزها واستقلاليتها وجدارتها العلمية التي تنفرد بها دون أدنى شك. إن الصفحات اللاحقة من هذا المجلد تنقل لنا جانباً من الحركات التجديدية التي أشرنا إليها بما واكبها من ردود الفعل الإيجابية والسلبية أو المتحفظة... إلاّ أننا حرصنا على عدم تفصيلات ذلك، وآثرنا الاقتصار على الخطوط العامة لهذه الحركات، متمثلة في المقام الأول في نشاطات جمعية منتدىٰ النشر، بصفتها الجمعية الوحيدة التي ظلّت ما يقارب النصف قرن تتحرك ضمن هذه الخطوط، بحيث أسفرت نشاطاتها عن مدارس ابتدائية ومتوسطة وإعدادية وجامعية.

* * *

وثمة دراسات متنوعة تناولت هذا الجانب من حيث التركيز على جمعية منتدى النشر ومدارسها ، وشخصية «المظفر» بخاصة ، نحاول أن نعرضها الآن ، فيما نبدأ ذلك بدراسة الشيخ محمد مهدي الآصفي .

مدرسة النجف
وتطور الحركة الإصلاحية فيها

بقلم: الشيخ محمد مهدي الآصفي

لقد لمس الاستعمار، منذ عهد ليس ببعيد أنه لا يستطيع أن يحافظ على مصالحه الاستعمارية في البلدان الإسلامية ما لم يتراجع الإسلام، وما لم يزحزح هذه العقيدة عن نفوس المؤمنين فلا يمكن أن يسمح الإسلام، وهو يحكم بلاده، أن ينفذ الاستعمار في البلاد، ويضع يديه على مصالح المسلمين وثمرات بلادهم.

وأدرك الاستعمار أن لا حيلة له مع الشيوخ والشباب الذين نشؤوا على هذه العقيدة. والسبيل الوحيد للعمل هو الاهتمام بتوجيه الناشئة توجيهاً لا إسلامياً في مدارس خاصة، تفتح لهذا الغرض ولا زلنا نتذكر كلمة (مس بل) في هذا الصدد: (إن رجال الدين كانوا من أكبر دعاة الثورة في العراق خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، وهذا ممّا دعا رجال الحكم إلى إنشاء المدارس الحديثة لكي يضعّفوا بها الدين في نفوس الجيل الجديد ويقتلعوا بذلك جذور الثورة من أساسها)[1].

وقد أدرك العلماء يومذاك خطورة الموقف الجديد فدعوا المسلمين إلى مقاطعة المدارس الرسمية وإلى مقاومة التيار الاستعماري الجديد وقد أوشكت هذه الخطة أن تموت في مهدها ولا ترى النور، لولا أن فكرة المقاومة استمرت في إطارها السلبي ولم تتجاوز حدود (الرفض) و (المنع).

وبقيت الدراسة والتربية في بعض البلدان الإسلامية مهنة يباشرها بعض

---

(١) وعاظ السلاطين ٣٩٨.

الكتاتيب، بأساليب قديمة بالية، تذكر الإنسان بأساليب التربية والتعليم في القرون الوسطى.

ولم يحاول أحد توسعة مناهج التربية والتعليم وتطوير أساليب الدراسة والتربية ومواكبة التطور التربوي والدراسي في العالم.

فلم يمض حين من الزمن حتى اكتسح سيل التجديد والتطوير في أساليب التربية والتدريس كل هذا الجهد، واضطر المسلمون إلى أن يرجعوا إلى أحضان هذه المدارس بما تحمل من مفاهيم وأفكار بعيدة عن آفاق الفكر الإسلامي.

وظهرت بوادر الاستعمار في البلاد الإسلامية، فوقف علماء النجف الأشرف أمام الاستعمار، وجهاً لوجه، واشتدّ الصراع بين العلماء والاستعمار ونجح المسلمون في القضاء على الاستعمار بعد صراع طويل، ولكن المقاومة لم تتجاوز حدود الصراع والجهاد ولم تدخل دور التكوين والتخطيط، وبقي المسلمون يعانون في حياتهم الاجتماعية من فراغات هائلة، استطاع الاستعمار أن ينفذ مرة جديدة في البلاد الإسلامية عن طريق هذه الفراغات ويسترجع منها مراكزها الاستراتيجية والدبلوماسية، وأن يملأ هذه الفراغات عن طرق غير مشروعة.

ولم يخف هذا الطابع السلبي في تأريخنا المعاصر على دعاة الإصلاح والفكر في النجف الأشرف وما يتصل بها من مراكز الفكر الإسلامي، فقام دعاة الإصلاح هنا وهناك يدعون إلى تهيئة الأجواء لمواكبة الأوضاع الاجتماعية وتخطيط الحياة الاجتماعية بالشكل الذي يملأ على المستعمر أي فراغ من الفراغات الهائلة التي نعانيها في حياتنا الحاضرة.

وتنفيذاً لهذه الخطة قام هؤلاء بتجربة تأسيس مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية تدرس فيها مناهج المعارف، بالإضافة إلى المناهج الإسلامية وتجاري المدارس الحكومية في شكلها ومحتواها وتطورها وتوسعها، في الوقت الذي تحافظ فيها على جانب التوجيه الإسلامي.

(وفي سوريا تبنى هذه الدعوة الإيجابية السيد محسن الأمين فأسّس في الشام مدارسه المعروفة باسمه والتي ما تزال قائمة تؤدي رسالتها الإصلاحية،

وتبناها السيد شرف الدين، في لبنان فأسّس لها المدارس الجعفرية (بصور) وأخضعها للمناهج الحديثة وأحاطها بعنايته وتوجيهه)[١].

وفي إيران تبنى الفكرة الشيخ عباس علي الإسلامي ففتح المدارس الإسلامية وقد لاقت هذه المدارس إقبالاً منقطع النظير من قبل الناس وانتشرت في المدن والقرى بصورة واسعة.

وفي النجف الأشرف تبنى الشيخ محمد رضا المظفر لأول مرة هذه الفكرة وحاول تحقيق هذه المهمة بما أوتي من إمكانات واسعة.

وقد لاقى الشيخ المظفر في هذا السبيل كثيراً من العناء وبذل من نفسه الشيء الكثير حتى كاد أن ينسى نفسه في سبيل الوصول إلى الغاية. وقد كان يشرف على سير التدريس بنفسه في المدارس الابتدائية والثانوية، ومن دون أن يشعر بذلك هواناً على نفسه، وكان يتفق أن يباشر التدريس في بعض الصفوف الأولية من الكلية وهو يحمل شهادة الاجتهاد ويزاول التدريس العالي. كانت هذه المهمة من جملة الأسباب التي دعت الشيخ المظفر إلى تأسيس جمعية منتدى النشر.

ففي المادة الرابعة من نظام الجمعية (مقاصد المنتدىٰ تعميم الثقافة الإسلامية والعلمية والإصلاح الاجتماعي بواسطة النشر والتأليف والتعليم وغير ذلك من الطرق المشروعة)[٢].

وقد قدر للشيخ المظفر في هذا السبيل أن يحظى بشيء كثير من التوفيق يتخلله الفشل، ويخالطه الإخفاق، ولا يفتر شيء منهما من عزيمة الشيخ المؤسّس رحمه الله.

(فمن أهم الأعمال التي توجه إليها تأسيس المدارس الدينية إيماناً منه بأن تربية الناشئة تربية دينية وتوجيههم إلى العلم والأخلاق الفاضلة من أفضل الواجبات المفروضة على الرجل الديني في هذا العصر، وخير السبل القويمة

---

(١) محمد تقي الحكيم: تمهيد وتقديم النص والاجتهاد ص٢٥.
(٢) نظام جمعية منتدىٰ النشر ١٣٧٠ هـ ص٢٣.

لتحقيق أهدافه الإصلاحية في نشر الثقافة الدينية وبعث الروح الإسلامية في النفوس وتقويم الأخلاق ومقاومة روح التمرّد التي جلبتها النهضة الغربية الحديثة الاستعمارية بقصد الاستيلاء على معنويات البلاد الإسلامية وتحطيم القوىٰ الكامنة في نفوس المسلمين حتى خلقت من تلك النفوس الأبية عبيداً لأغراض الاستعمار من حيث يشعرون ولا يشعرون، وحتى لم يبق من الإسلام إلّا اسمه ومن عزّة الإيمان إلّا خيالها.

وقامت محاولات في تأسيس المدارس على اختلافها عالية وابتدائية فنجح في بعض وفشل في بعض، وليس في ذكر مواطن الفشل من حزازة على مؤسسة تريد الخدمة الخالصة فتوضع العراقيل في سبيل محاولاتها)[١].

(وفي سنة ١٣٥٧ تأسّس صف لدراسة العلوم العربية والمنطق والفقه والأدب العربي وبعض الفروع الأخرى واستمرّ إلى آخر السنة وكان نجاحه ممّا شجعه أن يفتح في السنة ٥٧/٥٨ الدراسية ثلاثة صفوف وقد نجح هذا المشروع في تلك السنة وبلغ طلابه ١٥٠ طالباً وحصل في خلال السنة اعترافاً من وزارة المعارف، وهو أول اعتراف تعطيه الوزارة لمدرسة دينية واعتبر هذا من بشائر النجاح للمشروع، غير أن وزارة المعارف بعد خمسة أشهر من الاعتراف عدلت فألغت اعترافها فأحدث هذا الإلغاء رجّة عنيفة في الأوساط الدينية بالنجف. وكاد أن يقضي هذا الإلغاء على مشروع الدراسة لولا أنهم حصلوا على الاعتراف ثانيةً بعد سنة.

وقد تمّ له في سنة ١٣٦٤ بقوة الاستمرار أن يفتح أربعة صفوف باعتبارها قسماً متوسطاً للعلوم الدينية مع صف تحضيري قبلها. وفي سنة ١٣٥٧ حاول برغبة جماعة من أعيان البصرة أن يفتح فرعاً له هناك وفشلت المحاولة لأسباب موضعية.

وفي سنة ١٣٦١ قدم جماعة من وجوه الكاظمية طلباً بفتح مدرسة ابتدائية دينية باسم مدرسة منتدىٰ النشر الدينية واستصدرت من وزارة المعارف إجازة فتح

---

(١) نظام منتدىٰ النشر ط٢ سنة ١٣٧٠ ص ز، ح.

المدرسة وقد نجح هذا الفرع نجاحاً باهراً.

ولهذا الفرع قسمان نهاري ومسائي وكل منهما في ستة صفوف.

وفي سنة ١٣٦٢ قدم جماعة من وجوه الحلة وبعض رجال الدين فيها طلباً بتأسيس فرع لمدرسة عالية للعلوم الدينية في بلدة الحلة فسعت الجمعية في تحقيق هذه الفكرة غير أن معارضة محلية غير منتظرة شوشت على القائمين بالعمل.

وفي سنة ١٣٦٣ نشأت فكرة تأسيس مدرسة ابتدائية دينية بالنجف لتزود المدرسة المتوسطة بمتخرجيها.

ولا تزال هذه المدرسة تؤدي رسالتها.

وقد ألغيت بعد ذلك متوسطة منتدى النشر وتجدّد فتحها كما قدمت جمعية منتدىٰ النشر برئاسة الشيخ المظفر اقتراحاً إلى وزارة التربية والتعليم بفتح إعدادية إسلامية تعد الطالب للدراسات الإسلامية وللعلوم العربية وقامت هي بتأسيس هذا الفرع في بنايتها الخاصة واعترفت بها وزارة التربية والتعليم وباشرت بمهمة التعليم في الفرع ابتداء من سنة ١٣٨٣.

وبناية منتدىٰ النشر تضم في الوقت الحاضر مدارس أربعاً: ابتدائية ومتوسطة وإعدادية وكلية يهيىء السابق منها الطالب للمدرسة التي تليها.

سير الإصلاح داخل الحوزة:

ومهما تحدثنا عن مكانة النجف العلمية والاجتماعية ومركزها الديني في العالم الإسلامي فهي كأي كائن آخر بحاجة إلى أن تتطور، بنفسها، مع الزمن، وتواكب مسيرة الحضارة الصاعدة، في خطواتها، ليتاح لها أن تحتفظ بمكانتها العلمية والاجتماعية، وليقدر لها أن تستثمر هذه المكانة في مجالات التثقيف والتوجيه الاجتماعي على ضوء من تعاليم الإسلام.

ولذلك وجدنا في الاستعراض السريع الذي قمنا به في هذه الدراسة أن مدرسة النجف الأشرف لم تتخلف طول هذه المدة الطويلة عن مواكبة الحضارة الفكرية ولم يبد على هذه المدرسة أنها كانت تحاول أن (تجر نفسها) يوماً من

الأيام مع الموكب الطالع، من غير أن تجري هي بذاتها مع الأحداث أو تسبق الحضارة في هذا الخط.

وقد يلمح الباحث مع ذلك في الحياة الفكرية في النجف شيئاً من الانكماش والانطواء على الذات في بعض الأطوار. ولكن لا يجد في شيء من ذلك ما يدل على التخلف والتأخّر.

ولا ننكر وجود التخلّف الفكري في الحياة الفكرية في النجف، في بعض الأطوار إلاَّ أننا لا نجد وجهاً لتعليل الانطوائية في الحياة النجفية بالتخلّف الفكري.

فقد تنشأ الانطوائية، بعكس ما يبدو لكثيرين، عن التقدم الفكري، والسبق الحضاري، وفي هذه الحالة لا يجد الإنسان الوضعية الفكرية الملائمة للاندماج، فيتراجع إلى نفسه وينطوي على ذاته.

فلا أجد على وجه المثال ما يبرر تفسير انطواء النجف على ذاتها بالتخلف الفكري في الدراسات الفقهية والأصولية، مع ما تبدو عليه من التوسّع الهائل والعمق والضخامة ولا أريد أن أبرر مثل هذا الانكماش في المدرسة النجفية فإن الانطواء على الذات مهما كانت أسبابه يؤدي إلى العزلة والانفصال عن المجتمع ومن ثم الموت، إذا لم تحاول أن تدمج بنفسها في المجتمع الإنساني من جديد.

ومهما يكن من أمر، فقد وجد المعنيون بشأن الحوزة العلمية أن النجف تعاني بعض النقص والضعف، مهما أوتيت من إمكانات ثقافية وتوجيهية واسعة في مناهجها الدراسية، ومن ثم في نشاطها الفكري والدعائي، ولمسوا هذا الضعف في مختلف وجوه النشاط النجفي.

ولكي تقوم النجف بأداء رسالتها الإسلامية على أوسع نطاق خير قيام، وتحافظ على مركزيتها التوجيهية في العالم الإسلامي يجب عليها أن تعالج هذا الضعف، مهما كان شكله وأدرك جمع من أعلام الفكر في النجف ضرورة العمل لتلافي الضعف والنقص في مناهج الدراسة والدعوة في النجف، وتوجيه هذه الدعوة وتطوير الدراسة فيها بالشكل الذي يناسب مكانة النجف الدينية وتتطلبه

الأوضاع الفكرية والدعوتية في العالم.

ولم يكن أمر الإصلاح يسيراً بالشكل الذي يبدو للقارىء أول الأمر فقد كانت المحافظة والحيطة تطبع أعمال القائمين بشؤون التوجيه والفكر بطابعها الخاص. وكان الرأي العام يراقب سير الأعمال والحركات في النجف، ممّا جعل القيام بأي نشاط إصلاحي على جانب كبير من الخطورة.

وهذا التفكير كان في وقته، يشل كثيراً من الحركات والاتجاهات الإصلاحية، يقول المترجم له الشيخ محمد رضا المظفر في بعض ما عثرنا عليه من مذكراته المخطوطة:

و (هذا هو التفكير الذي يبدو ظاهراً على بعض رجالنا الذين كانوا يحلمون بإصلاح نواقص الدراسة العلمية في معاهد النجف الأشرف، فإن هذه النواقص كفقدان نظم التربية والتدريس في الامتحانات والمواد العلمية والأوقات والشهادات كانت تهدد المفكرين منا بشلل الحركة العلمية في مستقبل الجامعة القريب أو البعيد يوم أن اصطدمت سفينة هذه الجامعة القديمة بتيار هذا العصر الجديد فهزّتها في بحر متلاطم بالميول. ولكن الوقت الذي كانوا يفكرون في هذا كان يعوقهم عن التقدم في العمل ذلك التفكير المؤلم).

ظهرت في هذه الفترة فكرة الإصلاح، وقامت محاولات إصلاحية بين حين وحين وتألفت لذلك في النجف الأشرف لجان ومجالس وجمعيات تهتم بهذا الشأن من شؤون الحياة النجفية:

وقد واكب الشيخ المظفر هذه الحركات منذ ظهورها واشترك في كثير منها ووعى ضرورتها منذ بدء ظهورها.

فاسمع إليه عندما يؤرخ سير الإصلاح في النجف منذ نشوئه:

«لقد سايرت بنفسي فكرة الإصلاح حتى هذه الساعة ـ ويقصد بذلك عام ١٣٥٨ وهو عام تدوين هذه المذكرات ـ، وسأعطيكها وليدة نشأت في أحضان الاجتماعات الصامتة ومرّت عليها أدوار وتجارب غذتها حتى اشتدّ ساعدها ونمت نمواً يناسبها شأن الكائنات الحية. ولعلها الآن في دور الشباب اليافع المتحفز

يحتاج إلى غذاء كثير من الجهود الجبارة والتضحية النادرة حتى يكمل رجلاً سوياً.

تألفت ابتداء من ١٣٤٣ هجرية أي قبل ١٥ عاماً ـ ويقصد عن تاريخ تدوين مذكراته هذه ـ عدة جماعات أشبه بجمعيات سرية أو مجالس تمهيدية للتفكير في طريق الإصلاح واكتساب الشعور العام، وأتذكر جيداً أني اشتركت في إحداها وكنت كاتبها وأعضاؤها كلهم من الشباب الديني ذلك اليوم، وجماعات أخرى هناك منها التي اتصلنا بها وهم أكبر منا طبقة اشترك أكثرهم بعد ذلك في «منتدى النشر» ومحورها الثلاثة المعروفون بالصفوة أو أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع: «الشيخ محمد جواد الحجامي والشيخ محمد حسين المظفر والسيد علي بحر العلوم».

ولا أزال أحتفظ بمحاضر جلسات جماعتي الأولى تلك وبمذكراتي الخاصة عنها وعن غيرها، وهي على بساطتها تمثل لي مقدار التكتم والخوف الذي كان يساورنا وكان عملنا وتفكيرنا مقتصراً على تفقد المفكرين من أصحابنا الذين يحسّون بالداء مثلنا، وبالرغم من مواصلة الجلسات والتفكير طيلة عام واحد لم نستطع أن نخرج صوتنا من غرفتنا إلّا بعض الشيء، ولم نستطع أن نضم إلينا أكثر من عشرة أعضاء فرق الزمن بين أكثرهم في بلاد نائية وقريبة ولا يزالون في قيد الحياة في النجف وخارجه يقرؤون كلامي هذا إذا اتفق لهم (ولا بدّ). وما أدري هل يسمحون لي أن أذكر أسماءهم ولكن صديقي العلّامة الشيخ عبد الله السبيتي اعتقد أنه لا يبخل عليّ بالتصريح باسمه والآخر! من هو؟ (فليسمح لي أن أذكر اسمه) الأخ بالروح العلّامة الشيخ محمد كاظم آل الشيخ راضي[1]، وعندما يقرأ اسمه الصريح هل يرتاح له، سأعرف ذلك عندما أعلم أنه قرأه.

وفي عام ١٣٤٩ هـ عندما هاجمت النجف كتب عدائية حسست الشعور العام اتخذه جماعة منا (وأكثرهم من هاتين الجماعتين السابقتين وأعضاء في المنتدىٰ أيضاً الآن) وسيلة للنهضة بتأسيس جمعية للنشر والتأليف، وكان ينوي بعض القائمين بالحركة الذين اتصلت بهم استغلال هذه الجمعية إذا تمّت

---

(١) نظام منتدىٰ النشر ١٣٧٠/اب.

لإصلاح الدراسة الدينية.

ولا أنسى ما قام به الأخ العلّامة الشيخ علي ثامر (مدرس علوم البلاغة في المنتدىٰ) من الجهود المشكورة في سبيل المشروع فقد كان هو من أول المفكرين فيه ومتتبعي هذه الحركة وفي داره عقدت الاجتماعات التمهيدية ثم في دار العلّامة السيد سعيد الحكيم وقد تمكن القائمون بالنهضة أن يشركوا معهم أشهر رجالات النجف وعلمائها ومفكريها حتى انتخبوا هيئة عاملة تتألف من سبعة أشخاص وهيئة عليا من ثلاثة مجتهدين وباقتراح هذه الهيئة العليا نهض العلّامة الأكبر المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغي لتأليف تفسير مختصر للقرآن العظيم ليكون باكورة الأعمال اسماه (آلاء الرحمن) وعاجلته المنية قبل إكماله وخرج منه جزآن وطبعا، فكان هذا كل نتيجة هذه الحركة.

وهذا هو الدور الثاني للفكرة ولم تخل النجف بين هذين الدورين وبعدهما من أحاديث وآراء ومجتمعات بل ومحاولات كالفقاقيع لم تظهر إلّا لتختفي كما يقولون ولا ينكر أيضاً أثرها في توجيه الأفكار وتهيئة الشعور العام.

وجاء الدور الثالث من قبل ست سنوات ـ أي من حين تدوين المذكرات ـ وهو أبعدها مدىً وأعظمها أثراً وذلك حركة «الكلية» كما يسمونها، لأنها هزّت النوادي النجفية هزّة عنيفة اشترك فيها الكبير والصغير والعالم والجاهل وقد بلغ الموقعون على ورقة شروط العمل المائتين وهم رجال العلم بالنجف وأهل الكلمة فيه. ولكن يظهر أن هذه الكثرة في ابتداء العمل وقبل انتظامه ممّا ساعد على توقّف الحركة فلم تصمد أمام العاصفة الهوجاء، وقد أعطتنا التجارب أن الأعمال الكبيرة يجب لأجل نجاحها أن تقوم بها جماعة محدودة تدير دفة العمل بتعاضد وتكاتف وتضحية على عكس ما هو مشهور، لأن الشعور بالمسؤولية يقوى في الفرد إذا قلّت الجماعة وهكذا كلما كثرت الجماعة ضعف الشعور بالمسؤولية. وهذه نظرية اجتماعية نستطيع أن نلخصها بقولنا: «إن عدد الجماعة يتناسب تناسباً عكسياً مع الشعور بالمسؤولية في الفرد».

وأعتقد أن من أسباب فشل هذه الحركة أيضاً أن الدعوة كانت لعمل كبير جداً ليس من السهل تحقيقه مرة واحدة مهما كان القائمون به والتدرج سنّة الله

في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

فمن الضروري لمثل هذا العمل أن يبدأ صغيراً، وينمو بمرور الزمن إذا تعوهد من رجال مخلصين بالسعي والجهاد المتواصل ـ ولو تحققت يومئذ هذه الفكرة لتغير مجرى تاريخ النجف إلى غير ما نشاهد اليوم ولكانت علالي العلم سامقة دونها ناطحات السحاب» إلى آخر ما ذكره في مذكراته الطريفة المهمة التي لو قدر لها أن تنشر لأفادت المكتبة الإسلامية ولأفاد منها الباحثون الشيء الكثير.

دور الشيخ المظفر في تطوير مناهج الدراسة والدعوة:

رأينا فيما تقدم من الحديث أن الشيخ المظفر كان يحتل القمة من النشاط الإصلاحي في النجف الأشرف، وساهم في جميع الحركات الإصلاحية التي أدركها، وكان فيها العضو البارز الذي يشار إليه بالبنان.

إلّا أن الفكرة الإصلاحية على قوتها وإيمان أصحابها بضرورة تحقيقها في الحوزة العلمية... كان يفقدها الوضوح والتفكير المنهجي في العلاج.

وقد قدّر للشيخ فيما قدر له، بفضل تجاربه الطويلة، أن تبلور لديه فكرة الإصلاح وتنظيم الدراسة والدعوة أكثر ممّا تقدم.

وأتيح له بفضل ما أوتي من نبوغ وحكمة في معالجة هذه القضايا أن يكشف عن الجذور الأولى للمشكلة، ويدعو إخوانه وأبناءه بإخلاص إلى معالجة المشكلة من هذه الجذور. والمشكلة فيما كان يبدو للشيخ تواجهنا في جهتين.

في مجال الدراسة وفي مجال الدعوة:

ففي مجال الدراسة لاحظ أن التدريس في مدرسة النجف الأشرف ينتظم في مرحلتين:

١ ـ مرحلة المقدمات والسطوح. ٢ ـ مرحلة البحث الخارجي.

وتعتبر مرحلة السطوح دوراً إعدادياً، بينما تعتبر مرحلة الخارج دوراً للتخصّص في الاجتهاد.

وطبيعة هذه المرحلة تأبى أي تعديل في شكلها ومحتواها ولا يمكن إخضاع هذه المرحلة من الدراسة لأي تنظيم منهجي خاص. ولا تتبع الدراسة في هذه المرحلة تنظيماً خاصاً ولا تكاد تشبه الدراسة بالمعنى المنهجي الذي نفهمه من الدراسة.

ففي هذه الدراسة تقع مهمة الإعداد كله أو جزء كبير منه على الطالب نفسه. ويقوم الطالب في هذا الدور قبل حضور المحاضرة بإعداد مادة البحث وصوغ هذه المادة بالشكل الذي يتطلبه البحث العلمي ومراجعة الكلمات والأقوال في ذلك، وما يصلح وجهاً لمناقشة ذلك كله ويحضر البحث بعد ذلك ليصغي إلى توجيه الأستاذ في صياغة البحث والمناقشة فيناقش الأستاذ فيما يبدو له من رأي! وبعد نقاش يجري بين الأستاذ والطالب يقتنع الطالب برأي الأستاذ أو ينزل الأستاذ عند رأي الطالب ويصحّح الطالب على ضوء من هذا التوجيه والإشراف ما كان يبدو على تفكيره من وجوه الضعف والنقص.

وطبيعة هذا البحث لا تتحمل أي تحديد وتنظيم، خارج الحدود التي رسمناها له، ولا يمكن حصر النقاش أو تحديد البحث بحد خاص، كما لا يمكن أن يكون الامتحان داعياً إلى البحث والدرس في هذا الدور.

فإن الامتحان يبعث عادة على تحضير المادة التي يتلقاها الطالب في المدرسة. وطبيعة الدراسة الخارجية تتطلب التمحيص والبحث أكثر ممّا تتطلب التحضير والإعداد، ولا يمكن أن يبعث إليه غير الرغبة إلى البحث.

وقد أدرك الشيخ المظفر لهذا وأمثاله أنه لا يمكن إجراء أي تعديل في هذا الدور من الدراسة والدور الأول وحده هو الذي يعاني شيئاً من النقص ويحتاج إلى شيء من التوجيه والتنظيم.

ولاحظ أن أسباب ذلك يرجع إلى نقص في المادة وضعف في الأسلوب.

أما من حيث المادة فإن المادة التي يتلقاها الطالب النجفي في هذا الدور من الدراسة لا تزال في كثير من الأحوال تقتصر على دراسة النحو والصرف والبلاغة والمنطق والتفسير والفقه والأصول، مع توسّع في المادتين الأخيرتين.

وهذه المواد على ما لها من الأهمية في تكوين ذهنية الطالب لا تنهض وحدها بواجبات الطالب الرسالية من توجيه ودعوة وتبشير وتثقيف. ولا يستطيع الطالب أن يقتصر على هذه المادة التي يتلقاها في هذا الدور لو أراد القيام بدوره من التوجيه والدعوة على أوسع نطاق.

ولا يستغني أن يتعرف على مناهج الفكر الحديث وبعض الدراسات البشرية وحقول من المعرفة التجريبية، كما لا يستغني من أن يملك الأداة البيانية الكافية من كتابة وخطابة للقيام بواجبه الرسالي في حقول الدعوة والتوجيه ولو أراد الطالب النجفي أن يوفي هذه الحقول الجديدة من الفكر حقّها من الدراسة والمعرفة فلا يتاح له بعد ذلك أن يتوسع هذا التوسع الهائل في دراسة النحو أو الصرف أو البلاغة وما يحمل في طياتها من أبحاث طويلة هي إلى الترف الفكري أقرب منها إلى أي شيء آخر.

ومن حيث الأسلوب لاحظ الشيخ المظفر أن الكتب الدراسية التي يتعاطاها الطالب النجفي في هذا الدور لا يزال يطغى عليها طابع الغموض والتعقيد، ممّا يحوج الطالب إلى أن يصرف جهداً كثيراً في فهم العبارة وما يظهر عليها من غموض وتعقيد.

ذلك بالإضافة إلى سوء التنظيم في تنسيق الأبحاث.

وإذا قدّر للطالب أن يصرف هذا الجهد الذي يبذله في فهم العبارة قبال الجهد الذي يبذله في تلقي المادة نفسها. . . إذا قدّر له أن يصرف هذا الجهد في شؤون أخرى من الفكر، ممّا يهم الطالب في أداء مهمته الرسالية لوفّر على نفسه كثيراً من الجهد وفتح على نفسه أبواباً جديدة من الفكر.

ولاحظ أن الدراسة الفردية أو دراسة الحلقات المعروفة في النجف تدفع الطالب إلى الشعور بالمسؤولية إزاء نفسه وتبعثه إلى البحث والتحضير أكثر ممّا تبعثه إلى ذلك الدراسة المنظمة التي تعتمد على الامتحان وعلى مسؤولية المدرسة، دون مسؤولية الطالب نفسه، إلاّ أن هذا النظام لا يخلو كذلك من بعض النقص فقد يقضي الطالب وقتاً طويلاً في العثور على الأستاذ الخاص، وقد لا تتوفر في الطالب الدواعي النفسية التي تبعثه على العمل الفردي ولا يشعر

بالمسؤولية التي يشعر بها الآخرون.

ذلك فيما يخصّ تنظيم الدراسة. أما ما يخص الدعوة والتوجيه:

فقد وجد الشيخ المظفر أن أداة الدعوة المفضلة هي الخطابة والكتابة. والدعوة الإسلامية تعاني ضعفاً في هذين الجانبين.

أما فيما يخصّ الخطابة فقد كان رحمه الله يلاحظ أن أسلوب الخطابة في النجف بوضعها الحاضر لا يفي برسالة النجف بالشكل الذي يليق بمركزها الديني ولا يتم للخطيب أن يقوم بواجبه الإسلامي على نطاق واسع، ما لم يطلع على آفاق الفكر الحديث وشؤون المعرفة التجريبية، بالإضافة إلى الإحاطة الكاملة بشؤون الفكر الإسلامي من فقه وتفسير وحديث وتاريخ وما إلى ذلك.

وفيما يخصّ الكتابة الإسلامية كان يلاحظ أن مدرسة النجف لا تزال تعاني ضعفاً وتأخّراً في هذا الجانب من رسالتها.

ومكانة النجف الدينية تتطلب منها أن تساهم في نشر الفكر الإسلامي على نطاق أوسع من الشكل الحاضر، وأن تنطلق الدعوة الإسلامية منها عن طريق الكتابة والتأليف والصحافة والنشر على أوسع مجال، وأن يشمل هذا التيار الفكري الذي ينطلق عنها والذي يحمل معه الإيمان والإصلاح في وضوح وجلاء أقطار العالم وأينما يحلّ إنسان على ظهر هذا الكوكب. في الوقت الذي كان يلاحظ فيه أن مدرسة النجف لا تعوزها في كثير من الأحيان مادة الكتابة والبحث.

ومرجع هذا الضعف، كما كان يبدو له رحمه الله إلى عدم تمكن الكاتب النجفي من التعبير، وفقدان الصياغة الأدبية في الكتابات النجفية... في ذلك الوقت.

ومن جهة ثانية كان يلاحظ أن طابع الفردية هو الذي يغلب على الكتابة النجفية والأبحاث التي يعرضها الكاتب النجفي فهي أقرب إلى الجهد الفردي منه إلى الجهد الجماعي. فلا تبحث الشؤون الفكرية فيما عدا الفقه والأصول والتفسير بصورة عامة، ولا توجد لجان خاصة لتحقيق هذه الأبحاث وتنقيحها

ومراجعتها قبل عرضها على المطبعة.

ومن جهة ثالثة لم تتوفر في النجف في ذلك العهد مطابع مجهزة ولا دور جاهزة للنشر تليق بالمادة العلمية الخصبة التي تعرضها النجف على المطبعة.

يقول الشيخ رحمه الله في بعض حديثه: و(النجف) بلاد علمية من قديم القرون وعاصمة للمرجعية في التقليد والجامعة الأولى لدراسة العلوم الدينية والعربية، ولها سوق رائجة في الأدب العالي، وفيها في كل عصر مؤلفون وأدباء، ولها في كل فن كتب وآثار، فهي من هذه النواحي غنية لا يضارعها بلد إسلامي آخر، ولا سيما قبل عصر النهضة الحديثة.

إلَّا أن الذي ينقصها ـ ويجب الاعتراف به ـ تنظيم نشر ما تضمّ كنوزها من مؤلفات قديمة وحديثة وتوجيه التأليف على النحو المرغوب فيه في هذا العهد وتشجيع المؤلفين والناشرين في عصر راجت فيه الطباعة واتسقت حركات الثقافة واتسعت دور النشر، وحرمت منه بلادنا المقدسة. فهي على ما فيها من مادة غزيرة منكمشة على نفسها لا تظهر آثارها كما يجب أن تظهر. وما يتفق أن ينشر في منتجاتها وإن كان ليس بالقليل في حدّ نفسه لا يبلغ الواحد من المائة إذا أردنا المبالغة، على أنه قد لا ينشر المنتخب والمختار من تلك المؤلفات، لأن ما يطبع على الأكثر إنما هو نتيجة جهود فردية يقوم بها أشخاص المؤلفين أو من يمت إليهم بصلة.

وهذا ما أوجب الظن عند البعض بأن ما يقال عن العلم والأدب والتأليف في النجف الأشرف إنما هو من نوع الدعاية الفارغة، وقد يكون هذا معذوراً في ظنه، لأن طفرة العالم العربي فضلاً عن غيره في هذه الناحية، ناحية النشر والتأليف لم تدع المجال للعذر في تأخّر النجف عن ذلك والمنتظر منها أن تصدر على الأقل كل يوم مؤلفاً طريفاً حسب ما يتناسب مع سمعتها. ولكن هذا الظن فيه من الحيف العظيم الذي لا يعرفه حقاً إلَّا نفس أهل العلم بالنجف أو من يتصل بهم اتصالاً ثقافياً.

وينسب الدكتور مهدي البصير في كتابه الحديث (نهضة العراق الأدبية) طمس تلكم الآثار إلى قلة ذات يد المؤلفين والأدباء فتقعد بهم عن إذاعتها، وقد

يكون هذا صحيحاً إلى حد ما، ولكن له سبب آخر هو - فيما أرى - سبب الأسباب، وهو عدم وجود مؤسسة كبيرة تفي بذلك، وبالأصح هو عدم وجود شعور عام عندنا يقذف بالرجال إلى العمل المجدي في هذا السبيل وبتأسيس مشروع يليق بمكانة النجف العلمية والأدبية وقد كانت النجف تعتمد في نشر كثير من المؤلفات على مطابع إيران وتبرّع المحسنين، ثم لما تأسّست المطبعة التجارية فيها، ثم كثرت المطابع من هذا النوع، لم تكن وافية بالغرض ولا محققة للواجب لأمور يطول شرحها، على أن هذه المطابع على كثرتها اليوم تدأب وتعجّ بالعمل ولا نراها بالغة شيئاً ممّا يصبى إليه.

وكذلك أتيح للشيخ المظفر أن يدرس الحالة في النجف بموضوعية وشمول.

ولكنه كان يعلم في نفس الوقت أن عرض المشكلة لا يؤدي إلى شيء ما لم تتضافر الجهود مخلصة صادقة لتلافي النقص.

وكان يعلم أن الأساليب السلبية لا تنفع لمواجهة الحالة والهدم لا يفيد، ولا ينهض بشيء، ما لم يكن هناك بناء وراء ذلك.

فقد اعتاد الناس أن يصغوا إلى هذا النقد اللاذع الذي لا يبقي على شيء ولا يذر واعتاد الناقدون أن يتناولوا شؤون الحياة بالنقد الساخر، الذي لا يعرف الرفق.

وما أيسر النقد لو لم يستدع العمل، وما أسهل الهدم، لو لم يتطلب البناء. وكان الشيخ يدرك ذلك كله ويدرك أن الإصلاح لا يتم بالوسائل السلبية، ولا بدّ من البناء والعمل المثمر الهادف. وكانت وجهات النظر متباعدة في ذلك الوقت.

فكان منهم المحافظ، الذي يخشى أن يمسّ الوضع الراهن بشيء وكان منهم الخارج على الوضع المتمرّد عليه، الذي اعتزل الوضع فانقلب في نفسه هذا الشعور إلى شعور بالعداء.

ولا يتاح لأحد أن يعمل قبل أن يجمع بين هذه الوجهات المتباعدة من الرأي.

ثم العمل الثوري الذي يصدر عن العاطفة لا ينفع في مثل هذه الموارد، بل يؤدي إلى نتيجة معاكسة تماماً، فإن الحركات الثورية تؤدي في مثل هذه الأوضاع إلى إبعاد القائمين بالعمل عن الوسط الاجتماعي وعزلهم عن النشاط الإصلاحي.

ولا يكاد ينفع العمل الإصلاحي في مثل هذه الظروف، ما لم يكن مقروناً إلى دراسة الوضع دراسة موضوعية شاملة وإلى الروية والتدرّج في العلاج.

وقد أدرك الشيخ كل ذلك وفكّر في ذلك كله طويلاً، وشمّر عن ساعد الجد ليخوض ميدان العمل، وهو يدري أن هناك عقبات صعاباً تعرقل سيره في هذا الطريق.

وأول ما بدا له إيجاد جماعة واعية من إخوانه فضلاء الحوزة تفهم ملابسات الحياة النجفية وتعي واقع الرسالة الفكرية الضخمة التي تحملها النجف.

وفي رابع شوال عام ١٣٥٣ المصادف ٩٣٥/١/١٠ قدم ثلّة من الشباب الروحانيين (فيهم الشيخ) بياناً إلى وزارة الداخلية يطلبون فيه تأسيس جمعية دينية بالنجف الأشرف باسم منتدى النشر مصحوباً بالنظام الأساسي وبعد اللتيا والتي أجازت الوزارة فتح المنتدى.

وأعقبها بمحاولة لتنظيم الدراسة، وتبسيط الكتب الدراسية، وتوسيع المناهج الدراسية، ووجد أن الدراسة المنهجية هي الخطوة الأولى في هذا الطريق، ومهما كانت ضرورة الدراسة الفردية، ومهما قيل في جدواها فلا بدّ أن ينضم إلى هذا اللون من الدراسة لون آخر من الدراسة يعتمد على نظام خاص.

وبهذا الشكل حاول أن يحقق جزءاً من الإصلاح.

وكان يتوخى من وراء ذلك تبسيط الكتب الدراسية وتنظيم الدراسة وتوسيع المناهج الدراسية بصورة منهجية، خاضعة لنظام خاص تعد الطالب لدخول الدراسات الخارجية والتخصّص في الاجتهاد، أو التفرّغ للخطابة والكتابة الإسلاميتين أو ما يتصل بذلك ممّا يرتبط برسالة النجف الأشرف.

فوضع في سنة ١٣٥٥ (الخطة لتأسيس مدرسة عالية للعلوم الدينية أو كلية للاجتهاد بفتح الصف الأول الذي كان يدرس فيه أربعة علوم: **الفقه الاستدلالي** والتفسير وعلم الأصول والفلسفة على شكل محاضرات توضع بلغة سهلة واضحة، فتبرّع بتدريس الأول والثاني الشيخ عبد الحسين الحلي وتبرّع بتدريس الثالث والرابع الشيخ عبد الحسين الرشتي. وكان تبرع هذين العلمين بالتدريس دراسة منظمة من أهم الأحداث في تاريخ النجف الأشرف ويعد تضحية نادرة منهما تذكر مدى الدهر بالتقدير والإعجاب بروحهما الإصلاحية. ولم تأت العطلة الصيفية إلّا وتعطل هذا الصف ليعود بعدها ولكنه أبى ولا يدري غير بعض أعضاء مجلس الإدارة أكان إباؤه عن دلال أم ملال أم عن شيء آخر غير منتظر حتى من مثل هذين العلمين نفسهما. قاتل الله الشجاعة الأدبية كيف تعزّ في أشدّ ظروف الحاجة إليها[1].

(وفي سنة ١٣٥٧ هـ بعد فتور وفترة مقدارها قرابة السنة تأسّس صف لدراسة العلوم العربية والمنطق والفقه والأدب العربي وبعض الفروع الأخرى، واستمرّ إلى آخر السنة، وكان نجاحه ممّا شجع فتح ثلاثة صفوف في سنة ٥٧ ـ ١٣٥٨ دراسية واعتبر الطلاب المتخرجون من الصف السابق طلاباً للصف الثالث، وقد نجح هذا المشروع في تلك السنة نجاحاً باهراً وبلغ طلابه ١٥٠ طالباً واعترفت بها وزارة المعارف[2].

وتمّ له في سنة ١٣٦٤ هجرية بقوة الاستمرار أن يفتح أربعة صفوف باعتبارها قسماً متوسطاً للعلوم الدينية مع صف تحضيري قبلها وثلاثة صفوف أخرى عالية اعتبرت كلية للفقه، وقد نجح في خلال هذه المدة جماعة لا يستهان بها من الطلاب الأذكياء الذين أصبح قسم منهم مفخرة من مفاخر الجيل، في ثقافتهم وأقلامهم وأخلاقهم الإسلامية، وجملة منهم لا يزالون يؤدّون واجبهم المقدس في تربية الناشئة الدينية)[3].

---

(١) منتدىٰ النشر أعماله وآماله ٨ ـ ٩: الشيخ محمد رضا المظفر.
(٢) نظام منتدىٰ النشر ١٣٧٠ هـ ح ط بتصرف.
(٣) نظام منتدىٰ النشر ر ط.

وفي سنة ١٣٧٦ هـ بعد محاولات عديدة وتجارب طويلة أسّس الشيخ المظفر كلية الفقه في النجف الأشرف، واعترفت بها وزارة المعارف العراقية سنة ١٣٧٧ واعتبرت شهادتها عالية يطبق على حاملها ما تنص عليه القوانين والأنظمة فيما يتعلق بخريجي المعاهد العالية.

والعلوم التي تدرس فيها هي الفقه الإمامي، والفقه المقارن وأصول الفقه، والتفسير وأصوله، والحديث وأصوله (الدراية) والتربية، وعلم النفس، والأدب وتأريخه، وعلم الاجتماع، والتاريخ الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، والفلسفة الحديثة، والمنطق، والتاريخ الحديث، وأصول التدريس، والنحو، والصرف، وإحدى اللغات الأجنبية.

وقد بذل الشيخ حياته في سبيل تنمية هذه المؤسسة بإخلاص وإيمان يعزّ مثله في نفوس المجاهدين، فكان يقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية، وإدارة الصفوف عند غياب بعض المدرسين، في سائر العلوم. وكان في الوقت نفسه يعد مجلدات كتابه القيم (أصول الفقه) للتدريس في (كلية الفقه)، وفي حوزة النجف الأشرف باعتباره الحلقة المفقودة بين كتاب معالم الأصول وكفاية الأصول، ويباشر مهام الإدارة والعمادة والتأليف وحتى تدوين السجلات في بعض الأحيان.

وكم رأيت الشيخ، وهو يقوم بتدوين بعض سجلات الطلبة، أو مراجعتها، أو طباعة بعض الرسائل بالآلة الطابعة.

وكذلك قامت المؤسسة على عاتق الشيخ الفقيد، وأودعها حياته، وشيّدها بدقات قلبه، وبذل في سبيلها جميع إمكانياته.

وحاول في الوقت نفسه أن يقوم بتبسيط الكتب الدراسية وإزالة التعقيد والغموض عنها، ليسر للطالب المادة الدراسية في الدرس من غير جهد ومشقة، وليوفر على الطالب كثيراً من الجهود التي يبذلها في هذا السبيل، ليصرفها في مجالات الفكر الرحبة.

وحرّر لذلك كتابيه (المنطق) و (أصول الفقه) فحرّر بهما هذين العلمين من

غموض وتعقيد الكتب القديمة.

ومن إنصاف الحق أن يقال أيضاً إن هذين الكتابين يعتبران فتحاً كبيراً في هذا الباب، ولا يجد الباحث عسراً كثيراً ليلتمس الجهد الكبير الذي بذله الشيخ الفقيد لتبسيط المنطق والأصول في هذين الكتابين مع صعوبة المادة في ذاتها.

ولا يقتصر الجهد التجديدي الذي بذله الشيخ المظفر في هذين الكتابين على تبسيط العرض، ففي هذين الكتابين وجوه أخرى من التجديد والتطوير لا توجد في الكتب الأخرى.

وقد حاول المؤلف أن يجاري في هذين الكتابين أحدث المناهج التأليفية في كتب الدراسة الجامعية من العرض والتبسيط والتمثيل والتمرين والتنسيق والتعليق.

وحبذا لو قام أعلام الفكر من أمثال الفقيد بالإشراف على تأليف الكتب الدراسية من جديد، وفق المناهج الحديثة.

وبحوثه في الفلسفة الإسلامية لا تقل أهمية عن كتابيه (المنطق والأصول) لولا أنها لم يقدر لها أن تطبع.

ذلك كله فيما يخصّ الدراسة.

أما فيما يخصّ الدعوة والتوجيه الديني ففي مجال الخطابة كان الشيخ الفقيد يؤمن بأن الخطابة الحسينية تعتبر من أهم الوسائل الدعائية.

ولا تكاد تفي الخطابة الحسينية بوضعها الحاضر بمهامها الرسالية[١]. ولا بدّ من العمل لإنقاذ الخطابة الدينية من وضعها الحاضر وتربية نشء من الخطباء يملكون الكفاءات التي تؤهلهم للخطابة الإسلامية، وذلك بفتح معهد خاص يعنى بشؤون الخطابة الإسلامية، وتدريس العلوم التي يلزم الخطيب الإلمام بها، والتي تتصل برسالته الإسلامية، بوجه من الوجوه.

وكان فتح معهد بهذا المستوى من أكبر آمال الشيخ ففي التقرير السنوي

(١) لاحظ كتاب: من حديث الدعوة والدعاة لكاتب هذه السطور.

الذي رفعه إلى الهيئة العامة سنة ١٣٦٣ تصريح بهذه الفكرة فقد جاء فيه (كلية الوعظ والإرشاد، تحول المتخرج أن يعظ باسم الدين وأن يكون ذاكراً للحسين عليه السلام والمنوي السعي في فتحها في فرصة قريبة إذا سهل الله تعالىٰ)[١].

وتألفت هذه اللجنة عام ١٣٦٣ هـ برئاسة خطيب العراق الشهير فضيلة الشيخ محمد علي قسام وذلك على أثر التحسّس العام الذي ظهر في جميع الأوساط المثقفة في العراق بضرورة تهذيب ناشئة خطباء المنبر الحسيني وتثقيفهم ثقافة عالية تليق برسالة الإمام الحسين الشهيد (ع)، وقد باشرت هذه اللجنة أعمالها وشرعت بالفعل ـ قبل أن يتم منهاج المدرسة وفتحها رسمياً ـ في فتح صف بمثابة تجربة لعملها لدراسة الفقه والعلوم العربية وأصول الدين وأصول الحديث «علم الدراية» غير أنه لم يمض على فتح هذا الصف التجريبي قرابة شهر واحد إلاَّ وثارت ـ على غير انتظار ـ زوبعة عنيفة على هذه اللجنة، بحجة أنها تسعى لتحديد نوع خطابة المنبر الحسيني وتحديد أشخاص الخطباء، وبحجة أنها تريد أن تقلص من ذكر الحسين عليه السلام وبغير ذلك من التهم الباطلة التي كانت تكال على هذه اللجنة في حين أن أعضاءها كلهم من مشاهير الخطباء وأتقيائهم الذين يحرصون كل الحرص على خدمة الحسين عليه السلام ومنبره، وما كان تأليفهم اللجنة إلاَّ بدافع الإخلاص للدعوة الحسينية، لغرض تثقيف ناشئة الخطباء، وقد تكهرب جو النجف بهذه التهم ضد اللجنة ممّا اضطرّ معه أصحاب اللجنة إلى أن يسرعوا في إلغائها تفادياً من وقوع ما لا تحمد عقباه وكانت هذه الحركة الثائرة في وضع لم يدع للجنة المهلة لكشف نواياها ومبادئها، وبعد إلغائها في فترة وجيزة استطاع رجال المؤسسة وجماعة من علماء البلد وزعمائها أن ينوروا الرأي العام بالدوافع الحقيقية لتلك الحملة وأن يفهموا الفوائد العظيمة التي كانت تجنى من تأليف مثل هذه اللجنة وما يجب أن يذكر للتاريخ أن الذين تأثروا لهذه الحركة وقابلوا الجمعية كان أكثرهم مندفعين بدافع من سلامة النية ووفرة الإيمان الصحيح لذلك كانوا أسرع استجابة من غيرهم إلى قبول ما أدلى به موضحو الفكرة من العلماء والزعماء)[٢].

---

(١) منتدىٰ النشر أعماله وآماله /٢٢.

(٢) نظام منتدىٰ النشر ١٣٧٠/٤ ـ ص.

وقد امتحن الشيخ المظفر في هذه المرة امتحاناً عسيراً، وكاد أن يقضي ذلك كله على حياة المؤسسة التي غذاها الشيخ بروحه وفكره بإخلاص، وقد أدّى فعلاً إلى استقالة الشيخ محمد شريعة سكرتير المؤسسة وخسرت المؤسسة هذا العضو العامل، الذي كان يعتبر محوراً للحركة، في كثير من وجوه نشاط المؤسسة.

وكان الشيخ المظفر يبدو في هذه الفتنة ثابت الجأش مطمئن النفس شديد الإيمان بالله تعالىٰ وقد اضطر أن يعتزل المجتمع أياماً معدودة ولكن ريثما يهدأ الجو مرة أخرى، وليرجع إلى المجتمع ثانية، بإيمان أقوى ونفس مطمئنة، لا تعرف الملل، ولا تفهم الفشل.

وفي مجال الكتابة كان يحاول أن يجد من قاعة محاضرات المجمع العلمي وكلية الفقه منطلقاً للكتابة الإسلامية، وكان يبعث روح الكتابة والتأليف في نفوس إخوانه وأبنائه ويدفعهم إلى ذلك دفعاً، ويؤلف لذلك اللجان ويعد له القاعات كما يعد له الوسائل الكافية للنشر.

استمع إليه في بعض حديثه:

(ولما توسعت أعمال منتدىٰ النشر بقي الغرض الأقصى وهو النشر والتأليف يشبه أن يكون مهملاً في سجل أعماله ولكن ليس معنى ذلك أنه مهمل حقيقة حتى تأسّست له لجنة المجمع الديني منذ عامين تقريباً وهمّها الأول كان تهيئة أعضائها للتأليف وإلقاء المحاضرات النافعة ومبادلة الرأي فيما يجب العمل له في هذا السبيل فوفقت أن تجعل يوم الجمعة من كل أسبوع يوماً لاستماع محاضرات الأعضاء بصورة متوالية ثم توسعت حتى كان اجتماع يوم الجمعة يشبه أن يكون يوماً عاماً يشترك في الحضور فيه جماعة كبيرة غير أعضاء اللجنة من أعضاء المنتدىٰ وغيرهم وزادت على ذلك بإقامة الحفلات والمحاضرات العامة في شتى المناسبات لفائدة العموم وقد شهدت النجف الأشرف في أسبوع الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بمناسبة ذكرى وفاته مهرجاناً في مدة أسبوع كامل منقطع النظير.

وقد فكرت أخيراً أن تعد مشروعاً ابتدائياً كباكورة لأعمالها التي تنويها وهو

إعداد سلسلة مؤلفات صغيرة نافعة، فيها فائدة للخاصة وتثقيف للعامة)[١].

وقد قدر لهذا المشروع فيما بعد أن ينشر سلسلة من الكتب الإسلامية والتوجيهية النافعة منها كتاب الشيعة والإمامة للشيخ محمد حسين المظفر، والصادق والثقلان وتاريخ الشيعة له أيضاً وأسبوع الإمام وهو يحتوي على مجموعة من المحاضرات التي ألقيت في الأسبوع الذي أقامته لجنة المجمع الثقافي بذكرى شهادة الإمام (ع) في شهر رمضان ١٣٦٤، والسقيفة للفقيد المظفر والزهراء للسيد محمد جمال الهاشمي ومالك الأشتر للسيد محمد تقي الحكيم.

وقدر لهذه المؤسسة، فيما قدر لها برعاية من الشيخ الفقيد أن تصدر في هذه المدة مجلتين، تعتبران من خيرة المجلات العراقية هما مجلة البذرة ومجلة النجف، وقد تعهد طلابه كلتا المجلتين بالتحرير والإصدار، وهم يجدون في عطف الشيخ الفقيد وعنايته البالغة بهم وتوجيهاته الكريمة خير باعث على العمل.

وكان الشيخ المظفر محور الحركة في مختلف وجوه النشاط، وباعثها في كثير من الأحيان، ولم يظهر على حديثه أو قلمه طيلة هذه المدة ما يشعر بأنه شيء يذكر في هذه المؤسسة إلاّ عندما يأتي حساب المسؤولية فيظهر الشيخ على المسرح ليتحمل هذه المسؤولية بنفس ثابتة وإيمان قوي.

وما أكثر ما شوهد الشيخ يلقي دروساً على طلابه الناشئين أو يلقي عليهم نصائح وإرشادات أو يقوم بتوجيههم بنفسه في روحانية وبساطة.

ولم يعرف الشيخ الفقيد حيناً من الزمن معنى لكلمة (أنا) ولما يلابس هذه الكلمة من بغض وحب في غير ذات الله.

فقد كانت نفسه الكبيرة تضيق بما يسمى (بالبغض) ولا تعرف معنى للخصومة والعداء فاستمع إليه كيف يحدد موقفه من خصومه أو بالأحرى من خصوم المؤسسة (... وأنا أكثر إخواني عذراً لجماعة كبيرة ممّن وقف موقف المخاصم لمشروعنا ولا سيما الذين نطمئن إلى حسن نواياهم ويطمئنون إلى حسن نوايانا).

---

(١) مقدمة كتاب مالك الأشتر ٨ ـ ٩.

وقلما نعهد أن تبلغ التضحية ونكران الذات فيمن رأينا من أصحـاب الأفكار هذا الحد. . . في سبيل الفكرة التي يؤمن بها الإنسان.

وإن من أحب الأشياء إليّ أن يصغي القارىء إلى هذه الجملة الرقيقـة التي تشف عن نفسية كاتبها الكبيرة: (ونحن مستعدون لتضحية جديدة بأنفسنا فنتنحى عن العمل عندما نجد من يحبـون أن ينهضوا بـه دوننا خصـوصاً إذا اعتقـدوا أنهم سيعطون المشروع صبغة عامة بدخولهم وليثقوا أنا عمال للمشروع أينما كنا ومهما كانت صبغتنا فيـه ولا نريـد أن نبرهن بهـذا القول على حسن نـوايانـا. إن هذا لا يهمنا بقليل ولا كثير بعد الذي كان، إنما الذي يهمنـا أن ينهض المشروع نهضـة تليق بسمعة النجف ويؤدي الواجب الملقى على عاتقه كـاملاً، وبـأي ثمن، حتى إذا كان ثمنه أرواحنا. وما أرخصها في سبيل الواجب.

وقـد صرّحنـا مراراً أننـا لم نخط حتى الآن إلاَّ خطوة قصيـرة في سبيـل مـا يقصد من أهدافه).

❋ ❋ ❋

الكاتب المذكور أحد الأشخاص الذين تعاملوا مع المؤسسة المذكورة من خلال الانتساب إليها درساً وتدريساً وعضوية ، وهناك كاتب آخر واكب المؤسسة منذ الأربعينات وانتسب إليها دراسياً ، حيث يقدم لنا من الأوراق الآتية حديثاً عنها وعن مؤسسها الشيخ محمد رضا المظفر بعنوان :

* * *

صفحات مطوية
من تاريخ الحركات الإصلاحية
في النجف الأشرف

بقلم: الأستاذ محمد حسن القاضي

مدينة النجف الأشرف. بدأت نشاطها كجامعة علمية دينية جعفريّة تظافرت فيها الجهود لجمع شتات العلوم الدينية للشيعة الإمامية أواسط القرن الخامس وذلك بعد أن اتخذها الشيخ الطوسي (شيخ الطائفة) وهو لقب خاص به - مركزاً لنشاطه العلمي والثقافي والسياسي كذلك. واحتف به جملة من علماء الشيعة وأفاضلها المقربين لديه والمعترفين بفضله والمغترفين من فيض نبوغه... وهؤلاء هم الذين أخذوا زمام المبادرة في تمصير هذه الحاضرة العلمية.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت النجف تجتذب العلماء والطلاب من شتى نقاط ونواحي العالم الإسلامي ليتوفروا على كسب المعارف الشيعية الإسلامية ويلتفوا حول هذا المركز ويكون لهم أعظم الأثر في توجيه حركات الإمامية الثقافية والسياسية في كل قطر.

هذا... وقد تكفلت الكتب التي عُنِيت بتسجيل تاريخ النجف بدأ هذه الحركة وشرح ظروفها وملابساتها بصورةٍ مُفصّلةٍ لا يعنينا من هذا التاريخ هنا إلاّ الإشارة إلى أن (شيخ الطائفة) الطوسي (قدّس سرّه) هو الذي هاجر إلى النجف

الأشرف من (بغداد) وشدّ إليها الرحال ليبني وينشيء مدينة علميةً حول مرقد باب مدينة العلم علي بن أبي طالب عليه السلام.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ شتات علماء الشيعة الإمامية تتجمع في النجف الأشرف وتتألف لتكوّن حاضرةً علمية دينية تشد إليها الرحال وتقصدها من كل فج عميق للتزوّد من علوم الإسلام ومعارفه حيث تتواجد فيها فحول العلماء والباحثين والمؤلفين الكرام في مختلف العلوم والمعارف الإسلامي... مبتدئين من علمي النحو والصرف وفقه اللغة وعلوم البلاغة (وهذه العلوم هي أساس مجموعة المعارف الإسلامية) ثم التفسير والحديث وأصول الفقه والفقه وقواعده... يتخلل كل هذه... قسماً من التاريخ الخاص الإسلامي والسيرة النبوية... والرياضيات والجبر والفلك والنجوم وكذلك المنطق والكلام والأخلاق والفلسفة والعرفان العملي والعلمي... وما عدا علم الفقه والأصول كانت تدرس بصورة متفاوتة وعلى قدر الحاجة... وإنما تبذل كل العناية التامة بدراسة الفقه وأصول التشريع الإسلامي... ولأن بعض هذه العلوم قد تكفلت الجامعات العالميّة بتنشيط حركتها بصورة مباشرة وعلى مستوى عال بما تيسر لها حكوماتها من إمكانات وأسباب ووسائل.

هذا ومن الجدير بالذكر... إن تاريخ النجف الأشرف لم يذكر لنا كيفية الدراسة في هذه الجامعة خاصة بالنسبة للصفوف الأولى وكذا المستويات الرفيعة فيها... وكيفية التخرّج والفراغ من الدراسة ومن ثم الانصراف إلى جهة التبليغ أو التعليم أو تأليف الكتب... وكذا عن الجهة التي كانت تموّل هذه الجامعة الضخمة وهذه المدينة النائية، والواقعة في ناحية من الصحراء العربية وبعدها عن المدن الشيعية الغنية إذا أخذنا أو اعتبرنا أن الناس والشيعة الإمامية بالذات منصرفون في مدنهم إلى أعمالهم الخاصة دون أن يعيروا هذه المدينة أي عناية أو أهمية... ولكن يبدو أن الأمر لم يكن كذلك وأن النجف كانت موضع اهتمام الغالبية من رؤساء وحكومات ورجالات الشيعة... وكان فرضاً عليهم أن يعيروا جلّ اهتمامهم بتمصيرها وتحويلها وأخذ الآراء والتعاليم من علمائها فإنهم كانوا (ولا يزالون) زعماء الدين ومراجع التقليد يعتمد عليهم في حلّ المشاكل الدينية والعلمية... وحتى السياسية كان رأى النجف الأشرف والزعيم النجفي كل شيء

في نظرهم يأخذون به ويعملون على نهجهه... يظهر هذا من مجموعة الكتب والمؤلفات القيمة والتي هي في أرفع مستوى من العمق والدقة... التي بأيدينا... والتي تزخر بها المكتبة العربية في أكثر أقطار العالم الإسلامي اليوم.

وقد قرأت في بعض الكتب المخطوطة القريبة من تاريخنا... إن العوائل في إيران والهند وأفغانستان وسوريا وغيرها من المدن التي كانت تعيش فيها جاليات شيعية... قرأنا في هذه الكتب إن هذه العوائل كان فرضاً عليها أن ترسل أحد أولادها إلى النجف الأشرف للتزوّد من العلوم والمعارف الإسلامية وتتكفل العائلة بتمويل هذا الطالب المنتدَب من قبلهم طيلة مدة بقائه في النجف حتى يتخرج ويعود إلى الوطن ليقوم فيها بوظيفة المعلم الديني.

ولعل هذا الأصل (أو هذه القاعدة) كانت متبعة حتى الفترات الأخيرة أي ما قبل وبعد زعامة الشيخ مرتضى الأنصاري العلمية (تغمده الله برحمته) وإنما أحدّد هذ التاريخ بالذات لأن المعروف عنه.. إنه هو الذي نظم (الخمس) على الصورة المتبعة اليوم في صرفه (نصفه يدفع للإمام أو القائم مقامه وهو الزعيم الديني المتفق على زعامته... وهو بدوره يصرفه على تمويل طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف أو سائر البقاع حسب رأيه... أما النصف الثاني فيتصرف فيه صاحبه ويدفعه إلى من يريد من السادات والعلويات في وطنه).

ولا ننسى أن هناك موقوفات خاصة لهذا الغرض كان يرسل ريعها إلى النجف الأشرف لتمويل طلبة العلوم الدينية... هذه الموقوفات كانت في مشهد الإمام الرضا عليه السلام وفي أكثر المدن الإيرانية... وفي بعض مدن الهند التي كانت مستوطناً للشيعة الإمامية (نذكر منها موقوفة أراك التي كانت ترسل حتى الفترة الأخيرة إلى النجف... كما وسيطر بعض زعماء الهند وحكوماتها على قسم من هذه الموقوفات... وكانت ترسلها إلى النجف وتوزع فيها تحت شعارات سياسية... وأمثالها كثير لا يسع المقام سردها).

ولعل إنصراف أولئك الرجال الأفذاذ المؤمنين حين هجرتهم إلى النجف لطلب العلم كان يُنسيهم ضيق المعاش والحياة الصعبة... هذا ما نعرفه من أحوال أكثر علمائنا في النجف الأشرف والذي يظهر ـ كما أسلفت ـ من مجموعة

الكتب التي بأيدينا بأن هناك المئات أو الألوف من المشتغلين بالعلوم الدينية في كل عصر، قد انصرفوا إلى طلب العلم كلياً وأنتجوا وأثمروا ما بأيدينا اليوم كل حسب اختصاصه ومؤهلاته ولم تقف الحركة العالية في النجف بسبب أو بآخر من قبيل ضيق المعاش أو عدم التمكن من الحياة المرفهة... بالرغم من أن الكتب التي تصدت لتسجيل تاريخ النجف لم تذكر لنا شيئاً مبسوطاً عن ذلك... نعم ذكرت إن الذين كانوا يسافرون إلى النجف لزيارة مرقد الإمام علي عليه السلام ما كانوا ينسون الذين كانوا يستوطنون هناك كمجاورين ولطلب العلوم والمعارف الإسلامية... كانوا يمدون إليهم يد المعونة بسخاء... هذا هو الذي نقرؤه في مطاوي الكتب... وبعض الأحاديث الجارية عن سيرة بعض العلماء السابقين وعلى العموم فهي حياة ليست بالمرفهة... إن لم تكن في الضيق والعسر... والإكتفاء باليسير من الأمور المعاشية واحتياجات الإنسان المنصرف إلى الدراسة وليس لديه متسع من الوقت للتكسب في طلب المعاش.

ولا ننسى ـ أن من بين هذه الكتب التي كتبت عن سيرة العلماء ما ذكرت ـ إن أمثال الزعيم الديني الأمثل الشيخ أحمد المعروف عندهم بـ (المقدس) الأردبيلي كان يقضي شؤون معاشه من عمل يدوي كان يتكسب به... وهو من مفاخر الشيعة الإمامية وأكبر مقتدًى للعلماء من بعده (أعلى الله مقامه الشريف) وقد نُقل مثل هذا عن آخرين.

إلَّا أنّ هذا ـ على أيّ حال ـ لم يكن القاعدة المتّبعة والسيرة المتفق عليها لدى الجميع.

بعد هذه المقدمة عن تاريخ النجف في القرون السابقة... نصل اليوم إلى عصرنا الحاضر (أواسط القرن الرابع عشر) الهجري القمري ونلقي نظرة على جامعتها العلمية الدينية في هذا الظرف الخاص حيث الجديد أخذ يتطاول على القديم والمناهج العلمية في مختلف الجامعات العالمية قد تطورت والعلوم في برامجها قد تغيرت وتشعبت من حيث الفروع والأصول... وكان لزاماً على كل جامعة تريد أن تساير وتماشي الجامعات في العالم وتفرض نفسها كجامعة علمية دينية تحمل رسالة خاصة أن تتطور طبقاً لمتطلبات الظروف والأحوال

ومن نافلة القول أن نقول كانت تقف وسط تيارات القديم والجديد فالجديد كان يغطي كل شيء من ظواهره والتقاليد والشعائر القديمة كانت تضمحل من الوسط بصورة محسوسة وسريعة وليس من المبالغة والمغالاة إذا قلنا أن القديم كان يذوب بصورة تلقائية مخزبة من أوساط الناس والمجتمع النجفي كان يستقبل الجديد ويعانقه بشوق ملحوظ . . .

ومن بين هؤلاء الذين تأثروا بالتيارات الجديدة الطلبة الدينيّون ـ ولعلهم أكثر انفعالاً من غيرهم ـ كانوا يمرون بأصعب الظروف والأحوال وأشد الأزمنة والأدوار لأنهم كانوا يواجهون جديداً لا قبل لهم عليه. . . وقديماً يخشون ضياعه وأن تذوب وتتسرب من بين أصابعهم وتذهب أدراج الرياح.

والواقع أن هذه الأفكار كان يلفها الارباك فالذي كان هو الدين الإسلامي وعلومه ومعارفه وهذا لا تناله يد البلى والقِدم. . . ولا يستطيع الجديد مهما أوتي من بَهرَجَةٍ وظواهر خلابة أن يصل إليه أو يناله بسوء لأنه يتمتع بقوةٍ ومرونة وسهولة يستطيع أن يعيش مع كل ظرف ويحتفظ بجدته في كل الأحوال. وكل ما هناك. . . أن الأمر يرجع إلى رجاله ومفكريه وعلى الأخص الذين يمسكون بزمام القيادة فيه.

«نعم يحتاج البحث إلى الإشارة العابرة لا سيما مع ذكر القديم والجديد إلى أن المدارس الحديثة التي بدأت يومئذٍ تتسرب وبسرعة إلى النجف هذه المدينة التي تسورت على ما فيها حرصاً عليها من الضياع والتلف. . . هذه المدارس الحديثة استحوذت بأساليبها الجديدة المزوقة على عقول الشباب من طالبي العلوم والمعارف أياً كانت وكأن السواد الأعظم من الناس كانوا في غفلة عمّا يجري حولهم في العالم خارج النجف وفتحوا عيونهم فجأة على دنيا جديدة.

وخلاصة القول، أن الجامعة الدينية هناك وفي النجف الأشرف بالذات يتبعها جميع الجامعات التي تسير على مناهجها كل من قم ومشهد الرضا عليه السلام وسائر الجوامع العلمية والدينية والمذهبية في المدن الشيعية كانت تعاني من أساليب الدراسة. . . أسلوبها القديم وطرح البحوث والمسائل

العالية . . . طباعة الكتب والإخراج والاهتمام والعناية غير المهمة وغير الضرورية بطرح المسائل الثابتة . . . وغلطها وعدم صحتها . . . ثم الردّ عليها ـ دون جدوى ـ لإطالة البحث . . . وهكذا كانت فكرة تنظيم الحياة العلمية والأسلوب والمناهج الدراسية في النجف الأشرف تراود أفكار جماعةٍ من الفضلاء والأعلام من الذين فتحوا عيونهم على المناهج الحديثة والأساليب الدراسية الجديدة والمتبعة في الجامعة العالمية للدراسة والبحث والتحقيق . . . . هذا الأمر الذي ظلّت هذه الفئة تحاول من خلاله بمختلف الطرق والأساليب الميسورة السيطرة عليها والتمكن من حل مشاكلها وإيجاد الطرق الكفيلة والناجحة برفع ما تشابه واختلف فيها وجعل الدراسة في النجف بمستوى الدراسة العالية في الجامعات العالمية أسلوباً ومنهجاً ودرجات ومراتب . . . لا تتداخل فروعها وشؤونها . . . وتقوّم وتفرّد ويعرف كل واحد منهم قدره ومكانته في مجتمعه وبين أقرانه .

ويمكن أن نلخص هذه المشاكل التي كانت تعاني منها الحوزة العلمية بالأمور التالية لا على سبيل الحصر بل لإعطاء صورة عن نوعية هذه المشاكل وكيفية بذل الجهود والمساعي لحلها والطرق الكفيلة بالسيطرة عليها دون أن نثير سخط أحد من المتمسكين بالقديم لا عن هدى ودراية . . . نعم السيطرة على هذه المشاكل ولو جزئياً ونسبياً لتتعادل على مر الزمن وتأخذ طريقها إلى الكمال والنجاح .

وهذه المشاكل هي :

١ ـ الكتب الدراسية وأساليبها القديمة في مختلف الأدوار الدراسية ورفع مشاكلها الناجمة عن تقادم العهد في تأليفها .

٢ ـ رفع عدم التمايز بين طبقات الطلاب درجاتهم ومراتبهم وكذا الأساتذة واختصاصاتهم .

٣ ـ تحويل هؤلاء الطلبة والأساتذة طول سني الدراسة وتوجيههم بعد ذلك نحو القيام بوظائفهم الاجتماعية والإرشادية أو ما شابه ذلك من أعمال رجال الدين .

فالكتب الدراسية كانت من حيث الطباعة والأسلوب المنهجي لا تتناسبُ

ومتطلبات العصر... وفيها من المشاكل وعسر الفهم والغموض وتكرار الأخطاء والآراء والنظريات القديمة المرفوضة والمردودة التي تسبب ضياع وقت الطالب وملله... حتى لا يكاد وبصعوبة أن يصل إلى آخر المطاف منهم إلاَّ النزر القليل... يوفقون بعد لأي عبر هذه المشاكل إلى نيل الدرجة المطلوبة. أضف إلى ذلك ما آل إليه الأمر اليوم من تشعّب العلوم وتكاثر فروعها التي يجب على طالب اليوم أن يستولي على مصاعب دراستها وتفهمها حتى إذا لم يرد التخصّص.

وكذا المعلمون والأساتذة ذوو الاختصاص والمزايا التي تؤهلهم ليتصدروا بجدارة المراكز التي يستحقونها ولهم القدرة المناسبة للوفاء بحقها...

فالواجب يقضي أن تكون هناك ضوابط وأصول صحيحة يرجع إليها الطالب إذا احتاج إلى مرجع أو جهة معينة فيها شأن جميع الجامعات.

وبالنسبة إلى التمويل ـ فكما أشرت في المقدمة ـ أن النجف كانت تعيش ـ الحوزة العلمية فيها ـ على الخيرات والمبرّات وما يدفع للعلماء والزعماء والزعامة الخاصة من الوجوه البرية كالخمس فسائر الفروض أو ريع الموقوفات. وهذه الأموال كلها خصوصاً الخمس (وقد سبق كيفية صرفه وإن لم تكن هذه المسألة من المسائل المتفق عليها مسبقاً بين العلماء. بل الصحيح إنه لم يتفق على كيفية صرفه على هذه الصورة الخاصة إلاَّ في القرون الأخيرة)

كان من أهم تلكم الأمور التي يطالب به جمع من الفضلاء والعلماء النابهين اليقظين والناظرين بصواب إلى ما سيحدث توجيه هذه الأموال الكثيرة وغير المحدودة إلى جهة معينة دون حساب أو كتاب... وإن كان مرجع هذا المورد في أعلى مراتب الصحة والثقة... فإن الشكوك لا تقف بنا عند حد ولكثير من الناس. وإذا لم يطرأ الشك في شخص الزعيم والمرجع فلا أقل فيمن يحيط ويلتف حوله من المحسوبين والمنسوبين. وكانت المطالبة ـ على أصعب الأقوال ـ بتنظيم سجلات تحفظ أرقام وكميات هذه الموارد وموارد صرفها على مجموعة الطلبة المشتغلين والأساتذة... وملاحظة رتبهم ودرجاتهم العلمية... وكيفية الخدمة التي يسدونها للجامعة... وغير ذلك من الموارد التي ينسّب

الزعيم صرف المبالغ لأسباب وملاحظاتٍ أخرى.

«. . . ولا نريد بهذا الحديث أن ننكر ما يعتقد الإمامية في المرجع من الولاية العامة التشريعية وما يضفون على هذه الشخصية من الحصانة والعصمة والمقام الكريم ومن المعلوم أن مثل هذه الشخصية لا بدّ وأن يكون في أعلا درجات الوثوق والإطمئنان ويتنافى مع المسائلة والمحاسبة. . .»

ومن هذه المقدمة إتضح مكان الطالب الذي يريد أن يتجه إلى الدراسة وينصرف نحو تنظيم أوقاته وأعماله اليومية. . .

فهل كانت توجد هناك هيئة تتكفل أموره المعاشية بصورة منتظمة - إذا كان يتحلى بشيءٍ من الإباء وكرم النفس على الأخص - يظهر أن الجواب كان يأتي بالنفي أو بشيءٍ من التردّد والتشكيك.

ومع أن في تلكم الأيام بعد لم أباشر الأمور المعاشية بنفسي ولم أحس وأتبين وأعاني المشاكل بصورة مباشرة. . . إلاّ أني لا أنسى أن الحديث عن هذا الموضوع كان كثيراً والانتقادات والأسئلة كانت متكررة وفي شتى المناسبات والأحوال وعلى اختلاف المستويات والدرجات والمراتب. . . وهذا يعني أن هذه المشكلة كانت قائمةً وكان لا بدّ من حلّها ولو بالمستوى الممكن والمتيسر. . . وأن الطالب الذي يقبل في الجامعة يجب أن ينصرف إلى عمله الدراسي. والجهة الكفيلة بتحويله يجب أن لا تتوانى في القيام بهذه الوظيفة الشاقة نسبياً.

وإنما قلت: يقبل الطالب في الجامعة لأن أي جامعة علمية لا يصحّ أو لا يمكن أن تفتح أبوابها لكل طالب دون استيفاء شرائط معينة حسب الظروف والأحوال ونوعية الدراسة والتخصّص.

وكذا القول في الجهة الكفيلة بتمويله . . . لأن هذه الجهة مسؤولة عنه وعن السنين التي يقضيها هذا الطالب في الدراسة في الجامعة ولا يصحّ التخلي عن الطالب وإهماله حذراً من ضياع السنين العديدة من عمره دون الوصول إلى الهدف الذي من أجله هجر الدنيا واعتكف في هذه البقعة المعينة.

ومن هنا انبثقت فكرة الإصلاح الدراسي وتنظيم حياة الطالب وانخرط في

صفوف المنادين بهذه الفكرة جملة من العلماء والأفاضل ممّن يطول بذكرهم المقام. . . إلاّ أن النقد والتنبّه لنوعية المشاكل شيء. . . والقيام بعمل ملموس ومحسوس ونافع شيء آخر لأن هذا الآخر يحتاج إلى كبير تصميم وكثير عمل قد يشق على الغالبية من الناس الذين يتحدثون وينتقدون. . . وقد لا يكون هذا الحديث في الصميم من المشاكل وقد لا يكون هذا النقد هو الآخر بناءً ومفيداً ونافعاً. والناس ميّالون للنقد يتهافتون ويندفعون نحوه بكل وجودهم وينالون من المنتقد عليه كلما وجدوا أو أصابوا منه. حتى الخير حوّلوه شراً ووسعوا الفتق من الشرّ حتى لا تكاد تجد له رتقاً. . . غير أن فكرة الإصلاح إذا انبثقت في مجتمع لا بدّ وأن تجد طريقها نحو الظهور والتبلور وتجتمع حوله الأفذاذ من الرجال. . . وهكذا كان الأمر بالنسبة لما اتفق في أواسط هذا القرن في هذه المدينة المقدسة التي تشرئب نحوها الأعناق من مختلف الأقطار الإسلامية. ولتستيقظ من سباتها الطويل وتخطو الخطوة الأولى وتقدم الدرس الصالح للمجتمعات التي تتعطش للجديد الحافل بالمآثر وإحياء تراث الأجداد الذي كادت الأحداث أن تسدل عليها ثوب النسيان وبالتالي الاندثار. . .

وكان شيوخنا في حلق الدرس يقولون: مندّدين أو متفكهين: إنكم مدعوون أو مكلفون بتنظيم المجتمعات في الأقطار الإسلامية فإذا عجزتم عن تنظيم شؤونكم في مجتمعكم هذا الخاص فأنتم أعجز من أن تقوموا بعمل آخر وأكبر. . . وكان البعض يجيب ـ جدلاً ـ إن تنظيم حياتنا الخاصة مرهون بتنظيم المجتمع العام فكما يكون تكون. . . فيردّ عليهم الشيوخ بل كما أنتم تتطورون. . . وهذا التطور نحو الأحسن والأكمل والأنظم مرهون بسعة أفق تفكيركم ومناخ آرائكم المتطورة والمنسجمة والمستحكمة. . .

إن فكرة تأسيس (منتدىٰ النشر) وكليتها، بدأت بين جماعة من الأعلام على رأسهم الشيخ حسين الحلي والشيخ عبد الحسين الحلي والشيخ محمد حسين المظفر والشيخ محمد رضا المظفر والسيد يوسف الحكيم والسيد محمد علي الحكيم والشيخ محمد الشريعة والسيد هادي فياض والشيخ محمد جواد القسام والشيخ محمد جواد الشيخ راضي والشيخ محمد جواد الحچامي، والسيد موسىٰ بحر العلوم.

قام هؤلاء... وللأغراض والأهداف المعينة التي أشرنا إليها بتأسيس هذه الندوة العلمية والأدبية، وبهذا الاسم. والتحق بهم الشيخ علي ثامر والشيخ عبد المهدي مطر والشيخ جليل العادلي والشيخ محمد تقي الإيرواني والسيد محمد جمال الهاشمي والشيخ صالح نعمة... وهؤلاء انتدبوا للتدريس داخل الكلية... ومن الأساتذة الذين تطوعوا للتدريس خارج الكلية دون الحضور فيها: العالِم السيد مرتضى الخلخالي والشيخ غلا محسين الهمداني والسيد صادق آل يس.

وفي السنين اللاحقة التحق بهم السيد محمد حسين الحكيم والسيد محمد تقي الحكيم والشيخ صادق القاموسي.. وغيرهم كثيرون سترد أسماؤهم في المناسبات الآتية.

«ولقد أعرضنا عن ذكر الألقاب للأعلام المذكورين وغيرهم ممّن سيأتي ذكرهم بمناسبات أخرى رعايةً للاختصار وسيأتي ملحق هذه المذكرات حاوياً ألقابهم الخاصة بهم والأعمال العلمية والأدبية التي قاموا بها والكتب التي عُنوا بتأليفها ومكانتهم الاجتماعية بين سائر الطلبة. وهذا هو الملحق الثاني... أما الملحق الأول فيختص بنقد الكتب الدراسية في النجف وقم وغيرهما».

إلّا أنه ـ وممّا يستحق التنويه عليه ـ كان الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد الشريعة كانا أكثر هذه الجماعة حماساً وأكثرهم نكراناً للذات في سبيل تحقيق الغرض والوصول إلى الأهداف المرسومة.

«... ويناسب المقام ذكر بعض بنود قانون أو نظام منتدى النشر الذي وضعه الأعلام المؤسسون والذين مرَّ ذكرهم في المجموعة الأولى من القائمين بهذه المؤسسة وفي هذا النظام تذكر الأغراض والأهداف بصورة تفصيلية...».

قلت: إن هذه الهيئة التأسيسية: قامت على النحو الذي ذكرت... وبدأوا عملهم في الجمعية المذكورة. وباكورة عملهم (إخراج كتاب حقائق التأويل) كنموذج للطباعة الجديدة والإخراج والتحقيق الجديد. ولعل قبل صدور هذا الكتاب لم تعرف النجف هذا النوع من التحقيق والضبط والإخراج.

كما وأصدر الشيخ محمد رضا المظفر الجزء الأول من كتابه (المنطق) كنموذج للكتب الدراسية المزمع إخراجها وتقديمها للطلبة في سنوات دراستهم الأولى.

ولقد كان اسم العلاّمة المظفر قدّس سرّه. يأتي في الدرجة الثالثة من العلمين الحليين غير أن الشيخ عبد الحسين الحلي انصرف إلى القضاء في بعض إمارات الخليج وبدأ نشاطه هناك وبصورة أخرى وكان الشيخ حسين الحلي بما عرف من منزلة علمية مرموقة بين طلاب النجف قد انهمك هو الآخر نحو التدريس بصورة موسعة وانصرف إلى هذا الواجب كلياً... ـ ولعله كان ينتظر دوره في الرئاسة كذلك ـ وبعدهما سطع ذكر المظفر كرئيس ومعتمد للجمعية والشيخ محمد الشريعة كنائب رئيس وسكرتير عام... لتخصص الأول منهما في علوم المنطق والأصول والفلسفة وتضلع الثاني في مسائل الفقه الاستدلالي والرياضيات والقضايا الاجتماعية الأخرى...

وهكذا بدأت (كلية الفقه) وهي أولى مدارسها ـ سيرها ومواصلة أعمالها ككلية ذات صفوف وامتحانات ودراسات ومراتب... وذات طابع خاص وغريب عمّا ألفه الناس في النجف (حيث كانوا ـ أي الطلبة ـ يجتمعون حِلَقاً حول الأساتذة في المساجد أو في ساحة الصحن العلوي الشريف أو في أي مكان آخر يتناسب والتدريس ولم يكن على المجتمعين حول أي أستاذ لاستماع دروسه أي ضابط أو قاعدة متبعة... ولعل كثرة عدد المجتمعين هي التي تعين مركزية الأستاذ ورتبته العلمية... ولعل الكثرة من المستحقين كانوا يتفرقون ويتركون الحضور دون أي مسوغ أو مجوز).

وقد التحقت بهذه المدرسة ... فوجدت مجموعة الطلاب والأساتذة لا يتجاوز عددهم الخمسين فمن الطلبة أذكر السيد جواد شبر والشيخ محمد الشيخ راضي والسيد عبد الحسين الحجار والشيخ مسلم الجابري والشيخ مجيد زاير دهام وعدد غيرهم وقد أصبح هؤلاء في الدورات اللاحقة أساتذة في الكلية يشار إليهم.

أما المدرسون فأتذكر منهم الشيخ محمد رضا المظفر لعلوم المنطق

والأصول والشيخ محمد جواد الشيخ راضي لعلوم العربية النحو والصرف واللغة والشيخ علي تامر والشيخ عبد المهدي مطر لعلوم البلاغة المعاني والبيان والبديع والشعر وعصوره والسيد هادي الفياض لبعض العلوم الرياضية والشيخ عبد الجليل العادلي لعلوم الفلك والهيئة والشيخ محمد الشريعة للشؤون الإدارية والأعمال التنظيمة. وهناك فضلاء آخرون كانوا يتناوبون على تدريس الفروع الأخرى كقراءة المتون العربية أو التدريب على الخطأ ونقد الشعر العربي والكتابات الأدبية أمثال الشيخ محمد جواد القسّام والشيخ محمد صالح نعمة وغيرهم. . . ولعل وبمناسبة التسلسل في ذكر شؤون الجمعية والأدوار التي مرّت بها يأتي أسماء غيرهم من الأساتذة والأعلام والطلبة الذين التحقوا بالكلية في الدورات اللاحقة.

ولا يفوتني أن أذكر ـ في ختام هذا الفصل ـ أن عدداً من الأعلام والآيات العظام قد بعثوا بأولادهم إلى الكلية للدراسة كتأييد لفكرة الإصلاح الدراسي وتنويهاً بمقام الناهض بأعباء الحركة (المظفر) أذكر منهم الشيخ محمد رضا آل يس بعث بولده الشيخ محمد حسن آل يس. والسيد جمال الگلپايكاني سمح لنجله الأكبر السيد محمد أن يلتحق بالكلية كأستاذ ومن البيوتات العلمية المعروفة آل بحر العلوم وآل مشكور وآل الصافي وغيرهم ومن التجار الأخيار الحاج عبد الأمير القاموسي بعث بأولاده الثلاثة الشيخ محمد صادق والشيخ عبد الصاحب والأستاذ محمد القاموسي وكذلك بعث الحاج محمد المسقطي الحاج محمد رضا والحاج عبد الباقي ومن آل الدجيلي الحاج جعفر الدجيلي ومنهم أيضاً ـ من بيوتهم العلمية ـ الشيخ محمد جواد الدجيلي والشيخ أحمد الدجيلي وغيرهم سيأتي على أسمائهم بصورة تفصيلية في البيت الملحق بهذه المذكرات والمشتمل على كافة أسماء الأعلام الواردة أسماؤهم ضمن الحديث المتقدم والمتأخر بإذن الله تعالىٰ.

وممّا يوضح معالم الطريق ومبلغ وعورته وصعوبته أن نأخذ بالشرح والتفصيل وفي فصل خاص لأنه حديث يكاد يكون خارجاً عن صميم موضوعنا الذي أعددنا له هذه الفصول ـ تعريف المعارضة ـ أو على أصح تعبير ـ التعرف على المعارضين. فإن الدعوة الإصلاحية هذه ـ كما يبدو اليوم ـ ليس فيها أي

مجالٍ للخدش والشك ولم يلاحظ فيها أي شيءٍ يوجب المخالفة لأن مسألة وضع الكتب الدراسية الأوفق والأوضح. . . من الكتب الدراسية السابقة الموجودة في أيدي الطلبة. . . إن هذه القضية ليست من الأمور الغامضة التي تثير معارضةً وخلافاً بين صفوف الطلاب. . . وكذلك المطالبة بتمويل الطلبة مثلاً والتكفّل بأمورهم المعاشية بصورة منتظمة وحسب الميسور ومراتبهم ومراحل تدريسهم. . . فلماذا المعارضة وبتعبير آخر في أية صورةٍ كانت هذه المعارضة؟

نعم. . . لم تكن المعارضة آنذاك بالمعنى الدارج للمعارضة إنما كانت هذه المعارضة تتمثل في الوقوف والجمود وعدم تأييد أو مساندة الحركة. . . والسر في هذه المعارضة الهادئة كان يكمن أولاً: ـ في أن القائمين بالفكرة والذين كانوا يديرون الحركة جميعهم من الذين لا مَغمَز فيهم ولا يستطيع أحد أن يقدح أو ينال أشخاصهم بسوء. فالشيخ المظفر وهو في رأس الحركة من عائلةٍ عريقةٍ وعلمية ويتمتع بشخصية خُلُقية فذّة ولامعة. وهو لا يرضى بأي حال أن يقود أو يسير مع أي أحد يشك في سلوكه وفهمه ودرايته ومكانته الاجتماعية والخُلقية والعلمية. . . هذا من جهة. . . ومن جهة أخرى كان الجميع ينتظرون رأي المرجع آنذاك ولا يحبذون التسرّع في إصدار الحكم على القضية وعلى الأشخاص القائمين بها قبل سماع رأيه.

وبين هذا وذاك. . . لا تخلو بعض النفوس من شيء. . . فمن جهة المعارضة كان يحلو للبعض أن يظهر التشكيك والترديد في الأعلام القائمين بالحركة بصورةٍ عفوية ودون تأمّل. . . كما أن القائمين بالحركة ـ هم أو من يلف حولهم ـ ما كانوا يَخُلون من بعض الناقدين للأوضاع السائدة بصورة صريحة وأحياناً بشعة ولاذعةٍ. . . الأمر الذي كان يثير سخط الجبهة المعارضة وينفرهم من الحركة ويحملهم على وضع علائم الاستفهام عليهم وعلى الحركة. قلت: أمثال هذه الأمور كانت السبب في تباعد الطرفين عن موضع المناقشة الصحيحة والصريحة ودراسة الوضع بصورةٍ موضوعية بعيدة عن العواطف والأهواء. هذه المناقشة التي كان يؤمل أن تساعد الحركة وتشق الطريق أمام القائمين بها. . .

ويساهم في إيجاد الطرق الكفيلة تحل المشكلة بصورة مرضية من لدن الطرفين المتخاصمين المتنافسين.

وأمر آخر... إن اتفاق الطرفين كان يساعد ويؤثر أيضاً بصورةٍ جديةٍ في رأى المرجع وتوضيح معالم الحركة له بصورة صحيحة وهو آنذاك (السيد أبو الحسن الأصفهاني) حيث أنه (قدّس سرّه الشريف) بدوره كان يستطيع أن يحلّ المشكلة ويعطيها ما تستحق من التأييد والإسناد... كما كان بإمكانه ـ أن يمنح الحركة ـ وبمقدوره أن يسدّ الفراغ الذي كان يحس به القائمين بالحركة من الناحية المادية والعلمية معاً. فإنهم ـ جماعة المنتدىٰ ـ كانوا بحاجة ماسة إلى عدد أكبر من الرجال الأكفاء الذين يقومون بالتدريس والتأليف ويساندون الحركةً فكرياً... بالإضافة إلى المشاكل المادية التي تأخذ على الحركة بالخناق وتشلّ من سيرها وتقدمها وتلكئها وتباطئها.. وكان من المتوقع أن تنال هذه المشاكل الحل الصحيح والصريح والسريع إذا ما ساند السيد الأصفهاني الحركة وفتح أمامها الطريق بالتأييد والإسناد والتوجيه كذلك.

وخلاصة القول... إن المعارضة كانت قائمة ونشطة لكن دون صدام أو مجابهة... إلاّ اللهم ما كان يلاقي تلاميذ وأساتذة هذا الجانب من التنكر والجفاء وسوء المعاشرة ووضع علائم الاستفهام على سلوكهم وكيفية تدارسهم والكتب التي كانوا يقدمونها للدِراسة أو يؤخرونها.

ومثلاً من المشاكل التي كان التلاميذ يلاقونها... إن الكلية كانت تعيّن للتلاميذ صفحاتٍ من كتبٍ دراسيةٍ معينة... كان لِزاماً عليهم عند الإنتهاء من كل فصلٍ من الدراسة... أن يحققوها بواسطة أساتذة من خارج الكلية ويستنيروا بآرائهم ويتدربوا على أساليب المناقشة والجدل العلمي... لأسباب متعددة منها الاندماج خارج الكلية مع الأساتذة والطلبة لئلا يهجروا عن محيطهم ومجتمعهم كليّاً... فإذا عرفت أن هؤلاء التلاميذ كانوا يقابلون بالإستنكار والتصدي وعدم الإعتناء والمبالاة... عرفت مبلغ الجفاء الذي كان يقابل به هؤلاءِ التلاميذ في شتّى الدراسة الأولى وهم بعد غير مطمئنين من نتائج الحركة وعواقبها والهدف الذي يسيرون نحوه... فكان هؤلاء التلاميذ يحملون كتبهم إلى هذا أو ذاك ليحلّ لهم بعض المشاكل والغموض الموجود في بعض مباحث تلكم الكتب ـ مع

أنهم كانوا في قراءة المتون العربية في مستوى عال ـ ويتفقون مع هذا أو ذاك من الأعلام للاجتماع في وقت معين للدراسة والتباحث (كما كانوا يصطلحون) وكم كان غريباً أن لا يحضر هذا العلم في الوقتِ والمكان المعين مقدماً شتّى المعاذير. . . من أمثال هذه القصة يمكن أن تتصور مبلغ خيبة الأمل عند هذا الطالب. . . إلاَّ اللهم أمثال السيد مرتضى الخلخالي والسيد صادق آل يس والشيخ غلام حسين الهمداني. . . فقد بذل ما في وسعه من الجهود المشكورة ولا أنسى أنه كان يُعين مكان الاجتماع في داره ولعل ذلك. . . ليكون بعيداً عن أعين الخصماء والمعارضة.

إن هذا العالِم وعدداً قليلاً غيره قد أحيوا في قلوبنا الأمل والجد لمواصلة الدراسة حتى الشوط الأخير وسوف لا ننسى أياديهم المشكورة ولولا خوف الإطالة والخروج عن منهج الرسالة المقرر لما عدوت الحديث إلى غير الثناء عليهم (اللهم أطل في أعمار الأحياء منهم بالخير والبركة وتوفي الماضين برحمتك ورضوانك.

آية الله السيد أبو الحسن الأصفهاني زعيم الطائفة في تلكم السنين. . . إتفق أن جمع علية القوم من الرُوحانيين والعلماء وأفاضل الطلبة المتواجدين آنذاك في الحوزة العلمية. . . وأهاب بهم أن لا ينحرفوا عن الخطة المرسومة لهم في تدريس ـ أو تدارس ـ علم الفقه. . . ويجب أن تتظافر جهودهم في هذا السبيل كي يظهر هذا الفقه متكامل الجوانب متوافر الأدلة من العقل والكتاب والسنّة. . . ويكون في متناول يد المسلمين كافة لينهلوا منه جميعاً. . . يتواصلوا على دراسته وتبويبه وإشباعه درساً وبحثاً وتحقيقاً. . . وهكذا.

فكان آية الله الأصفهاني تغمده الله برحمته كان يعلم أو قد أخبر فعلاً بتفصيل المشكلة القائمة في صفوف طلبة العلوم الدينية والتي كان يتصدرهم هو كزعيم وموجّه. . . وأراد أن يحد من اللغط القائم آنذاك حول شخصهِ الكريم وحول النظام السائد في الحوزة وكل ما في الحوزة من توجيهاته وإرشاداته. . . ورأى الأكثرية من الحاضرين أن هذا الاجتماع والتوجيه كان في مكان من اللزوم بل كانت الضرورة تقتضيه وتلزمه. . . ولعل هدفه قدّس سرّه كان عدم الاندفاع

لصدّ الهجمات التي تأتي من الخارج كلياً من قبل جماعة (السيد أحمد الكسروي) وانهماك جماعة في صدّ هذا الهجوم والدفاع عن الحوزة وانصراف عددٍ كبيرٍ عن الفقه والتخصّص في الفلسفة والكلام وأشباه ذلك. . . فوضعُ حدٍ للمجابهات القائمة كان ضرورياً ولازماً. . . بل إن مثل هذه التوجيهات كانت ضرورية في كل الأحوال والمناسبات. . . الأمر الذي كان قد أهمله البعض أو تناساه أو لم يعره الاهتمام الكافي ـ

إلاّ أن ـ ومع مزيد الأسف ـ أنّ جماعةً من المتزمتين قد أوّلوا وفسّروا هذا الاجتماع بما يرضى دخيلة نفوسهم واعتبروه ضربة للحركات التقدمية الإصلاحية القائمة. . . بحجة أن هذا العمل. . . أو هذه المحاولات الإصلاحية خروج عن المنهج المقرر المرسوم من قبل المرجع المسؤول. . . ولما يخالفه يجب أن يطرد ويُمحى ويتناسىٰ كلياً.

ومع أن في مجموعة كلامه لم يرد شيء يؤدّي هذا المعنى وإن تكرر فيه (أن النظم في اللانظم) أو نظامنا لا نظام. . . فإن هذه العبارة فُسِّرت بأكثر ممّا تتحمله ألفاظها. وأولوا الكلمة بأن (قدّس سرّه) يطرد النظم الجديدة في التدريس والمناهج الحديثة الموضوعة أو التي ينوي البعض وصفها بواسطة بعض الأساتذة والموجهين الجدد في الحوزة وبالجملة يستنكر وضع نظامٍ جديدٍ للدراسة في النجف الأشرف.

ومن جهةٍ أخرى يظهر ان السيد الأصفهاني لم يرتح كثيراً لما عاناه حَمَلة مشعل الحركة الإصلاحية أو من يلف حولهم ويؤيد رأيهم ويسير معهم وفيهم الفضلاء والعلماء ومن البيوتات المعروفة العريقة. . . وما أصاب الكثير منهم من الطرد والتشريد حتى بلغ الأمر فعلاً بالبعض منهم إلى امتناعهم عن الحضور في المجالس والظهور أمام الناس في الصحن الحيدري الكبير. . . نعم لم يرتح لذلك ولعله خشي من مغبةِ هذه الحركة العنيفة وعواقبها الوخيمة وأراد (قدّس سرّه) أن يُلطفَ الجو حولهم بعض الشيء ويحد أو يصد من هجمات الخصوم عليهم فكانت الموهبة الكبيرة المعروفة والتي تناقلها الكبير والصغير في مجتمع النجف الأشرف

هناك في الجانب الشرقي من المشهد العلوي وفي الناحية الجنوبية من مبدأ (السوق الكبير) خان كبير مهمل ومتروك كان يُعرف بهذا الاسم أو باسم (خان الوقف) لعله كان فيما سبق موئلاً للزوار لقربه من الصحن الشريف وسعته وغرفه الكثيرة.

نعم إن سماحته أذِن لكلية الفقه وجمعية المنتدىٰ التصرف في هذا الخان واتخاذه كمركز لكليته أو مدرستها وجميع نشاطاتها... وقام حينئذ جماعةٌ من المحسنين أمثال الحاج محسن شلاش وزير المالية الشيعي الأسبق في وزارة نوري السعيد... بترميمه ورفع نواقصه وتهيئته مركز للمنتدىٰ وبهذا العمل الإنساني نامت العائلة وهدأت العاصِفة نسبياً ولو بصورة مؤقتة إن التصرف في هذا الخان وباسم السيد الأصفهاني كان رداً صريحاً وتأييداً واضحاً من قبله لـ(منتدى النشر) وكان في وقته عملاً مشكوراً ومثيراً للإعجاب من قبل جماعةٍ غير قليلة من مؤيدي الفكرة والآخذين بزمام المبادءة في هذا العمل الإصلاحي والضروري. ولأن منتدى النشر في تلك الأيام كان في ضيق مالي شامل من جهة المركز والمكان فإن البيوت والأماكن الكبيرة كانت تتقاضى أجوراً باهظة لا تتمكن الجمعية من تسديدها والمكان الذي كانت تستقر فيه كان صغيراً لا يفي بكل نشاطاتها ومراكزها العديدة. فكان خان (دار الشفا) أول مركزٍ استطاع أن يجمع في رَدَهاتِهِ المتعددة جميع نشاطاتِ الجمعية. وبالنسبة للحفلات والدورات العامة كان مناسباً جداً... ولعله أهم اجتماع قرّرت الجمعية إقامته في هذا المكان كان الحفل التأبيني الذي أقيم بعد وفاة آية الله الأصفهاني حوالي سنة ١٣٦٥ هـ.ق فكأن هذا الاجتماع كان باكورة الاجتماعات الهامة الأخرى التي عرفت بها جمعية منتدىٰ النشر كمركز شامل للنشاطات الثقافية الممتازة.

إلى هنا لم يبق ما نتحدث عنه من باب المقدمة إلاّ الدخول في صلب الموضوع وبيان جهات الإصلاح التي كان يطالب بها هؤلاء الأفاضل من العلماء الأعلام وهو البحث الذي أفردنا له الملحق الأول وفيه نتحدث بصورة مسهبة عن الكتب الدراسية الدارجة بعضها حتى اليوم في الجامعات الدينية في النجف وقم وغيرهما وأمثالهما... ولقد حاولت وسأحاول جهدي أن لا يكون في كلامي مساساً بأحد أو تنويهاً بمقام آخرين على الأخص.

بدأت جمعية المنتدى ندواتها الأدبية والعلمية من أواخر الستينات وبمناسبة وأخرى كانت تقيم الحفلات والندوات الموسعة في شتى المناسبات الخاصة... المواليد... الوفيات... والأيام المباركة... وفي أكثر الأسابيع أو في يوم معين من الأسبوع حين يتناسب هذا الاجتماع مع ظروف الدراسة وحضور الأساتذة وغالبية الطلبة... إنها اجتماعات موسعة ما أمكن ذلك أو تيسر والخطب والمقالات تلقى في شتى المواضيع في أمثال هذه الاجتماعات لطرح مختلف مشاكل الجمعية وتفسير الحوادث والمشاكل التي تواجهها كقلة الأساتذة وتوقير وتيسير المناخ المناسب للطلبة وإيجاد مجال أوسع للبحوث العلمية والقيم الأخلاقية وظروف الدراسة وتقييم جهود الطلبة وتشجيع النابهين والمثابرين على الدراسة منهم وأمثال هذه المواضيع وهي كثيرة لا يفيها الحصر.

ومن خلال هذه الندوات والاجتماعات وتبادل الأحاديث وإلقاء الخطب في المناسبات الخاصة أو في مختلف المناسبات من قبل جماعة من الفضلاء والأعلام وأكثرهم ممّن فتحوا عيونهم على المناهج الجديدة والأساليب الحديثة المتبعة في المدارس والمعاهد العالية الحديثة تبلورت لدى المجموعة (أو لدى القائمين بالحركة والمؤسسين) فكرة تأسيس أو فتح مدارس إبتدائية ومتوسطة وثانوية دينية في المدن الكبيرة خاصة لأولاد رجال الدين أو ـ على الأصح ـ لمن يرغب أن يواصل الدراسة فيها حتى الوصول إلى الصفوف العالية من كلية الفقه ليتهيء الطالب ولتكون المعلومات المتوفرة لديه تتناسب والعلوم التي يقدم على دراستها في كلية الفقه.

«... والسبب في ظهور هذه الفكرة أولاً: أن لا يبدأ الطالب دراسة العلوم الدينية وهو أمرٌ لم يتقن الدراسة بل القراءة والكتابة وهي مشكلة كانت قائمة في النجف وتداركها الأعلام مؤخراً في قم حيث اشترطوا على الطالب الذي يريد الإلتحاق بحوزات الدراسة في قم وينال التسهيلات المعاشية والصحية والسكنية أن يكون حائزاً على شهادة الثانوية في المدارس الحكومية القائمة... والسبب الثاني الكتب المدرسية الدارجة في العراق إنها كتب دراسية فقط دون رعاية

الموازين المذهبية والدينية وحتى الخلقية في تأليفها ـ ومن هنا بدأت فكرة تأسيس مدارس دينية في إيران وطهران بالخصوص وتاريخ ظهور هذه المدارس في إيران يقارب ظهور تلكم المدارس في العراق. وأولى هذه المدارس ـ على ما أتذكر ـ (مدارس تعليمات إسلامي) وهؤلاء بدورهم أضافوا كتباً جديدة إلى الكتب المدرسية الدارجة للتربية الدينية والمذهبية والخلقية... وهذه المدارس في إيران تعددت وتكاملت وأخذت في التوسّع حتى قيام الجمهورية الإسلامية وحينئذ تكفلت الدولة بالقيام بهذه الوظيفة وعادت تلكم المدارس كسائر المدارس الحكومية وذهبت عنها المعالم الخاصة بها (وهذه الحركة وحدها بحاجة إلى رسالة خاصة لشرح ظروفها) وأسبابها.

قلت... على أسباب هذه الفكرة قام جماعة بمراجعة مركز الزعامة الشيعية آنذاك وهو كما أسلفت (آية الله الأصفهاني) وهو بدوره قدّس سرّه الشريف قد حبّذ الفكرة وأيّدها ولأجل التأكيد على موافقته لهذه الفكرة أمر بفتح أول مدرسةٍ ابتدائية دينية في النجف على نفقته الخاصة يصرف عليها من الوجوه البرية المتوفرة لديه... وعند ذلك دبّ نشاط جديد في أعضاء الجمعية وأخذت الاجتماعات تعقد وتتوالى أسبوعياً لوضع وتأليف الكتب المدرسية على النسق الجديد والأساليب المتحيزة والمتناسبة مع الموازين الإسلامية والمذهبية والخلقية مراعين فيها ـ كما في الكتب المدرسية الجديدة ـ سهولة الفهم وحسن الطباعة وجودة الإخراج.

ولقد لاقت هذه الفكرة استقبالاً عظيماً من لدن طبقات رجال الدين الذين لم يهن عليهم إرسال أولادهم إلى المدارس الحكومية ـ هناك في العراق ـ بما كانت تعرف من عدم رعاية الموازين والأصول المذهبية المطلوبة... غير أن الإضطرار كان يحملهم على تقبل تلكم المدارس وإرسال أولادهم إليها للتعليم ـ وعلى الأقل في المدارس الإبتدائية، مع تحفّظ وحذر شديدين لأنّهم لم يجدوا عنها مندوحة وهذه المدارس الجديدة قد سدّت فراغاً كبيراً في ذلك الوسط في العراق وفي فترتها المذهبية على الأخص حين بدأ فتح هذه المدارس برعاية

الزعيم الديني وتجويزه صرف الوجوه البرية والفروض الأخرى عليها. فأصبح الإقبال عليها شديداً من لدن مختلف الطبقات وعامة الناس فضلاً عن الطبقة الخاصة وهم رجال الدين.

وقد فتحت بالإضافة إلى مدرسة النجف مدرسة أخرى في كربلاء وبرعاية أحد الأعلام وهو السيد مهدي الشيرازي وثالثة في الكاظمية برعاية السيد مرتضى العسكري ورابعة في (بلد) برعاية السيد صادق الهندي وأخيه السيد حسين الهندي وكان من المنتظر أن تفتح مدرسة أخرى كبيرة في (الحي) وبدرة وجصان برعاية الشهيد السعيد السيد جعفر الحيدري وهكذا تكامل وتطامن الركب وأخذ يسير.

غير أنه (وممّا يؤسف له ـ أن الحكومة وقفت أمام هذه الفكرة وأمرت بغلق هذه المدارس ونكّلت بعدد من القائمين بها بطرق شيطانية ملتوية... وحجج واهية... لا يناسب المقام شرح ظروفها).

والإشارة إلى دقة تنظيم هذه المدارس ـ أو بعضها على الأقل ـ يكفي الإشارة إلى أن خريجي الصف السادس من مدرسة الكاظمية والتي كانت برعاية (العسكري) قد اشتركت في الامتحانات العامة (البكلوريا) ونالت الدرجة الأولى على مدارس العراق قاطبة وهذا لا يمكن إلاّ إذا كانت المدرسة في نظام دقيق ومراقبة شديدة.

إن منتدىٰ النشر فتحت كلية باسم (كلية الفقه) في أولى سنوات تأسيسها مع مراعاة جميع الأسس والموازين المرعية في المدارس الحكومية المشابهة... إلاّ أن العلوم والدراسة فيها دينية مذهبية وعلى نفقة جماعة من أهل البر... ودون أن يكلفوا الحكومة القائمة آنذاك بتحمّل أي شيء من نفقاتها للطلاب أو الأساتذة. سوى إمهال الطلبة من الإلتحاق بخدمة العلم سنين الدراسة. وكان هذا من حق الطالب الديني ينص عليه القانون المدني وبالنسبة إلى الطلبة في النجف

بـالذات. . . إلاَّ أن الحكـومة خشيت هـذا التنظيم الثقـافي. . . وفي نفس الوقت توقفت من مغبة إغلاقها والوقوف أمامها بصورة صريحة.

سبق أن النجـف في تلكم الفتـرة كان يتـرنح بين القـديم والجديـد هذا القديم الذي كان يفقد كل ماله من وسائـل الإعلام وأسبـاب التعريف والتـوصيف ليقرب سـ[illegible]اه إلى طالبيه ويعرف نفسه لمن يريد أن يتنكر له ويبتعـد عنه وينجـرف مع التيار القادم من اليمين أو اليسار. . . ويقف وحيداً وسط المعركـة دون مدافـع وعليه من الأسماء ما ينفر ويدعو إلى التقزّز وعلى العكس من الجديد فإن مظاهره الكاذبة الخـلابة كـانت تستحوذ على عقـول الشباب وإيمـانهم وتقواهم فينجـرفون نحوه دون وعي ويبايعونه من غير هُدَى. . . وهكذا كان الخـطر يهدد الشبـاب في كل المستويات ومن كافةِ الطبقـات. . . وليس حال رجـال الدين وشبـابهم الدارج بأحسنَ من الآخرين فمن كـان يعقل كـان يقف موقف المتفـرج لأنه يفقـد الحيلة والـوسيلة في الدفـاع عن نفسه. . . ومن لا يعقـل انجـرف ومَسَـخَ التيـار شمـائله وسمتـه ويكـاد يقضي على شخصيتــه ومـا تتحلى بــه هـذه الشخصيــة من شيم وملامح.

إلاَّ أن المنتدىٰ لم تقف جهوده عند هذا الحـد حد المتفـرج أو عابـر طريق بـل تعدّى إلى كـل عمل يمكن أن يعـود على المجتمع الـذي آلىٰ على نفسه أن يفتح عليه نافذة الإصلاح ويجعله على الطريق السوي.

ولقـد لفت انتباهـه أحد أبنـائـه إلى هـذه المجمـوعـة التي تمتلك المنابـر الحسينيـة كخطبـاء ومبلغين وحاملي مشعـل الهدايـة والإرشاد ورأى أن ثقـافـة ابن الشارع تستقي من هذا المنهل ويتزود من هذه المنابـر وتستنير بهـدى هؤلاء الذين أوقفوا أنفسهم على هذا العمـل الإنساني المبـرور والنافـع والمذهبي البنّـاء وفيهم كل مفوّه وخطيب مصقع يعرف مَداخل الحديث ومخـارجه صحيحـة وسقيمة غثّـه وسمينه يفتخر بهم الطائفة وترفع بهم رأسهـا. . . إلاَّ أنهم أعداد يسيـرة لا تتجاوز عدد الأصابع. . . أما الكثرة والغالبية فهم أناس اتخذوا المنابر وسيلة للعيش وملء الجيـوب وهم الذين يصبحـون مغمزاً للشبـاب المتجدد أو الـذي يتنادى بـالتجدد

بدعاوي عريضة والسخف ملء إهابه... فلم يهن على رجال المنتدىٰ أمرهم ولم يقرّ لهم مراد فعطف يلم شملهم في صفوف ودروس وإرشادات وتوجيهات... وحبذ الشباب منهم الفكرة وأبدوا الرغبة والتأييد... واجتمعوا وسادهم النظام، وشملهم التنظيم والتعليم، وافترت النواجذ عن ابتسامة الرضا وتفتحت أسارير الوجوه المقطبة خوفاً على المنابر الحسينية وحذراً من تشويه الحقائق وقلب الوقائع وآراءة ما لم يكن واقعاً واقعاً وعرض السقيم صحيحاً وتقديم الخرافة كحقيقة إسلامية واجبة الإتباع وهكذا تقدمت الأمور بكل وضوح وسلامةٍ ورضا وحسن نية.

* * *

إن العقيدة السائدة عندنا نحن الشيعة أن المجتمع هو الذي ينتخب الخطيب ويعين مركزه ومقامه ورتبته فالذي يقدم الثمار الناضجة الصحيحة هو الذي يتقدم وينوّه باسمه أما الزبد فيذهب جفاءً... وهذا صحيح... ولكن هات مجتمعاً واعياً يستطيع أن ينتخب. ويكم أفواه المنتقدين والمستهزئين حتى يظهر الفردُ الصالح... إن هذا القول إن صحّ فهو بالنسبة إلى ظهور العبقري والنابغة التي تتهافت نحوه القلوب والأفئدة ويرفع فوق الرؤوس إجلالاً لها عرف فيه من الكفاية والدراية... أما هذا الفرد الذي يرقي المنبر مهما كان عدد الأفراد الذين يستمعون إليه قليلاً له أثره ومسؤوليته ونقده الموجه إليه... لا سيما وإن ثقافة ابن الشارع يستبقي منه وليس لابن الشارع ـ عند الشيعة ـ وسيلة أخرى للتثقيف وتحصيل المعلومات والسير والتاريخ إلاّ من هؤلاء... أليس يحتاج هذا الفرد مع هذه المسؤولية الضخمة إلى برنامج ومنهاج وخطط مرسومة وخطوط واضحة معلومة... وجهة مسؤولة عنه إذا تعدّى حدوده وتجاوز منهجه المقرّر أو... أو نفترضه بأنه حسن البزّة حُلوَ السمت والشمائل وتسلم له المنبر المتبرك الذي هو ميراث آل محمد ﷺ بيننا ويرقاه من يشاء ويقول ويدعي على الدين والتسارع ما يُريد.

* * *

إذا أراد المؤرخ أن يسجل الأحداث واحداً بعد واحد ويمشي معها خطوة

فخطوة طال المقام على القاريء وامتلكه السأم والملل كما أنه من جهة أخرى يخشى من الاقتضاب حذراً من أن يتسرب الشك والتهم إلى بعض الذوات المقدسة التي برئت نفوسها وابتعد سلوكها من هذه الأحداث.. ولذلك نحاول أن يكون الحديث هادئاً وبنحو من الإشارة ووضع الأصابع ـ وبمزيد من الاحتياط ـ على مواضع الألم وبخفة ورشاقة دون إثارة أو تهريج لنستخرج منها العبرة ونستنتج من خلال الأحداث الماضية ما يستفاد منه لمستقبل الأمة ووعيها وترصيفها وتوحيد صفّها... وإفساح المجال للمصلحين من أن يتقدموا بما لديهم من دلائل الإرشاد وطريق الهداية.

كان المظفر معتمد الجمعية... وهو الذي يعين الأساتذة ويكتب منهج الدروس والمحاضرات... وبالأخير هو لولب القضايا التي تدور داخل الجمعية وخارجها.

وقد سبق أن المعارضة كانت تشتد أحياناً وتخف... تبعاً لما جريات الأحداث والقضايا القائمة آنذاك... وكان من رأى (المظفر) أن لا يغلق الباب أمام جبهة المعارضة... بل بالعكس يرى أنه من الأصوب لمعرفة وجهات النظر للطرفين أن يبقى الباب مفتوحاً على مصراعيه وإفساح المجال أمام جبهة المعارضة لإبداء رأيهم ليقول كل ما يريد... ومن الضروري كذلك أن تتهيأ جمعية (المنتدىٰ) طبقاً لطبيعة المناقشات للإجابة على الأسئلة... وربما يقتضي الحال والظروف برفع بعض ما يزعج الطرف الآخر أو ما أشبه ذلك لتتقارب وجهات النظر وتذوب الشحناء من النفوس وبذلك فقط يرجى أن ينزاح الكابوس أو يخف ولو لفترةٍ معينةٍ أو نسبياً.

كان هذا رأيه... وكان يلاقي من بطانته في الداخل على هذا الرأي معارضة شديدة... إلّا أن الظروف وشخصيته المهابة وخُلُقه الإنساني العالي وأسلوبه الخاص في مقابلة الأشخاص ومنطقه الإنساني الحازم كل ذلك كان يدفع المعارضة في الداخل إلى تسليم الأمر له والإنصياع إلى أوامره وإرشاداته.

وقد طلبت المعارضة منه مرةً أن يجتمع بهم في دار أحد الأعلام للمناقشة وتبادل وجهات النظر... فقبل... استجابةً لرغبتهم... ولا أنسى أن عيّن بيوت

أحد العالمين المعروفين في ذلك اليوم بالصفات والمزايا العالية الخاصة وهما الشيخ محمد رضا آل يس والشيخ مرتضى. . . أو آل الصدر وحسبما أتذكر كان هو السيد إسماعيل الصدر. . . وبعد أيام. . . وتبادل الرُسُل ومناقشة البيوت المختارة لهذا الاجتماع وكسبِ مواقفهم. . . إذا بالصيحة قائمة أن لا نقبل إلاّ دار (آية الله الأصفهاني) قدّس الله نفسه الزكية.

ولما كان آية الله الأصفهاني تغمّده الله تعالىٰ برحمته في تلكم الأيام قليل الحضور في مجلسٍ عام صار القرار أن يكون الاجتماع في دار نجله (الحاج آقا حسين) وتقرر أن يكون ذلك صبيحة يوم الجمعة وفي مجلس (تعزيته) الخاصة في داره وأُخبر (المظفر) بذلك.

ومن العجيب أن (المظفر) بعدما كان يصرّ على الاجتماع والمقابلة والمناقشة إمتنع عن الحضور في هذا المجلس. . . وبعد الإلحاح الشديد قرّر أن يوفد من جانبه الشيخ محمد الشريعة (نائبه الخاص) ويعتذر هذا عن حضوره بأي عذر كان. . . ولما كان من المتوقع أن يعتذر الشريعة أيضاً. . . أصدر إليه أمراً إدارياً بالحضور والتباحث معهم وأن يتكلم بما يراه مناسباً ويجيب الحاضرين بما يحضره من الأجوبة دون الانتظار لمشاورية ـ خلافاً لما هو الحال في أكثر القضايا فإنه كاد يصرّ على أن يكون الجواب في مثل هذه الاجتماعات بعد تبادل وجهات النظر وكسب الإطلاع عن رأيه الخاص ـ.

* * *

وكان الاجتماع والشيخ محمد الشريعة جالس إلى جنب (آية الله زادة) وجاء عدد من جبهة المعارضة لكلية الخطباء. . . وطال الحديث أكثر من ساعتين. . . والشيخ الشريعة يستمع. . . ولما طلب إليه أن يجيب على ذلك التزم جانب الصمت، نظراً لعدم معقولية النقد الموجه الى الجمعية.

فما هي يا ترى الإشكالات الواردة على جمعية المنتدىٰ وكلية الخطباء بالخصوص؟ والتي كان يسعى هؤلاء الذين حضروا هذا المجلس أن يطرحوها أمام من. . .؟ أمام نجل آية الله الأصفهاني (الحاج آقا حسين) قالوا:

الجمعية... خالفت الموازين والعادات والتقاليد في دراسة الطلبة يختار كتباً يعينها... أو صفحاتٍ... أو أبواب خاصة منها ويترك الباقي والأستاذ يجلس وسط تلاميذه على الكرسي ويفرض ذلك على التلاميذ... وفي إدارة الجمعية تليفون... ولا يحق للطالب في الصف الأدنى أن يحضر في الصف الأعلى وعند الانتهاء من الدروس ينتشر الطلبة في ساحة المدرسة ويتبادلون مختلف الأحاديث ويخوضون أي موضوع ويناقشون ما يشاؤون ويتحدثون بجرأةٍ عمّا يريدون وسهام نقدهم تصيب الكبار والصغار... إلى غير ذلك من أمثال هذه الأراجيف... وكل هذا ـ فيما كانوا يعتقدون ـ لا يخلق رجلاً عالماً حسب الأصول والموازين المتبعة... والحذر. الحذر. من أن يتسرب هذا بين جميع الطلبة في المدينة المقدسة والتي عاشت ـ كما هي اليوم ـ ألف سنةٍ وسرعان ما تُمحى آثار الطريقة القديمة في التدريس في الحوزة العلمية النجفية وهو أمر خطير وذو عواقب وخيمة إلخ.

لقد حدثنا الشيخ الموفد إلى هذا المجلس... أوجزتها هنا... وكنت أنا وحدي حاضراً هذا المجلس من بين سائر الطلبة لمناسباتي الخاصة مع الشريعة.

أما جمعية المنتدىٰ. فكانوا يأخذون ممّن يلتحق بهم كطالب أو كعضوٍ في الجمعية تعهد كتبياً بهذا الأمر... وكان الغرض أن لا تتخذ الجمعية كوسيلة للارتباط بالسلطة القائمة... لأن العمل الذي كانت الجمعية تنهض به هو عمل جامعي خالص وحركة إصلاحية لا دخل لها بالسياسة والشؤون الحكومية. وذلك لأسباب منها: إن جمعيات أخرى مشابهة تأسّست واتخذت جسراً لأعضائها ليقفزوا منها إلى المناصب الحكومية ويتركوا الجمعية همـلاً لا شأن لها سوى أن تحمل سوء السمعة وسوءَ المصير. ومنها لأن الحكومات القائمة آنذاك في العراق كانت تزاحم أمثال هذه الجمعيات بمجرد أن تعرف أنها أقيمت أو أسست لتزاحم الدولة أو تنوي التدخل في شؤونها لطلب للإصلاح أو تبديل أو تقويض لرئيس دولة أو ما شابه ذلك... لأن سياستها كانت تملىٰ عليها من آخرين... وأخيراً لأن الزعماء الدينيين العظام كانوا هم في طليعة من يحذر ويخوف من التقرب إلى السلطة... وأخذ الرواتب منها. بل ويحرمون ذلك ـ عدا سلك التعليم أحياناً ـ

وقد نادى بهذا في التاريخ الحديث (السيد كاظم اليزدي) وهو الذي توثقت واجتمعت له شؤون الرئاسة بعد الشيخ ملا كاظم الآخوند... والذي فرضوا فيه أن سياسته قد فشلت في تدخله في شؤون الدولة... أو أنه قد فشل فعلاً بسبب تدخله في السياسة بل... في نظرهم كان الأولى أن لا يتدخل في السياسة ولم يصدر (كتاب تنبيه الأمة) أو لم يوعز هو بتأليفه ونشره.

قلت... لهذه الأسباب ولأسباب أخرى يطول المقام بشرحها جرت العادة والسيرة في النجف وعند النجفيين من رجال الدين أن يرفعوا شعار الابتعاد عن السياسة... وقد يكون ذلك منذ أيام الشيخ أحمد (المقدس) الأردبيلي الذي عرضت عليه أرفع المقامات في الدولة... ولعل البعض يذهب إلى أبعد من ذلك يذهب إلى أيام العلامة الحلي رضوان الله عليهم جميعاً.

وجاءت أيام زعامة آية الله الحكيم فنظر قدّس سرّه الشريف إلى المسألة نظرة أخرى فقال: إن المسألة ليست من المسائل التي لها سور واحد حرمة... وإنما هي من باب دوران الأمر بين الوجوب والحرمة... فبالنسبة لمن يستطيع أن يمد يد المعونة لمن يحتاجه من ضعفاء المجتمع من المظلومين والمستضعفين فهو واجب... وأما بالنسبة لمن لا يجد في نفسه مثل هذه القدرة والكفاءة... أو قد يكون الأمر على العكس ممّا يريد... فحينئذ تكون محرمة ويجب الاجتناب... وعندما نوقش أجاب: بأنه قد أكد الحرمة وأشار إلى العلة دون أن يشير إليها السابقون أو يهتدوا إليها فكان يريد أن يقول... إن السلطات والحكومات كلها بيد الأقوياء والضعفاء ليس لهم فيها نصيب... والشعارات اللماعة البراقة... والصراخ والعويل ودموع التماسيح كلها لإغواء العامة وخداع الجماهير.

والذي يتبادر إلى الذهن ويغلب على الظن... أن خوض هذا البحث غير مناسب مطلقاً... لأنه إن كان لغرض نقل آراء العلماء الأعلام والآيات العظام السابقين فعليهم ألوف التحية والسلام وإلى رضوان الله ونعمائه وإن كان لمناقشته في الوقت الحاضر فحديث سابق لأوانه ولا يتناسب مع ظروفه وعنفوانه.

فللدول الإسلامية التي تخوض اليوم معارك ضارية ضد المستعمرين

بشرقيهم وغربيهم شأن أو شؤون. وإلى أن يصل المجتمع المسلم إلى دور رجوعه إلى الأطروحة الممهدة لهذا اليوم. وأن هذه الأطروحة إلى أي حد ترضى وتشبع رغبات المجتمع المسلم المتحفز، ألف صلاة وسلام وكلام. والمؤمل أن لا يقف متسكعاً وراء الأبواب الغريبة يستنجد القوانين التي أثبتت تجارب السنين فشلها وخيبتها وعجزها.

وقد سبق أن تكرر ـ بمناسبة وأخرى ـ اسم مدينة (قم) المقدسة ولا بأس أن نشير هنا إلى أن أول من فكّر فيها بشأن الطلبة وتنظيم أمورهم وشؤونهم المعاشية والسكنية... وحتى الصحية تبعاً لمراحل دراستهم ومراتبها ـ ولا نقول الصفوف لأنها كلمة جد حديثة وموجبة للتنفر والإنزجار عند البعض ـ هو آية الله الحائري الشيخ عبد الكريم... وقد وفق ولو بصورة جزئية...

* * *

أما بعد... فهذه خلاصة فكرة (منتدىٰ النشر) وملخص الحوادث والأدوار التي مرّت بها هذه الحركة الإصلاحية للوضع الدراسي في النجف الأشرف ومن ثم كل الجامعات الدراسية الشيعية وإعطاء صورة أو تلميح لمحة عن نوع المعارضة التي قامت بوجهها.

نعم هذه خلاصة الفكرة التي قام من أجلها أولئك الرجال الأفذاذ وتبلورت في مراحلها الأولى وسارت نحو التحقيق وطوت أشواطاً بعيدة في هذا المضمار... وهي وإن لم تنلَ نصيبها الأوفى من التوفيق والتحقيق والتطبيق في وسط النجف الأشرف خصوصاً بعدما تبدلت السلطة في العراق واعتبرت كلية الفقه من فروع جامعة بغداد (أو جامعة المستنصرية) في حين كانت المساعي تبذل لإنشاء جامعة الكوفة على غرار أرقى الجامعات في العالم الإسلامي... نعم هكذا أخذت الفكرة تتنامى وتتسع وتفرض أهميتها وواقعيتها على نفوس عدد غير قليل ممّن تشرّبت نفوسهم وأفكارهم بالحركات الإصلاحية والخاصة بمذهب الشيعة الإمامية ـ ولهذه المرحلة حديث خاص وكان القائم بهذه الحركة الأخيرة ومحور العمل فيها (السيد جواد شبر) ولعله لقى ما لقى على أثر نهوضه بتلكم الحركة ووضع أسسها وطرق تحويلها وإنشائها.

قلت. . . إن الحركة في حد ذاتها قد أثمرت وأخذت طريقها نحو التحقيق والتطبيق. . . نورد لذلك مثالاً مدينة (قم) المقدسة حيث التزمت زعماء الحوزة فيها أن تعين لأكثر الطلبة ـ أو لجميعهم ـ مرتباً شهرياً معيناً حسب مراحل دراستهم ومستواهم العلمي وهناك امتحانات وللقبول والرفض درجات في أكثر الأحيان. . . كما أن هذا المرتب يختلف بالنسبة للطالب بما يبذل من جهود لتعليم الآخرين أو لبسط المواضيع العلمية لهم وإن نشر الكتب وإخراجها والإشراف على تحقيقها ونبذ الأساليب القديمة واستبدالها بالأساليب الجديدة وترك المواضيع غير النافعة أو الثابت تفاهتها اختصاراً للطريق وتمهيداً له للطالب ليستعد للمراحل الجديدة. . . كلّ ذلك قد أزيلت عن أكثر الكتب التي يُعني المؤلفون بإصدارها اليوم. كما وإن هناك ـ في قم ـ مجلة أخرى شهرية أو نصف شهرية تتبع الأساليب الحديثة في الطبع والإخراج والنمط العربي الجديد واختيار المواضيع الأكثر أهمية لطرحها أمام الطلبة لمناقشتها وتدارسها وفتحت هذه المجلات ـ وبرحابة صدر ـ أبوابها للنقد والردّ والقبول مع طلب المزيد والإلحاح على المساهمة ـ إنما أقول هذا وأطيل لأن أمثال هذه الأمور في المحيط الذي عاشه غيرهم كان ممنوعاً ومرفوضاً وربما خروجاً عن المألوف عن حياة الطلبة الدينيين ـ ومؤسّسات خاصة لتعليم طرق التبليغ والإرشاد وتدارس مشاكله ووضع الأسس الصحيحة والكفيلة بتوسيع دائرته والأخذ في مختلف الأوساط وتعميم فائدته بين الطلبة ومساعدتهم وإسداء المعونات اللازمة للحصول على الكتب والطرق والنماذج الدقيقة عن الوقائع التاريخية التي ينبغي إذاعتها والتي يحسن ويصحّ أن تكون فيها العبرة والعظة.

وهكذا. . . وهذه كلها. . . بدأت في النجف الأشرف ولا أنسى أن أول كتابٍ من هذا النوع والذي خرج من دائرة المنتدىٰ ونال إقبالاً كبيراً للكتاب الذي أصدره السيد محمد الكلانتري بإشراف (المظفر) وهو كتاب (جامع السعادات) وقدم له المظفر بما يشير إلى ترجمة المؤلف والمواضيع الهامة في الكتاب ـ وقد صدرت للسيد محمد الكلانتري كتب أخرى على هذا النمط سنشير إليها أثناء عرضنا للكتب الدراسية ـ ثم أخذت الكتب على هذا النسق تأخذ طريقها إلى

الأسواق وتتكاثر على مرّ الأيام والتنقيح والتهذيب والعناية بالإخراج و. . . و. . . أصبح متداولاً عند أكثر المؤلفين وسنورد أمثلة كثيرة لهذه الكتب في الملحق الأول أن شاء الله تعالىٰ ليتضح المنهج الذي أراده (منتدىٰ النشر) والزعيم الديني المظفر للحوزات العلمية الشيعية قبل زهاء نصف قرن.

ولعل القاريء اليوم يستغرب من هذا الحديث وأدواره وأطواره والظروف الصعبة التي مرَّت به. . . ولكن من الإنصاف لأولئك الذين لاقوا ذلك العنت والمضايقات أن يُذكروا وتخلد أسماؤهم ونتدارس أفكارهم ونظرياتهم الإصلاحية التي أفنوا حياتهم فيها ودفعوا الشباب نحوها في الحوزات العلمية.

وعوداً على بدء. . . أقول إن هذه الحركة قد أخذت تتنامى وتسير ـ ولو بخطى بطيئة ـ وتجتذب ـ الشباب النابه وتوجهه وتجعله على الطريق السوي في سيره العلمي نحو الكمال. . . بل وأكثر من ذلك فقد كثرت المطالبة والحث بتصحيح الكتب الدراسية ووضع أمثالها أكثر ملائمة مع أذواق الشباب الناشيء في الجامعات العظمى. . . ولسبب اتساع فروع العلوم المطلوبة لرجل الدين وتهيئته تهيئةً صالحة للقيام بوظائفه في العالم المتمدن اليوم.

إن هذه الحركة الإصلاحية أو التي لا زال البعض يطالب بها لوظيفة دينية يجب الاهتمام والعناية بها. . . كما ويجب أن نؤمن بأن هذه الحركة لم تأت كموجةٍ عابرة وسط الخضم ثم ذابت في الأعماق أو هي في طريقها إلى المحو والإندثار. . . . . بل أخذت تتقدم وتخطو خطًى عريضة وتسير وتصطدم بكل شيءٍ أمامها لتفتح طريقها إلى النهاية المرضيّة المطلوبة. . . إلى الكمال.

إن هذه الأفكار أخذت تطرح نفسها في المجتمع الديني كمشاكل تفرض على الفضلاء أن يعيروها أكبر اهتمامهم.

وممّا يدعو إلى الزهو والغرور أن نرى اليوم. . . حتى أولئك الذين كانوا يستنكرون على المنتدىٰ أعماله ومساعيه وأهدافه قد أخذوا يسيرون في نفس الطريق ويحاولون أن يروا مجهوداتهم العلمية بشتى الوسائل ومختلف الإنجازات المهمة وبذل أوسع الجهود لا لشيءٍ إلّا ليتظاهروا بأن هذه الأفكار كانت متمركزة ومتبلورة في أذهانهم.

ونختم هـذا الفصل بـإيراد بعض المسـائل والحـوادث بصـورة مـوجـزة ولم نتعرض لتفصيلها ـ هذه المسائـل التي أظهرت العـراقيل في طـريق تقدم المنتدىٰ بصورة سريعـة إلى الإمام ـ ونختم هـذا الفصل بـإيراد بعض المسـائل والحـوادث بصورة موجزة، ولم نتعرّض لتفصيلها؛ لأننا لا نـريد ولا نـرغب مطلقاً أن تكون هـذه الرسـالة تعـريضاً على الشخصيـات المرمـوقة في المجتمـع النجفي ولذلـك حاولت جهدي أن ألطف العبارات وأنمقها بصورة لا يفهم منهـا تعريضـاً بأحـدٍ أو خدشاً بشخصيته أو تنويهـاً غير متنـاسب ببيت من بيوتـات النجف العلمية الـدينية العريقة. . . وأن تكون اتجاه الرسالـة نحو شـرح وجهة نـظر مجموعـة خاصـة لها مركزها الاجتماعي وأفكارها الإصلاحية المعروفة.

وهذه المسائل هي:

١ ـ قناعة المظفر بضرورة الإبقاء على بعض الأعضاء المنتمين إلى البيوتات النجفية المعروفة. . . وهذا كان يشكل عقـدةً غير قـابلة للحل نـظراً إلى أن أمثال هؤلاء كـانـوا السبب في عـدم تقـدم المشـروع بخـطوات سـريعـة إلى الأمـام لمخالفاتهم الكثيـرة ولجاجتهم في هـذه المخالفـة. . . كما أن إصـرار هؤلاء على فصل بعض الأعضاء فصـلاً نهائيـاً كان هـو الآخر سببـاً في حرمـان المؤسسة عن العناصر المفكرة التي لا غنى عنها فكان الجمود يشمل تدريجياً أكثر مشاريعها.

٢ـ تردد الشيخ المـظفر والشـريعة على مجـالس النجف والنوادي والعـادات الأسبـوعية (التعـزية) كثيـراً أو اصطحـاب عدد من الـطلاب والتـلاميـذ وإفسـاحـه المجال لهؤلاءِ التلاميـذ لطرح المسـائل العلميـة. . . ويسود الجـدل العنيف بينهم وبين عـدد من الفضلاء. . . كـان الشيخ يقصـد من هذا أن يعـرف تـلاميـذه على المجتمع النجفي. . . بينما كان يثير الحفيظة في بعض النفوس الضعيفـة ومن ثمة كانت المشاكل تتوالد وتتراكم، من غير انتظار.

٣ ـ كانت النيّة معقودة على القيام بتهـذيب عدة كتب علميـة دراسية تقضي التقـاليد عنـدهم المرور عليهـا ولو جـزئياً. . . وطـرح هذه الكتب أمـام عـدد من الفضلاء. . . غير أن الجمعية لم تتوقف في هذا الأمر كما ينبغي، وعدم موافقة أو قنـاعة الفضـلاء الذين كـان يطلب منهم المسـاهمة في هـذا المشـروع. . . كـان

من أعلام كلية الفقه

السيد محمد الصدر

الشيخ محمد مهدي الأصفي

الدكتور الشيخ عبد الهادي الفضلي

دكتور الشيخ أحمد البهادلي

السيد هادي فياض

السيد عدنان البكاء

السيد طالب الرفاعي

السيد مصطفى جمال الدين

الدكتور الشيخ أحمد الوائلي

السبب الرئيسي في عدم الموفقية هذه.

٤ - من شرائط العمل مع الجمعية والانتماء إليها عدم التدخل في السياسة... أو سابقة سياسية... وهو شرط لم نفهم معناه الصحيح حتى اليوم... لأن واقع الانتماء إلى الجمعية التنظيم في سلك الأعمال الثقافية في نظر الحكومات آنذاك تدخل في سياسة الدولة التي تريد أبناء الشيعة في العراق من الدرجة الثانية من المواطنين. وقد ظهر أثر هذا الشرط في طلب انتماء شخصيات لامعة علمية وأدبية وغير ذلك وقد سبّب رفض طلبهم الانتماء إلى الجمعية عراقيل وتعقيدات... وبعد فترة أخرى حين ارتفع هذا الحظر والشرط وأصبح الانتماء ميسوراً للكل تدهورت الجمعية وكل المؤسسة عن المدرج الذي وضعوه لسيرها وتقدمها نحو أهدافها.

٥ - في أيام آية الله البروجردي الذي انتهت إليه زعامة الشيعة المطلقة سافر (المظفر) إلى قم واستوطن بها مدة طويلة ولعله كان لغرض إقناع السيد البروجردي بالفكرة والاحتكاك بآخرين من فضلاء قم والتداول معهم في بعض الشؤون الذي يخص المؤسسة...

٦ - عدم الإتكاء على جبهة معينة في تمويل الجمعية كرواتب الأساتذة ومساعدة الطلبة وسائر المصاريف الضرورية وكان الأمر على القائمين بالمؤسسة حملاً لا يطاق. إلى أن نهض بهذا الأمر في الآونة الأخيرة جمع من الأخيار الموسرين وأهل البر وعلى رأسهم الحاج حسين الشاكري. وكان المظفر يرغب أن يكون ذلك بزعامة الزعيم الديني القائم. وقد سبق أن الجميع من المنتمين إلى الجمعية كانوا يحرمون من أية مساعدة.

٧ - عدم وجود... أو إصدار ثبت بأسماء الأساتذة والطلبة سنوياً ليعرفوا في الأوساط العلمية والاجتماعية سواءً في مدينة النجف أو في غيرها من المدن التي يوفدون إليها كمبلغين ومرشدين وخطباء وسائر الأعمال التي توكل إليهم كرجال دين... ومثل هذا الثبت ضروري لمعرفة مراتب العلماء والخريجين والذين لا يزالون في دور الدراسة بالنسبة لحفظ مراتبهم... ولا يصعب إصدار مثل هذا الثبت سنوياً للجمعية إذا كانت متمركزة وتحت رعاية زعامةٍ معلومة بينما

تكون آثاره إيجابية وبنّاءةَ بالنسبة للمجتمعات الشيعية في كل قطر ولأن العمل يكون متقابلاً ومن الطرفين فمن طرف الزعيم بإرساله الممثلين الكفوئين للمناصب المتحيزة لهم ومن طرف الناس بتقديم المعونات اللازمة والرعايات الضرورية.

٨ ـ عدم التحاق (كلية الفقه) من حيث النظام والمنهج الدراسي بالجامعات العالمية لتقييم الشهادات وعدم إفساح المجال للالتحاق بها في بعض الفروع التي لم تتوفر لهم أسباب التخصص هنا مثلاً. وذلك كطلب ممثلين يحضرون جلسات الامتحانات أو إرسال كراريس عن نشاطهم العلمي والثقافي وأشباه ذلك من الأمور التي توفر لهم المناخ اللازم والمسار للاعتراف بهم ككلية وعلى مستوى معين. مع العلم بأن هذا ما كان يصطدم مع الأهداف الدينية والمذهبية التي أسّست من أجلها في شيءٍ لأن الجامعة تفتح أبوابها لكل من تتوفر فيه الشروط اللازمة للالتحاق بها ومن ثم ـ وبعد الانتهاء من السنين الدراسية ـ يكون الرأي لصاحب الشهادة أن يذهب إلى أية جهة يختارها هو لنفسه... ومن الضروري أن نفهم أن تقوقع الجامعة ـ أية جامعة ـ على نفسها يسبب لها الإنكماش والمحدودية وعدم معرفة ميزاتها ودرجاتها العلمية شأن الرجل الذكي جداً الذي يسلك طريق المطالعة والقراءة المنفردة دون الإحتكاك بآخرين فقد يسلك هذا الذكي طريق الشذوذ في أفكاره واستنتاجاته. هذا وتمام هذا البحث يأتي ضمن نقد الكتب الدراسية في الملحق الأول إنشاء الله تعالىٰ.

٩ ـ الشهادات التي كانت تمنح للمتخرجين. هذه الشهادات الدراسية (والتي ترى صورة منهاج الصفحة المقابلة) كانت خالية من أي توقيع أو تصديق من أية جهة علمية أخرى أو جماعة علماء (ولا أقول الزعيم لأن دونها كان خرط القتاد) ولذلك كان العميد (المظفر) يرفقها ولأجل تقييم هذه الشهادات بخلاصة الدروس التي قرأها الطالب صاحب حامل الشهادة... هذه الدروس التي امتحن عليها الطالب واعتمدتها الكلية في منح الشهادة ـ وتوقع من قبل (الشيخ محمد رضا المظفر) فقط.

إلى هنا ينتهي القسم الأول من هذه الرسالة حسبما قرروا فيه من الإختصار والإقتضاب قدر الإمكان وإلى الحدود التي لا تسبب خللاً في إعطاء فكرة عامة

عن الحركة الإصلاحية لجماعة المنتدىٰ في النجف الأشرف وظروفها وملابساتها وعسى أن نوفق ـ وفي المستقبل القريب إن شاء الله ـ لكتابة رسالة أكثر تفصيلاً وتوضيحاً. وعلى الله التوكّل وعليه المعول وهو المستعان.

الأوراق المتقدمة تحدثت عن جمعية منتدىٰ النشر بصفتها من أقدم الجمعيات التي اضطلعت بمحاولات اصلاحية امتدت منذ تأسيسها في الثلاثينات وحتى تتويج ذلك بمؤسسة جامعية هي (كلية الفقه)... بيد أننا قبل أن نواصل عرض الخطوات الأخيرة التي انتهت بالمؤسسة الجامعية المذكورة، وقبل أن نتابع أيضاً سائر المؤسسات التي حاولت إخضاع الدرس الحوزوي إلىٰ التنظيم الحديث، يجدر بنا أن نشير إلى أن أقدم محاولة إصلاحية في ميدان المؤسسة الحوزوية تعود إلى بداية هذا القرن إلّا أنها لم تترك فاعلية في هذا الصدد لأسباب منها: احاطتها بشيء من السّرية، ومنها: انشغال صاحبها بفعاليات علمية واجتماعية، مضافاً إلىٰ أسباب أخرى لا نجد ضرورة التحدث عنها،... المؤسسة هي تحمل اسم (نقابة الإصلاح العلمي) وصاحبها هو: الشخصية الحوزوية المعروفة (الشيخ محمد جواد الجزائري). وندع الحديث لأحد المؤرخين لهذه المؤسسة تحت عنوان:

الجزائري يؤسّس

(نقابة الإصلاح العلمي)

لقد قام العلامة الشيخ محمد الجواد الجزائري بأعمال جهادية كثيرة، ولم يكن قصده التدوين، بل العمل قربة لله تعالى. . . للمصلحة العامة، ولم يقم من كانوا إلى جانبه بتسجيل أعماله. . لهذا ضاع كثير من أخبار أعماله الجهادية، وممّا ضاع معلومات شؤون (نقابة الإصلاح العلمي)، التي أسّسها، والمراحل التي قطعتها.

ويزيد في ذلك أنّ النقابة كانت سرية، كما تجد ذلك في موادها. .

وكل ما حصلنا عليه عنها:

١ ـ إن الشيخ الجزائري كان يحدث عنها لبعض خواصّه، وبعض تلامذته.

ومن ظاهر خط الشيخ الجزائري والورق الذي كتب عليه، والمنقول عن أخباره. . . المرجّح. . . أنّ التأسيس كان حدود سنة ١٣٢٣هـ، تقريباً، حيث كان الشيخ الجزائري في أوج جهاده العلمي والدراسي.

ومن ملاحظة مواد (نقابة الإصلاح العلمي) نقف عند:

١ ـ الناحية الاقتصادية. . ضمانها لطلاب العلم، والخروج من الفوضى المعاشيّة.

٢ ـ تنظيم الدراسة وسير طالب العلم على أحسن وأقصر الطرق المؤدية إلى غايته المقدسة.

٣ ـ [تتحفظ أمانة المال بأحد التجار، ويعتبر خارجاً عن النقابة، ويتعين بحيازة أكثرية آراء الجمعية المركزية المؤسسية].

٤ ـ التسلسل الهرمي في تنظيم النقابة.
٥ ـ السريّة.

وكانت فكرة الجزائري ـ المترجَم ـ في سرية العمل بـ (نقابة الإصلاح العلمي) حرية بالإكبار؛ إذ إنّ التجارب أثبتت أن العمل بين صفوف اللامنهجيين صعب، ويحتاج إلى جهد وطاقة كبيرة.

إن الجزائري قام بتأسيس (نقابة الإصلاح العلمي) في وقت مبكر، حيث لم تكن فكرة التأسيس النقابي بعد منتشرة في الشرق الأوسط، وهذا نتيجة سعة اطلاع الجزائري، وجدّيته في إنجاز الإصلاحات التي يقتنع بها.

ويا ليتنا اطلعنا على المراحل والصعوبات في مسيرة (نقابة الإصلاح العلمي) وما حققته النقابة من أهداف.

ولكن الأمر كما ذكرنا:

سريّة النقابة.

وعدم تدوين الأعمال الجهادية للمترجَم في حينه.

بعد ذلك يشير الكاتب إلى الأسباب التي دفعت الجزائري الى تأسيس النقابة المذكورة، ذاكراً انه نقلها عن خط الجزائري بنداً بنداً:

(نقابة الإصلاح العلمي)

ما يلي: نقلناه عن خط الجزائري المؤسِّس

[بسم الله والحمد لله وصلى الله على محمد وآله ومن جرى على منواله، وبعد فقد تنكرت الأخلاق، واستفحل سير اللادينية في المناطق الإسلامية، وأهمل الكثير من قوانين الدين الحنيف، فلم يرع لها إلّاً ولا ذمّة، وضاقت على رجال الدين والإصلاح طرق الإرشاد إلى الشريعة الإسلامية، واختلّ نظام سيرهم للمعاش

والمعاد وتحقيق وظيفتهم المفروضة عليهم من نشر الأحكام الشرعية وتطبيقها على المجتمع الإسلامي، والتبشير بها أمام الأجانب.. رأينا من الواجب الديني والأخلاقي والإنساني أن ننظم لنا طريقاً نسلكه لحفظ المعاد والمعاش والمجتمع، ولتدارك الناشئة التي شبّت على غير ما أراد الله، واجتمعنا نحن الموقعين في ذيل هذا العهد وقررنا وعاهدنا الله تعالى على بذل الجهد وراء تحقيق الأمور الآتية:

[بسم الله تعالى

صورة الأصول التي تسير عليها (نقابة الإصلاح العلمي) المصدّقة من الهيئة المركزية المؤسّسة للنقابة:

١ - تسمى الهيئة العلمية التي تسير على الأصول الآتية (نقابة الإصلاح العلمي).

٢ - مقر المركز الرئيسي لجمعية النقابة.. (النجف الأشرف).

٣ - غاية أعمال (نقابة الإصلاح العلمي) الأمور الآتية:

أ - تأييد الجامعة الإسلامية بنشر القوانين الدينية، وتطبيقها على أفرادها وحملهم على التعبد بها، والتبشير بها أمام الأمم الأجنبية، مهما تطوّرت الأحوال.

ب - إصلاح المجتمع الروحي عامة، والمنتسبين إلى النقابة خاصة، بسد نقصه من الوجهة الاقتصادية، وتنظيم مدارسه، بشكل يكفل نشاط طالب العلم، وتدريب سيره على أحسن وأقصر الطرق المؤدية إلى غايته المقدسة، وغير ذلك، مما تقرّ عليه أكثرية آراء النقابة ممّا يمس بإصلاح ذلك المجتمع.

جـ - تسعى النقابة لتحقيق التعاون التام بين جميع الأفراد المنتسبين إلى النقابة، والمدافعة بكل ما لديها من الوسائل المشروعة عن حقوقهم ومنافعهم المشروعة.

د - تأسيس مجلّة علمية دينية تنشر مقرّرات النقابة وآرائها العلمية الحريّة بالنشر.

هـ ـ النظر إلى الأوقاف العراقية العامة، وتعديل سيرها على الأسس المشروعة.

و ـ النظر إلى الأوقاف الإيرانية المحررة المنافع لأهالي (النجف) عامة، أو لطلاب العلوم منهم خاصة، وإرجاع ما خرج منها عن منهج تحريره إلى أصله.

ز ـ إرسال البعثات العلمية إلى المناطق العراقية وغيرها من المناطق الإسلامية، لتنشيط الروح الدينية بالوعظ والإرشاد إلى الأخلاق الصحيحة، وبث الأحكام الشرعية.

حـ ـ توثيق عرى الإخاء بين طبقات المجتمع الروحي وأفراده، واستئصال جذور أي دعوة تعبث بالمجتمع أو تبذر النفرة بين طبقاته.

ط ـ تعتمد النقابة على نفسها في أحكامها وتطبيق أصول منهاجها، غير مقيّدة برعاية أيّ رأي لأيّ فرد خارج عنها، في كافة أحكامها ومقرراتها.

٤ ـ تتألف الجمعية المركزية المؤسسة للنقابة من أعضاء لا يقل عددهم عن السبعة، ولا يتجاوز العشرين، ومنهم الرئيس، ونائبه، والكاتب.

٥ ـ تتحفظ أمانة المال بأحد التجار، ويعتبر خارجاً عن النقابة، ويتعيّن بحيازة أكثرية آراء الجمعية المركزيّة المؤسِّسة.

٦ ـ يتعيّن لكل جلسة رئيس ونائب، بحيازة أكثرية آراء الجمعية المركزية المؤسِّسة.

٧ ـ على كل عضو مركزي أن يشكل شعبة للمركز، لا يقل عددها عن السبعة، ولا يتجاوز العشرين، ويكون ذلك العضو أحدها ورابطتها بالمركز، وحامل أحكامه إليها، ورئيسها، وينتخب من أفرادها الكاتب، وأمين المال، ونائب الرئيس، وتسمّىٰ هذه الشعبة. . الشعبة المركزية.

٨ ـ على كلّ عضو من الشعبة المركزيّة أن يشكل شعبة على نسق شعبته، هو

أحدها، ورئيسها، وحامل أحكام شعبته المركزية إليها.

٩ - تتفرّع الشعب المنوي تشكيلها على نسق الشعبة المتفرعة على الشعبة المركزيّة، متسلسلة، بحيث ليس لرئيس أيّ شعبة منها أن يأخذ أحكام شعبته من غير رئيس الشعبة المتلوّة لشعبته.

١٠ - يتعين نائب الرئيس، والكاتب، وأمين المال، في الشعب المتفرعة بحيازة أكثرية الأصوات، وإذا تساوت الأصوات يجري الاقتراع.

١١ - الجمعية المركزيّة هي التي تقرّر تأسيس الشعب في مركز النقابة وفي سائر الأنحاء، وهي التي تعين لجنة من أفراد النقابة للقيام بمهمّة التأسيس في الأنحاء، على أن لا تندرج في الشعب المؤسسة وإنما يكون المخوّل من قبل الجمعية المركزية القيام بمهمّة التأسيس فقط، وتكون ح الواسطة الوحيدة بين الجمعية المركزية وبين الشعب المؤسّسة في تبليغ أحكامها، وتسمّى هذه اللجنة «اللجنة كذا».

١٢ - للجمعيّة المركزيّة أن تعرف كافة رؤساء الشعب وسائر أفرادها، وليس لأيّ فرد من أيّ شعبة أن يعرف أكثر من أفراد شعبته؛ نعم يعرف رئيس الشعبة بطبع موقفه أفراد شعبته التي هو رئيسها، وأفراد الشعبة المتلوّة بشعبته التي هو أحد أعضائها، والمفوض من قبل رئيسها لتأسيس شعبته.

١٣ - لا يجوز لأيّ عضو من أعضاء الجمعية المركزية أن يفهم أحداً خارجاً عن الجمعية، ولو كان من أفراد الشعب. . بانتساب غيره من الأعضاء إلى الجمعية المركزية، أو إلى جمعية النقابة، نعم يلزم عضوها المؤسّس شعبته أن يفهم أفرادها بانتسابه إلى جمعيّة النقابة لا إلى الجمعية المركزيّة.

١٤ - لا يجوز لأيّ عضو من أعضاء الشعب أن يفهم أحداً خارجاً عن شعبته بانتساب غيره من أفراد شعبته إلى الشعبة أو إلى النقابة.

١٥ - يعمل بأكثرية الآراء عند اختلافها في جلسات كل من الهيئة المركزية والشعب، فإذا تساوت الآراء يجرى الاقتراع.

١٦ - للهيئة المركزية ولأيّ شعبة من الشعب أن تقبل الهبات وسائر الإعانات التي

تقدّم إلى جمعية النقابة مع مراعاة كرامتها.

١٧ ـ تعتبر في تحديد العضو المنتسب إلى جمعية النقابة الأمور الآتية:
١ ـ أن يبلغ عمره العشرين سنة.
٢ ـ أن يكون من طلاب العلوم، حسن الظاهر، غير مشتهر بسوء الأخلاق.
٣ ـ أن يُجري يمين المحافظة على العمل بأصول جمعية النقابة المذكورة في منهاجها.

١٨ ـ للهيئة المركزية أن تعد كل عضو من أعضائها أو أعضاء الشعب.. منفصلة عن جمعية النقابة.. إذا تعمّد الخلاف أو أكثر من الخلاف لمقرّراتها، أو لأصول الجمعية، كما أن للشعبة أن تعد عضوها منفصلاً عن الجمعية إذا كان كذلك.

١٩ ـ تعقد الهيئة المركزيّة في كلّ أسبوع جلسة للمداولة، والبحث في شؤونها، وللرئيس أن يراعي مقتضيات الظروف، فيزيد في الجلسات.

٢٠ ـ إذا اجتمع أكثر من نصف الأعضاء كانت الجلسة رسميّة، وأحكامها متبعة].

ومما جاء في نسخة المسودة:

[بذل الجهد وراء تنظيم كليّة دينيّة، مركزها (النجف الأشرف)، تدرس فيها العلوم الدينية ومبادئها، تكفل للمنتسبين إليها أمر معاشهم، وحفظ كرامتهم، وسائر حاجاتهم من كتب وغيرها من المعدات لتحصيل العلم].

النقابة المذكورة ، تمثل وجهة نظر ريادية مبكرة ، قد اقترحتها شخصية (الشيخ محمد جواد الجزائري) . وقد انعكست الفكرة الإصلاحية على نجل الشخصية المذكورة ، وهو (الشيخ عز الدين الجزائري) ، حيث تحمس بدوره لممارسة الخطوات الإصلاحية في وقت مبكر تزامن مع مؤسسة منتدى النشر ، وقد تجسّد ذلك في مشروعين ، أحدهما : مقترح نظري يطالب بتنظيم المؤسسة الحوزوية والآخر : إنشاء مدرسة في صعيد (المقدمات والسطوح) مع تخطيط لهيكليتها : إدارياً وعلمياً . . وبغض النظر عن فاعلية هذين المشروعين وسواهما ، حيث قلنا إن المشروعات الإصلاحية لم تستطع الوقوف أمام الخط الحوزوي الممتد إلى أكثر من ألف سنة ، مع ذلك : فإن هدف موسوعتنا هو أن تعرض لأفكار الآخرين بغض النظر عن نجاحها أو إخفاقها في هذا المشروع أو ذاك . .

المهم ، نقدم إلى القارئ أولاً مقترحه عن تنظيم المؤسسة الحوزوية ، ونقدم ثانياً تخطيطه الإداري والعلمي لمدرسته (مع ملاحظة أن الإشارة إلى المدرسة الجزائرية سبق أن وقفنا عابراً عندها في فقرة سابقة من موسوعتنا) .

فكرة

تنظيم وتجديد الوضع الإدارية والدراسي والاقتصادي والإعلامي للمرجعية العامة والهيئة العلميّة في (النجف الأشرف) والحواضر العلميّة المشابهة .

وضعها

فضيلة الشيخ عز الدين الجزائري

١٩٤٠م - ١٣٥٩هـ

(١) في توحيد الإدارة العامة.. مع فتح باب الاجتهاد:

تجنباً للمعارك الجانبيّة التي أدّت إلى كثير من التسامحات، وضياع الفرص، وضياع المسؤوليات الأولى . . لتعدّد الإدارة بتعدّد المجتهدين . . لا بدّ من وحدة الإدارة العامة للمراكز الدراسيّة والأمّة . . مع فتح باب الاجتهاد للراغبين، وذلك بـ :

١ ـ ترتيب لجان ذات كفاءة وتقوى **لاختيار المرجع العام في الإدارة العامة**، وتوضيح مسؤولياته وحدوده .

٢ ـ اختيار لجان استشارية للمرجع العام حسب الحاجة . وجهاز يتحلّى بالكفاءة والتقوى .

لقيام الإدارة العامّة بمسؤوليّاتها تجاه الأمّة وسائر قطاعاتها، إذ ليس المرجع مرجع مجموعة من الطلاب، أو مجموعة من الناس؛ وتبقى الأمّة بغير مسؤوليّة، وقطاعات الشعب بغير دعاية وحماية؛ وإنّما الحاجة القصوى لمرجعيّة إدارية حازمة للمجتمع الإسلامي فالبشري .

٣ ـ فتح مواسم دورية فصليّة لمجلس المجتهدين لمناقشة الأحكام الفرعية، وتثبيت الحكم الأقرب لواقع التكليف الشرعي .

(٢) في ضبط الاقتصاد الشرعي لجهاز المرجعية الأولى وللأمة.. إيراداً وصرفاً:

تُؤسَّس لجنة ماديّة، تتحلّى بالأمانة والكفاءة والتقوى . وجهاز متخصّص مع هذه اللجنة لـ :

١ ـ استقبال وجباية الحقوق الشرعيّة وضبطها .

٢ ـ توزيع الحقوق الشرعية في مواردها المثمرة ، ومراقبة التوزيع ، بما يشعر سائر أفراد الأمّة ، بأن لهم ضمان من (بيت مال المسلمين) .

٣ ـ تهيئة ميزانية فصليّة متطوّرة .

٤ ـ العمل على زيادة الدخل لرفع مستوى الأمّة ، وقدرات الأجهزة .

٣ ـ في تنظيم الدراسة:

مراكز التعليم:

تُحدَّدُ مراكز تعليم رئيسية ـ مع فتح باب التعليم الخارجي العام لمن يشاء التثقيف .

وتُهيّأ وسائل وأجهزة قيامها واستمرارها على الوجه اللائق المتطوّر نحو الأفضل .

وتُهيّأ وسائل الإيضاح والأجواء الدراسية اللائقة للتفوّق والإبداع فيها .

تُحدّد صفوف وسنّي الدراسة ، وتكون فروع الدراسة :

١ ـ فرع المجتهدين .

٢ ـ فرع القضاة والمبلّغين . . للتعيين .

يؤكّد على مادة دراسيّة . . مشاكل المجتمع والعمل على حلّها .

٣ ـ فرع المبلّغين الذاكرين ـ موسمياً ـ .

٤ ـ فرع التوعية والتبشير العام في العالم .

٥ ـ فرع التثقيف .

الهيئة التدريسية:

يُعيّن مدراء حازمون وأساتذة أكفاء لتلك المراكز . . بعد :

١ ـ اختبارهم ، واختيارهم لمرجّحات .

٢ ـ وتحديد مسؤوليّاتهم مع :

أ ـ مراقبة أدائهم المسؤولية .

ب ـ والعمل على اكتفاءهم الاقتصادي بشكل محدّد محترم ، وحتّى عند العجز ودور التقاعد .

الطلاّب:

يُحدّد عدد الطلاب المقبولين . . سنوياً . . بعد :

اختبار لياقتهم ، واختيارهم لمرجّحات . مع :

١ ـ اختبارهم أسبوعياً وفصلياً . . عند الدراسة .

٢ ـ والعمل على اكتفائهم الاقتصادي/ بشكل محدّد محترم/ ورعايتهم وحمايتهم صحياً واجتماعياً .

٣ ـ وضمان توظيف الراغبين عند التخرّج .

الخريجون:

تُحدّد الأماكن التي شغلها الخريجون ، وتراعى وتحمى من الافتراض والعفويّة والتصادم . مع :

١ ـ تحديد مسؤوليّة الخرّيج في وظيفته .

٢ ـ ومراقبته على أدائها .

٣ ـ والعمل على اكتفائه الاقتصادي/ بشكل محدّد محترم/ ورعايته وحمايته عند العجز ودور التقاعد .

الدراسة:

١ ـ تُحدّد المواد الدراسية ، وكتبها .

٢ ـ ويطعّم المنهاج الدراسي بما يلزم في العصر الحالي من العلوم واللغات ، ويؤكّد على مادة الإنشاء والخطابة ، ومادة التربية الإيمانية (التقوى) . . والجانب العملي من حياة الطلاّب .

٣ ـ تكون اللغة العربية الفصحى لغة الدراسة الأولى .

٤ ـ تجدّد بعض الكتب الدراسيّة بإخراج فنّي وتبسيط ووضع تمارين مشجّعه .

٤ ـ في التوعية والإعلام والتبليغ العام:

١ ـ تُتجنّب المعارك الجانبيّة مع الأديان والمبادئ الأخرى ـ قدر المستطاع ـ .

٢ ـ تُتبنّى مصالح البشرية والدفاع عنها في كلّ مكان .

٣ ـ يُعرض الإسلام على أن شريعة العدالة والسعادة . . ضدّ الفقر والمرض والجهل وسائر أسباب الشقاء .

٤ ـ تُرتّب لجان متفرّغة تستقبل خريجي الدراسة فرع التبليغ ، وتستثمرهم لوسائل الإعلام الحديثة المنوّعة .

٥ ـ تُرسل البعثات ـ ذات الكفاءة والتقوى ـ إلى الأقطار مع :

١ ـ دراسة ومنهج مرحلي لاستثمار البعثات .

٢ ـ ومحاسبة البعثات وتشجيعها على نشاطها ونجاحها .

تُعيّن أوقات الدوام والعطل بشكل محدَّد ومعقول لسائر الأجهزة والطلاب .

مدرسة الجزائري

(مدرسة النجف الدينية)

منطلق

التنظيم الدراسي

في

النجف الأشرف والحواضر العلمية المشابهة

(مدرسة الجزائري ـ مدرسة النجف الدينية)

لتدريس علوم الشريعة والعلوم العربية

المؤسّس : العلامة الشيخ عز الدين الجزائري .

التأسيس : في (النجف الأشرف) ، كان بدوره الأوّلي بتاريخ ١٩٤٣م ـ ١٣٦٢هـ ، وبدوره التكاملي بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٣٧٧هـ ـ ٨/ ١٢/ ١٩٥٧م .

رسالة المدرسة : في المرحلة الأولى . . تدريس علوم الشريعة والعلوم العربية بصورة منهجيّة بالعمل على :

١ ـ توقيت الدراسة والعطل .

٢ ـ اجراء امتحانات ، وتسليم شهادات ، وتقديم جوائز للفائزين الأوائل .

٣ ـ تهيئة أساتذة أكفاء .

٤ ـ تهيئة محفّزات لاستمرار الدوام والتفوّق .

٥ ـ التأكيد على تعوّد النطق بالعربية الفصحى .

كيف نشأت فكرة تأسيس المدرسة؟

الدراسة : دراسة منهجيّة ، في صفوف ؛ يدخل الطلاب إلى صفوفهم ، ويخرجون . . بتوقيت ، ينبّه إليه صوت جهاز التنبيه المعد لهذه الغاية ؛ وينتقل الطلاّب الناجحون في المدرسة من صف إلى صف أعلى .

وتدرّس في الدوام اليومي لكلّ الصفوف أربعةُ مواد ؛ وقد استمرت الصفوف بدراسة منهجيّة حتى يوم توقّف المدرسة .

وقد ألزمت المدرسة الطلاّب بوظائف دراسية يومية ، يباشرونها في مساكنهم .

كما خصّصت يوماً في الأسبوع لتدريب الطلاب على الخطابة .

من مواد الدراسة : تدرّس المدرسة مواد (المقدمات والسطوح) ، وكان من مواد الدراسة (النحو) ،(تمرين الإعراب) و(الصرف) ، و(البلاغة) ، (المعاني والبيان والبديع) و(التجويد) و(الأدب) و(المنطق) و(التوحيد ـ العقائد) و(الأخلاق) و(التفسير) و(أصول الفقه) و(مسائل الفقه) و(الفقه الإستدلالي) .

مجانية الدراسة : والدراسة مجّانيّة .

لغة التدريس : ولغة التدريس العربيّة .

الامتحانات : أجرت المدرسة امتحانات أسبوعية في نهاية كل أسبوع دراسي ، وامتحان لنصف ألسنة الدراسيّة ، وامتحان سنوي في آخر السنة الدراسيّة ، وامتحان سنوي في آخر السنة الدراسيّة .

الشهادة المدرسية : وبعد امتحان آخر السنة تمنح الشهادة المدرسية ، حيث تثبت فيها العلامات التي يستحقها الطالب ، ودرجته في النجاح ، إن كان ناجحاً . . الشهادة : للتعريف بمستوى الطالب العلمي . وبمؤهلاته لما يريد أو يُراد له من اختصاص بـ :

ـ الاجتهاد في الشريعة .

ـ أو العالمية (عالم في منطقة ما) .

ـ أو الوعظ والإرشاد .

الجوائز للناجحين الأوائل : وقد منحت المدرسة جوائز للناجحين الأوائل في الامتحانات . . تكريماً وتشجيعاً .

العطل المدرسية : وعطل المدرسة . . الجمعة من كلّ أسبوع ، وعطلة نصف السنة ، والعطلة السنوية في آخر السنة الدراسية ، اضافة الى عطلة المناسبات ،

ومنها العشرة الأولى من محرم، وشهر رمضان، حيث يكون الكثير من الأساتذة والطلاب مشغولين بالوعظ والإرشاد .

وقد حرصت المدرسة على أن تكون مدّة الدراسة السنويّة غير منقوصة .

وكان الالتزام الدقيق بالدوام والجديّة في الدراسة سمة المدرسة[١] .

جنسيات الطلبة : ضمّت المدرسة في صفوفها تلامذة من أنحاء (العراق) و(لبنان) و(سوريا) و(الإحساء والقطيف ـ السعودية) و(البحرين) و(إيران) و(أفغانستان) و(باكستان) و(الهند) .

سكنى الطلبة : كان بعض التلامذة يسكنون مع ذويهم في بيوت، وبعضهم في مدارس، أعدت لسكنى عامّة الطلبة، كقسم داخلي .

اعتراف وزارتي المعارف والدفاع بالمدرسة : وقد اعترفت وزارة المعارف/ التعليم الأهلي، ووزارة الدفاع العراقية . . بالمدرسة، بعد تأسيسها ودوامها، لغرض إعفاء الطلاب الناجحين من الخدمة العسكرية الإجبارية . . ليستمر الطلاب في الدراسة، ثم التفرغ للتبليغ والوعظ والإرشاد .

وكانت الدراسة في المدرسة مستمرة قبل اعتراف وزارتي المعارف والدفاع العراقية، وعنده، وبعده .

تمويل المدرسة : بناء على ما اختطّه مؤسّس المدرسة من سير المدرسة المستقل، لأداء رسالتها بصورة (مثاليّة) قربة إلى الله تعالى . . لم تدخل المدرسة لعبة المحاور وحواشي بعض الأطراف ؛ وكم عُرضت على مؤسّسها الأموال لكي تكون المدرسة لجانب ضد جانب ؛ ولكن المدرسة أبت إلاّ أن تكون للكل دون مقابل، هذا في ساحة الهيئة العلمية .

أما في الساحة السياسيّة فلم تنزلق المدرسة لتأييد ـ خارج رسالتها ـ مقابل المال، كما رفضت المال من السلطة الحكومية .

---

(١) راجع كلمة العلامة الشيخ آغا بزرك الطهراني ملحق رقم (١) وكلمة مفتش المعارف الرسمية الأستاذ رشاد شمسة ملحق رقم (٢) .

وكان تمويل المدرسة من تبرعات مؤسّسها ، حيث باع قطعتين من الأراضي ، كانتا له ، وباع مكتبته المطبوعة الخاصة ، وصرف الثمن في سبيل المدرسة وفي سبيل التوعية لأداء الرسالة (قربة إلى الله تعالى) .

بناية المدرسة:

كانت (مدرسة الجزائري ـ مدرسة النجف الدينية) إدارة صفوفاً في بناية (مدرسة الخليلي الصغرى)[1] .

ملاحظة:

(مدرسة الجزائري ـ مدرسة النجف الدينية) هي غير (مدرسة الجزائري ـ الأحمدية) في النجف الأشرف ، التي كانت في نفس البناية . . البناية واحدة ، والإدارة والمنهجية متعددة .

وقد قامت (مدرسة الجزائري ـ الأحمدية) بنشاط ثقافي أيضاً ، من مطبوعاتها :

١ ـ (نقد تيسير العلوم العربية) للعلامة الشيخ محمد الجواد الجزائري .

٢ ـ (المبعث النبوي) أصدرته لجنة الخطابة في (المدرسة الأحمدية) .

وهي أيضاً معترف بها من قبل وزارتي المعارف والتعليم الأهلي ، والدفاع العراقية ؛ لغرض اعفاء طلابها الناجحين من الخدمة العسكرية الإجبارية . . ليتفرّغوا للدراسة ثم للتبليغ والوعظ والإرشاد .

كان عميدها العلامة الشيخ عبد الكريم الجزائري ، ثم العلامة الشيخ محمد الجواد الجزائري ؛ أدارها ودرّس فيها أيضاً العلامة الشيخ عزالدين الجزائري .

وقد أسّس العلامة الشيخ عزالدين الجزائري فرعاً لـ(مدرسة الجزائري ـ

---

(١) بناية ذات طابقين ، وعدد غرفها (١٨) ، موقعها في (محلة العمارة) في آخر (سوق العمارة) ، ويجاورها من جهة الشرق (الخان) الذي كان قد عمّره العلامة السيد محمد كاظم اليزدي ، ووقفه للزائرين ، تأسّست بناية المدرسة سنة ١٣٢٢هـ ، والباذل لمصروفاتها الميرزا محمد علي خان گرگاني ، وقد جعل له مقبرة في غرفة عند مدخل المدرسة ، دفن فيها بعض عائلته .

الأحمدية) في (كربلاء) باسم (مدرسة الإمام الحسين ـ ع ـ الدينية) . . افتتحه بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٥٣م ـ ١٣٧٣هـ ، وقد التحق بالمدرسة العديد من الحرفيين ومن طلاب ثانوية (كربلاء) .

وكان الدوام مسائياً ؛ وقد استمرت هذه المدرسة ـ الفرع في كربلاء سنة كاملة ، ثم توقفت لانشغال مؤسّسها ؛ أدار المدرسة ـ الفرع ـ ودرّس في العلامة الشيخ عز الدين .

* * *

المدرسة المذكورة تمثل واحدة من المشروعات المبكرة . إلا أن كاتباً آخر وهو (علي البهادلي) يعرض لنا في كتابه (الحوزة العلمية في النجف) بحوثاً مفصلّة عن مؤسسات تعليمية أخرى منها المدرسة التي تقدم الحديث عنها ومنها : جامعة النجف الدينية ، ومدرسة العلوم الإسلامية وغيرهما ، مما توقفت عن ممارسة نشاطها أو مما لا تزال تمارس فاعلياتها ، مع تركيز الباحث على جمعية منتدى البشر ومتابعته أمل إلى تأسيسها في السنوات المتأخرة لـ(كلية الفقه) ، حيث مهّد لذلك بالحديث عن الاتجاهات التجديدية في الحوزة ، محدداً الاتجاهات المذكورة بهذا النحو :

الحـركة الإصـلاحيـة في الحـوزة العلميـة

بقلم الأستـاذ علي البهادلي

الأولى: اتجاه لإصلاح النظام الدراسي الحوزوي. وإدخال بعض العلوم والعناوين على مناهج الحوزة العلمية، بالإضافة إلى تعلّم بعض اللغات غير العربية. وخاصة في مرحلتي المقدمات والسطوح. ومثل هذا التوجيه دعا إليه بعض رجال الحوزة أنفسهم. ومن أوائل من دعا إلى هذا اللون من الإصلاح الشيخ محمد جواد الجزائري ضمن أطروحة (نقابة الإصلاح العلمي)[١]. ويمكن أن نعتبر الشيخ محسن شرارة[٢] من الطليعة ممّن دعا إلى هذا اللون من الإصلاح الدراسي[٣]. فقد انبرى هو وفريق معه لدراسة اللغة الإنكليزية بقصد أن يقف على ما يكتبه الأجانب عنّا من حق أو باطل فيكون بذلك على علم (. . .) وكان من جرّاء تعلمه أن ترجم كتاب (الشيعة) لأحد المستشرقين إلى العربية ونشر بعض فصوله في العرفان[٤].

---

(١) وإن كنا نلاحظ أن (نقابة الإصلاح العلمي) قد نحت منحى حزبياً من خلال مطالعة نظامها التأسيسي.

(٢) انظر ترجمته في: الخاقاني: شعراء الغري، أو النجفيات، ٢٧٩/٧.

(٣) انظر: الخاقاني: شعراء الغري، أو النجفيات، ٢٧٩/٧.

(٤) نفسه، ٢٨١/٧ - ٢٨٢.

وجاء بعد الشيخ شرارة نخبة من رجال العلم في الحوزة ممّن آمنوا بضرورة إصلاح النظام الدراسي. مع حرصهم أن يكون الأمر في نطاق الحوزة العلمية، من غير تدخّل جهة حكومية في مثل تلك الأمور.

الثانية: اتجاه لإنشاء مدارس ابتدائية وإعدادية وحتى جامعية. تتخذ من المناهج الإسلامية بالإضافة إلى المقررات الحديثة مادة من موادها الدراسية. وتكون تحت إشراف بعض رجال الحوزة العلمية وتوجيههم. وحجّة هؤلاء أن المدارس الحديثة التي أُنشِئَت في العراق عامَّة والنجف بوجه أخص في ظل الحكم العثماني، أو الاستعمار البريطاني، إنما تُبعِد الإنسان المسلم عن دينه وتسلخه عن مجمل معتقداته، وإن مقاطعة تلك المدارس. وعدم إرسال الأطفال إليها. لا يساهم في حل المشكلة، إذ يظل الجهل متفشياً في ظل نظام دراسيّ حوزوي قاصر. إذ لا يوجد في ظل الدراسة الحوزوية ما يمكن أن يشمل الطالب بالمراحل الأولى من التعليم على مستوى القراءة والكتابة. بالإضافة إلى قصور المناهج الحوزوية عن مماشاة تطور العصر.

ويُعتَبر العالِم والسياسي والشاعر السيد عيسىٰ كمال الدين[١]، وكذلك السيد سعيد كمال الدين[٢] ومن بعدهما الشيخ علي الخالدي، الشهير بزايردهام[٣]، من أوائل مَن دعا في النجف إلى هذا اللون من الإصلاح. وتبعهم في ذلك مصلحون حيث تمثّل «منتدىٰ النشر» التي أُسّست سنة (١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م)[٤]، بجهد من الشيخ محمد رضا المظفّر، وتلك إحدى ثمرات الجهود الإسلامية للشيخ المظفر و «التي لا ينساها له تاريخ النجف

---

(١) انظر: محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، ١/ ٣٩٨. والخاقاني: شعراء الغري ٧/ ٢٧٨، و٨/ ٩٠ و١١/ ٧ و٥٢٣.

(٢) انظر ترجمته في: الخاقاني: شعراء الغري، ١/ ٢٩٥.

(٣) انظر ترجمته في: الخاقاني: شعراء الغري: ٤/ ١٤٦.

(٤) انظر ترجمته في: الخاقاني: شعراء الغري، ٦/ ٤٢٣.

العلمي، فقد ضحّى من أجل حياتها معظم وقته، وسقى بذرها سقياً مقطراً من نفسه الصافية»[١]. وهنا لا بدّ من الاعتراف بالفضل الكبير للمُصلِح السيد محسن الأمين الذي كان له اليد الطولى في تأسيس مثل تلك المدارس بالنجف الأشرف، بل وأرسل شخصاً من الشام من آل (القربى) ليشارك في إدارة مدرسة الغري، كما حدثني بذلك المؤرخ السيد حسن الأمين.

الثالثة: اتجاه لإصلاح وضع (الخطابة الحسينية). وما يرتبط بأمر الخطابة من تنظيم شؤونها. . .

بعد ذلك، يتقدم الأستاذ البهادلي بدراسة عن المدارس والمؤسسات التي انتظمتها الإصلاحات، فيما يبدأ ذلك بالحديث أولاً عن:

جمعية منتدىٰ النشر:

تعود بذور فكرة إنشاء (جمعية منتدىٰ النشر) إلى (١٣٤٣ هـ/١٩٢٤ م)، حين عقدت الاجتماعات «السرية» للتفكير في طريق الإصلاح واكتساب الشعور العام، وكان محور الحركة التي أثمرت في ما بعد هذه الجمعية «الثلاثة المعروفون بالصفوة، أو أضلاع المثلّث المتساوي الأضلاع: الشيخ جواد الحَجّامي، والشيخ محمد حسين المظفّر، والسيد علي بحر العلوم»[٢]، وكان كاتب الجلسات هو الشيخ محمد رضا المظفّر[٣]، والذي دوَّن بعض مذكراته عن تلك الاجتماعات وهدفها، فقال: ـ

---

(١) الخاقاني: م. س، ٨/٤٥٤.
(٢) نحيل المهتمين إلى مصادر دراسة المنتدىٰ:
ـ محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، ٣/٣٩٨.
ـ خليلي: موسوعة العتبات المقدسة، ٧/١٨٢ ـ ١٨٣.
ـ الخاقاني: شعراء الغري أو النجفيات، ٨/٩٠ و٤٥٤.
(٣) الآصفي: مدرسة النجف، ١١٣، (نقلاً عن): مخطوطات المظفّر. نفسه.

«. . . وهي على بساطتها تمثل لي مقدار التكتّم والخوف، الذي كان يساورنا، وكان عملنا وتفكيرنا مقتصراً على تفقُّد المفكرين من أصحابنا الذين يحسّون بالداء مثلنا»[١]. إلاَّ أن تلك الاجتماعات لم تستطع أن تحقّق شيئاً، بسبب القوّة التي يتمتع بها التقليديون في النجف، ولكن الذي أعطى القوّة والزخم وفرصة الظهور لجماعة (منتدىٰ النشر) بالإعلان عن نفسها هو ظهور بعض المؤلفات، والكتب التي (هاجمت النجف)، حسب تعبير الشيخ المظفّر[٢]، وذلك في سنة (١٣٤٩ هـ/ ١٩٣٠ م). ممّا جعل من ظهور جمعية باسم (منتدىٰ النشر)، أمراً مقبولاً لدى الرأي العام، ولدى رجال الحوزة التقليديين بوجه أخص.

ومع أن هدف الجمعية الأساسي هو إصلاح النظام الدراسي الحوزوي، إلاَّ أن اسم (منتدىٰ النشر) اختير غطاءً، حيث لم يكن طرح موضوع الإصلاح مقبولاً. وذلك ما يؤكده الشيخ محمد رضا المظفر في رسالته إلى صاحب مجلة (العرفان) الصيداوية أحمد عارف الزين، حيث جاء فيها: ـ «كنت أتحيّن الفرصة لأبسط لكم مشروع (منتدىٰ النشر) ومدرسته الدينية، بعد أن لفت نظري أنه لم يثر اهتمامكم، مع أني أعهد بكم أول من فكّر ودعا لإصلاح دراسة النجف.

ونحن جماعة فكرنا في هذا الإصلاح من قبل (١٥) عاماً تقريباً، والأبواب كانت موصدة في وجوهنا. حتى رأينا أن نؤسّس (منتدىٰ النشر) لتحقيق هذه الغاية، وأسميناه بهذا الاسم حتى لا يلفت الأنظار إلى هدفنا، فيقاوَم قبل أن يخطو بعض الخطوات». . . إلخ[٣].

وكانت الاجتماعات التمهيدية تُعقَد في دار الشيخ علي ثامر، والسيد محمد

---

(١) نفسه.
(٢) ن، ١١٤. ولم يذكر المصدر أسماء تلك الكتب. . .
(٣) المظفّر: رسالة لأحمد عارف الزين، مجلة العرفان (صيدا)، مج/٢٩، ج٨ و٩، رجب ١٣٤٩ هـ/أيلول ١٩٣٠ م.

سعيد الحكيم[١]، وليس في منزل السيد/موسىٰ بحر العلوم، كما يعتقد ذلك الأستاذ علي الخاقاني[٢]. ويبدو أن إعلان المنتدىٰ كجمعية معترَف بها قد تأخّر حتى عام (١٣٥٤ هـ/١٩٣٥ م) حيث اختير الشيخ محمد جواد الحجّامي، رئيساً لها، والشيخ المظفر أميناً للسرّ، أما بقية الأعضاء فهم:

ـ السيد يوسف السيد محسن الحكيم.
ـ الشيخ عبد الهادي حموزي.
ـ السيد موسىٰ بحر العلوم.
ـ الشيخ علي ثامر[٣].

وقد أرّخ عام التأسيس شعراً الشاعر الشيخ/ محمد حسين المظفر، حيث قال:

يـا بنفسي عـصـابـة أخـذَتْهُـمْ غيـرةُ الـدينِ مُـذْ رأوه تَفَـرْنَـجْ
فـأقـامُـوا لِـواءَهُ لِـبَـنِـيـهِ فَهُـوَ مِنْ طِيبِ نَشْـرِهِمْ يَتَـأرَّجْ
بَـلَغُـوا دِينَـنَـا الـحَـنِـيـفـيّ أرِّخ: (منتدى النَّشْرِ جاءَ لِلحَقِّ مَنْهَجْ)[٤]

(١٣٥٤)

وبمساعدة ما يوحيه اسم الجمعية كمؤسسة للنشر، وباستثمار صدور الكتب المعادية للنجف «تمكن القائمون بالنهضة أن يُشركوا معهم أشهر رجالات النجف وعلمائها ومفكّريها، حتى انتخبوا هيئة عاملة تتألف من سبعة أشخاص، وهيئة عليا من ثلاثة مجتهدين. وباقتراح هذه الهيئة العليا، نهض العلاّمة الأكبر المرحوم الشيخ محمد جواد البلاغي لتأليف تفسير مختصر للقرآن العظيم ليكون باكورة الأعمال أسماه (آلاء الرحمن) وعاجلته المنية قبل إكماله، وخرج منه جزآن

(١) الآصفي: مدرسة النجف وتطوّر الحركة الإصلاحية فيها، ١١٤ ـ ١١٥.
(٢) الخاقاني: شعراء الغري، أو النجفيات، ٥٢٣/١١.
(٣) نفسه، ٤٥٤/٨.
(٤) وردت هذه الأبيات في: ـ
الخاقاني: م. س، ٩٠/٨.
ومحبوبة: ماضي النجف وحاضرها، ٣٩٨/٣.

وطُبِعا، فكان هذا كل نتيجة هذه الحركة»[١].

ويبدو أن القائمين بشؤون الجمعية، قد استشعروا بقوة ما، خاصة بعد تأييد مجموعة من رجال العلم في النجف لحركتهم فقاموا «بحركة الكلية» كما تسمّى ـ عصرئذ ـ، وحركة الكلية هذه تدعو إلى تنظيم الدراسة الحوزوية بمراحلها الأولى وصولاً إلى تهيئة الطالب لمرحلة الاجتهاد، حيث لا يطال الإصلاح شأن الدراسة في هذه المرحلة. مع إدخال بعض العلوم العصرية، وإدخال تعلّم بعض اللغات الأجنبية إلى المنهاج الدراسي، وحجة الداعين لهذه الكلية: «إن المرحلة التي تحتاج إلى التعليم المنظّم هي المرحلة الأولى فحسب، لاحتياج الطالب فيها إلى تضخيم الشعور بالمسؤولية، وتوفير الوقت له بتقصير المسافة الدراسية عليه بالأخذ بقسم من المناهج الحديثة في تيسير الكتاب وتبسيط مفاهيمه وتصويره، ثم إضافة علوم أخرى إلى العلوم السائدة في هذه المرحلة اقتضتها طبيعة ما جدّ من تطورات في هذه العصور وبالأخص ما يتصل بالجوانب (العَقَدِيّة)[٢]. ليكون الطالب الذي يجتاز مرحلته الأولى بمستوى رسالته الخالدة التي يراد له تأديتها كاملة سواء انتقل إلى المرحلة الثانية أو وقف عند حدود المرحلة الأولى»[٣].

ونتساءل بعد هذا: كيف واجه النجفيون مشروع (الكلية) والدعوة إلى تنظيم الدراسة بصفوف، وامتحانات، وشهادات تخرّج؟ وما هو مآل الفكرة يا تُرى؟ يجيب الشيخ المظفر فيقول:

إن فكرة (الكلية) «هزّت النوادي النجفية هزّة عنيفة اشترك فيها الكبير والصغير والعالم والجاهل، وقد بلغ الموقّعون على ورقة شروط العمل المائتين، وهم رجال العلم بالنجف وأهل الكلمة فيه، ولكن يظهر أن في هذه الكثرة في ابتداء العمل وقبل انتظامه ما ساعد على توقف الحركة، فلم تصمد أمام العاصفة الهوجاء»[٤].

---

(١) الآصفي: مدرسة النجف، ١١٥، (نقلاً عن): مخطوطات المظفّر.

(٢) في الأصل (العقائدية).

(٣) الحكيم: المنتدىٰ: تاريخ وتطور، س/٣، ع/٢، ذي الحجة ١٣٨٧ هـ/آذار ١٩٦٨ م.

(٤)

ولكن بماذا يخرج الشيخُ المظفر من ملاحظات نضعها أمام هذا الجيل، والجيل القادم ليطّلع أولاً على تجارب الماضين، وليستفيد منها، ويعتبر في ما يقوم من أعمال البرّ والإحسان. يقول الشيخ المظفر: ـ

«... وقد أعطتنا التجارب أن الأعمال الكبيرة يجب لإنجاحها أن تقوم بها جماعة محدودة تدير دفّة العمل بتعاضد وتكاتف وتضحية على عكس ما هو مشهور لأن الشعور بالمسؤولية. وهذه نظرية اجتماعية نستطيع أن نلخصها بقولنا: إن عدد الجماعة يتناسب تناسباً عكسياً مع الشعور بالمسؤولية في الفرد»[1].

يضيف الشيخ المظفر، وهو بصدد وضع اليد على أسباب فشل (حركة الكلية). فيرى إضافة لما سبق «أن الدعوة كانت لعمل كبير جداً ليس من السهل تحقيقه مرة واحدة، مهما كان القائمون به، والتدرّج سنة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً»[2].

فلكي ينجح مثل هذا العمل ويؤتي ثماره، يرى الشيخ المظفر: أن «من الضروري أن يبدأ صغيراً، وينمو بمرور الزمن إذا تعوهد من رجال مخلصين بالسعي والجهاد المتواصل، ولو تحققت يومئذ هذه الفكرة لتغيّر مجرى تاريخ النجف إلى غير ما نشاهد اليوم، ولكانت علالي العلم سامقة دونها ناطحات السحاب»[3].

وفي ما يرى الشيخ المظفر ذلك، فإن مؤرخاً نجفياً عاصر الشيخ المظفّر، وشارك في الكثير من الدعوات الإصلاحية يرى: أن الشيخ المظفر الذي أصبح في ما بعد رئيساً للجمعية، وتحديداً سنة (١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م). لم يحقّق طموحه الإصلاحي لسببين:

١ ـ وجود المنافقين والبلداء من الرجعيين، الذين يشقّ عليهم ظهور فئة تحتل مكانة مرموقة في المجتمع.

---

(١) الأصفي: م. س، ١١٥.

(٢) و(٣) الأصفي: مدرسة النجف، ١١٥ ـ ١١٦، نقلاً عن مخطوطات المظفر.

٢ ـ عدم وجود النفر الجريء الذي يسانده مساندة حقّة.

ورغم ما واجهه مشروع منتدى النشر لفتح (كلية دينية)، ورغم قوّة الرأي العام النجفي الرافض لمشروع كهذا، فإن الشيخ المظفر «استمر يرمّم البناء الذي أشاده والذي حاول الهدّامون غير مرة القضاء عليه بصبرٍ وجلد، مع ضيق في العيش، وفقدان للضمان»[١]. وفي الرابع من شوّال عام ١٣٥٣ هـ/المصادف ١٠/كانون الثاني ١٩٣٥ م، استجابت وزارة الداخلية العراقية لطلب من بعض طلبة العلوم الدينية لتأسيس جمعية دينية بالنجف الأشرف باسم منتدى النشر[٢].

ويبدو أن (جمعية منتدى النشر) بعد حصولها على الترخيص الرسمي، قد أجّلت مشروع الكلية، لتتجه وجهة أخرى، ولمعالجة قضية أخرى هي غير قضية إصلاح النظام الدراسي، وإن كانت ترتبط به بنحو من الأنحاء. تلك القضية هي المدارس الحديثة التي يدخلها الطالب وهو ابن خمس ويخرج منها بعد أن يكون قد بلغ من العمر ما يقارب العشرين. وطوال تلك المدة يتلقى علومه وفق مناهج أملتها يد الغرب، مناهج مصاغة بروح العِداء للدين، والخروج على القيم الأخلاقية، والمثل الإنسانية التي فرضتها التعاليم الدينية. ولم يكن لدينا سوى الدراسة التي امتهنها بعض الكتاتيب بأساليب بالية لكأنّنا في القرون الوسطى.

وأمام هذا الواقع اختار البعض خطاً إصلاحياً سلبياً، يتمثل في مقاطعة تلك المدارس أو تحريم الانتماء إليها. وإعلان الرفض أمامها دون تقديم البديل الذي يمكن أن يلبّي بخطّه المستقيم ما تلبّيه تلك المدارس من طموحات، أو قلْ: حاجات أساسية كالتعليم.

بيد أن خيار الإصلاح السلبي يشبه إلى حدّ ما الوقوف بوجه تيار الماء الجارف عندما ينحرف عن خطّه الصحيح، فمع الافتراض بقدرة من يعاكس التيار على الصمود في وجهه من خلال الرفض، فإن غير المتوقع أن يقوى على موقفه الرافض فترة غير قصيرة، إذ لا يمر وقت طويل حتى تتداعى قواه ويضعف ثم

---

(١) الخاقاني: شعراء الغري، أو النجفيات، ٨/٤٥٤.

(٢) انظر: الآصفي: مدرسة النجف، ١٢٦. (نقلاً عن): نظام منتدى النشر.



طلاب كلية الفقه في قاعة الامتحان النهائي سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢

بعض مشاهد الامتحان في كلية الفقه .

ينهار بعد نفاد ما يختزنه من طاقة في مواجهة تيار جارف. . . !

وفي موازاة أصحاب الخط الإصلاحي السلبي، برز علماء دين في النجف الأشرف وفي البلاد التي تتصل بالنجف فكرياً، «يدعون إلى تهيئة الأجواء لمواكبة الأوضاع الاجتماعية وتخطيط الحياة الاجتماعية بالشكل الذي يملأ على المستعمِر أي فراغ من الفراغات الهائلة التي نعانيها في حياتنا الحاضرة»[١].

من هنا فقد شَهِدْنا في تلك الفترة عدة تجارب في مجال تأسيس مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية تلتزم بمناهج التربية. وتجاري مدارس الدولة إنْ بالشكل أو المضمون، في ذات الوقت الذي يضاف إلى مناهج التربية مناهج إسلامية ومحافِظة على قدر من التوجيه الإسلامي. وقد شهدت مثل تلك التجربة ـ بتأثير النجف ـ بلاد كلبنان وسوريا، وإيران.

ففي لبنان قام السيد/ عبد الحسين شرف الدين[٢]، بإنشاء (المدرسة الجعفرية) في مدينة صور، وفُتحت أبواب المدرسة للتعليم المجاني سنة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م[٣]. ومن ثم تطوّر المشروع برعاية السيد/ شرف الدين، وبمساندة مالية من رجال الأعمال حتى أثمر:

أ ـ الإعدادية الجعفرية للبنين:
ابتدائية، خارجية، مجانية.
ب ـ الإعدادية الجعفرية للبنات:
ابتدائية، خارجية، مجانية.
جـ ـ الكلية الجعفرية:
ابتدائية: خارجية، داخلية.

---

(١) الآصفي: مدرسة النجف، ١٠٣.

(٢) العلاّمة المصلح السيد عبد الحسين شرف الدين، وُلِد في مدينة (الكاظمية)، ببغداد سنة ١٢٩٠ هـ/١٨٧٣ م. تلقّى علومه الدينية في النجف، من مؤلفاته: المراجعات، مسائل فقهية، أبو هريرة شيخ المضيرة، النص والاجتهاد. توفي في بيروت ودُفن في النجف سنة ١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م. نعته جمعية منتدى النشر، وممّا جاء في النعي:
ـ تنعى (. . .) الذي كان وحده جيشاً مرابطاً في ثغور الإسلام.

(٣) قبيسي: حياة الإمام شرف الدين في سطور، ٨٨.

ثانوية: خارجية، داخلية.

د ـ روضة الأطفال:

تربوية: للبنين والبنات[١].

ولولا خشية الاستطراد لتحدثنا عن مشروع (الكلية الشرعية) ليكون شبيهاً بكلية الفقه في النجف، لكنه أوقِف العمل به ليقوم بدلاً عنه معهد (الكلية الجعفرية). وتلك من التجارب الإصلاحية الإسلامية الرائدة في لبنان والتي نتمنّى أن يُعْهَد إلى أصحاب التخصّص دراستها، حتى نتمكن من تصحيح خطواتنا في يومنا الحاضر والمستقبل على ضوء من تجارب الماضي.

وفي سوريا تعهد الدعوة الإصلاحية السيد محسن الأمين[٢] الذي ما إن غادر النجف إلى دمشق حتى كان ممّا رآه من أُمور بحاجة إلى إصلاح ـ كما يعبر هو نفسه ـ «الأمية والجهل المطبق، فقد وجدنا معظم الأطفال يبقون أميين بدون تعليم وبعضهم يتعلّمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم»[٣] فبدأ هو شخصياً بتعليم الأطفال ومن ثم أنشأ (المدرسة العلوية) بعد أن أخذ داراً عارية أقام فيها تلك المدرسة[٤]. واستمرت تلك المدارس وتطوّرت بفضل ما أوقف لها من محلّات ودكاكين، وهي اليوم تعرف باسم (المدرسة المُحسِنيَّة) وهي مخصّصة للبنين و(المدرسة العلوية) للبنات، واعترافاً بفضل مدارس السيد محسن الأمين، يقول أحد أدباء سوريا (عباس حامض الطحّان): «لو لم تكن المدرسة المحسنية لكنت طحّاناً رذيلاً»[٥].

«وفي إيران تبنّى الفكرة الشيخ عباس علي الإسلامي[٦]، ففتح المدارس

---

(١) قبيسي: حياة الإمام شرف الدين في سطور، ٨٨. (نقلاً عن): البيان السنوي للكلية الجعفرية سنة (١٣٧٨ هـ/١٩٥٨ م)، ص٢٧.

(٢) السيد محسن الأمين: وُلِد في قرية شقراء بجبل عامل سنة (١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م)، وتوفي سنة (١٣٧١ هـ/١٩٥٢ م)، ودُفِن بجوار مرقد زينب بنت علي بن أبي طالب (عليه السلام)، من مؤلفاته: موسوعة أعيان الشيعة، (١٢ مجلّد).

(٣) الإمام السيد محسن الأمين، سيرته بقلمه وأقلام آخرين، ١٠٧.

(٤) نفسه.

(٥) الأمين، حسن: حديث شخصي، في بيروت: ٢٧ شوال.

(٦) ١٤١٠ هـ/١٢/٥/١٩٩٠ م.

الإسلامية وقد لاقت هذه المدارس إقبالاً منقطع النظير من قبل النـاس، وانتشرت في المدن والقرى بصورة واسعة»[١].

أما في النجف (مصدر الفكرة)، فقد تمثل جهد (جمعية منتدى النشـر) في موضوع الإصلاح الإيجابي، بمحاولة تـأسيس المدارس على اختـلاف مراحلهـا، وكان في المادة الـرابعة من نـظام (الجمعية) مـا يسمح بـذلك، إذ تنص على أن «مقاصد المنتدىٰ تعميم الثقافة الإسلاميـة والعلمية والإصـلاح الاجتماعي بـواسطة النشر والتأليف والتعليم وغير ذلك من الطرق المشروعة»[٢].

يتابع الشيـخ الآصفي مرحلة التـأسيس وتطورهـا معتمداً في بعض معلومـاته على مخطوطات الشيخ المظفر (عميد الجمعية)، فيقول:[٣].

«وفي سنـة (١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م). تـأسّس صف لـدراسـة العلوم العــربيـة والمنطق والفقه والأدب العـربي وبعض الفروع الأخـرى، واستمر إلى آخـر السنة وكان نجاحه مشجّعاً لأن يفتح في السنة الدراسية (١٣٥٧ هـ ـ ١٣٥٨ هـ/١٩٣٨ ـ ١٩٣٩ م). ثـلاثة صفـوف وقد نجـح هذا المشـروع في تلك السنة وبلغ طـلّابـه (١٥٠) طالباً، وحصل في خلال السنـة اعتراف من وزارة المعـارف العراقيـة وهو أول اعتراف تعطيه الوزارة لمدرسة دينية، واعتبر هذا من بشائر النجاح للمشروع، غيـر أن وزارة المعارف بعـد خمسة أشهـر من الاعتراف عَـدَلت فألغت اعتـرافهـا فَأَحْدَث هذا الإلغاء رجّـة عنيفة في الأوسـاط الدينيـة في النجف، وكاد أن يقضي هذا الإلغاء على مشروع الدراسة لولا أنهم حصلوا على الاعتراف ثانياً بعد سنة.

وقد تمَّ له ـ للشيخ المظفـر ـ في سنة (١٣٦٤ هـ/١٩٤٤ م) بقـوة الاستمرار أن يفتتح أربعة صفوف باعتبارها قسماً متوسطاً للعلوم الدينيـة مع صف تحضيـري قبلها. وفي سنة ١٣٥٧/١٩٣٨ م. حاول برغبة جماعة من أعيان مـدينة البصـرة، أن يفتح فرعاً له هناك وفشلت المحاولة لأسباب محلية.

---

(١) لم أفلح في العثور على ترجمته.

(٢) الآصفي: مدرسة النجف، ١٠٤.

(٣) نفسـه، نقلاً عن: نـظام جمعية منتـدىٰ النشر، ١٣٧٠ هـ، ص٢٣. الآصفي: م. س، ١٠٦ ـ ١٠٨

وفي سنة (١٣٦١/١٩٤٢ م). قدّم جماعة من وجوه مدينة الكاظمية ببغداد طلباً بفتح مدرسة ابتدائية دينية باسم مدرسة (منتدىٰ النشر)، واستصدرت من وزارة المعارف إجازة فتح مدرسة، وقد نجح هذا الفرع نجاحاً باهراً، ولهذا الفرع قسمان: نهاري ومسائي، وكل منهما في ستة صفوف.

وفي سنة (١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م). قدّم جماعة من وجوه مدينة الحلّة، وبعض علماء الدين فيها طلباً بتأسيس فرع لمدرسة عالية للعلوم الدينية في بلدة الحلة، فسعت الجمعية في تحقيق هذه الفكرة، غير أن معارضة محلية غير منتظرة شوشت على القائمين بالعمل.

وفي سنة (١٤٦٣ هـ/١٩٤٤ م). نشأت فكرة تأسيس مدرسة ابتدائية دينية بالنجف لتزود المدرسة المتوسطة بمتخرّجيها، وأُنشئت فعلاً، ولا تزال هذه المدرسة حتى اليوم. بيد أن الدولة وضعت اليد عليها عند تأميم التعليم الأهلي عام (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠ م).

وقد عملت منتدىٰ النشر على تقديم اقتراح لوزارة المعارف لفتح إعدادية إسلامية تعد الطالب للدراسات الإسلامية والعلوم العربية، وقامت بتأسيس هذا الفرع في بنايتها الخاصة واعترفت بها وزارة التربية والتعليم.

وهكذا يصبح لمنتدىٰ النشر مدارس أربع: ابتدائية متوسطة وإعدادية وثانوية، وكيلة . . .] .

* * *

ويتحدث الأستاذ البهادلي عن مدرسة مبكرة أخرى هي:

مدرسة كاشف الغطاء:

لعل ما يميز النهضة الإصلاحية التي قام بها الإمام المصلح الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء عن بقية الدعوات الإصلاحية ـ خاصة تلك التي سبقتها ـ أنها صادرة من مجتهد مقلَّد، يعرف الجميع نزاهته من جهة، وحرصه على استمرار الحوزة العلمية وتطورها من جهة أخرى.

من هنا فإن ما يمكن أن نطلق عليه (نهضة الشيخ كاشف الغطاء)، التي تمثلت في مدرسة أقيمت سنة ١٣٤٩ ـ ١٩٣١ . . . بملاحظة ما تقدم من وصف يرتبط بشخصية الشيخ رحمه الله. ولندوّن البنود الإصلاحية كما أوردها:

١ ـ وضعه منهاج عام للدروس والكتب التي يفترض درسها وتعليمها في المدرسة.

ب ـ تقسيم التعليم بها إلى أولي :المقدمات.

وثانوي: يكمل به اللازم من علوم المقدمات مع قسم لدروس العلوم التي يراد التخصّص بها، وإلى عالٍ: للاختصاص بالمطلوب، مع تحديد الوقت لكل قسم، ولكل عام، ولكل مدرس بتحديد ما لكل قسم وعلم من السنين.

٣ ـ اختيار الأساتذة الأكفاء، وتعيين كل منهم لتدريس العلم الذي يمتاز به، والكتاب ـ من الكتب المقررة للدرس ـ الذي يقوى على شرح غوامضه، ويحسن تقريب مسائله إلى ذهن الطالب.

٤ ـ إعداد لجان فاحصة لامتحان الطالب عند كل مناسبة، وفي رأس كل سنة.

٥ ـ تبديل الكتب الدراسية أو تعديلها بتصحيح الأخطاء أو حذف الزائد ـ وإتمام النواقص ـ وتوضيح المغلق، وتقويم المعوج، وترتيب المشوّش، ثم تقسيمها على حسب عقلية التلامذة، وعلى حسب مراتبهم العلمية، لتتضح بذلك السبل أمام الطالب، وتقرب النتائج ويتوفر عليه من الوقت والنفقة ما يزيد في نشاطه وطموحه إلى أن يتثقف ثقافة عالية تيسر له بعد الاختصاص بما يختصّ به من علوم الدين أن يتذوّق الحياة، ويتذوّق الدين بدون مشقّة.

٦ ـ وضع بيان ضافٍ في رأس كل سنة مدرسية للداخل على صندوق المدرسة من الواردات والأموال مع تفصيل مصادرها وطرق استيرادها بوضوح يليه بيان للخارج من النفقات وطرق إنفاقها والتصرّف بها.

٧ ـ إنشاء إدارة خاصة للأوقاف الخيرية العامة في العراق وغيرها من الأمصار الشيعية[١] واحتكار ريعها للجامعة وفروعها.

٨ ـ الاقتصار على الطلاب الممتازين بحسن سلوكهم، وسمو فطرتهم، واحترامهم بواجبهم[٢] العلمي والثقافي من بحث ودرس وتمحيص وتدوين ليكونوا نموذجاً يُحتذى وعنواناً صالحاً للتطور في التدريس، يجعل للمدرسة سيرتها الحسنة بين الناس، وأثرها الطيب في الأوساط العلمية والإسلامية.

٩ ـ فتح ناد للمطالعة واختيار كتب خاصة من كل علم، وكلِّ فنّ، ثم إفرازها للدرس والمطالعة على حسب درجات الطالب.

١٠ ـ تأسيس ندوة للخطابات والمحاضرات العلمية والأدبية في كل أسبوع، أو في كل شهر، يتبارى بها الأساتذة والطلاب (اللامعون)[٣] في المدرسة ويُدعى لها قادة الفكر من العلماء والأدباء (والفلاسفة) الذين يؤمّون العراق والنجف، لما

---

(١) إنّما حَصَر الشيخ كاشف الغطاء الأوقاف في حدود الأمصار الشيعية، لا من باب النظرة الطائفيّة الضيِّقة وإنّما لأن الأوقاف لدى غير الشيعة هي بِيَد الدولة. بينما لا شأن للدولة ولا سلطة لها على كافة الأوقاف الشيعية في كل بلد. . . !

(٢) لا أدري لماذا دخلت الباء هنا على كلمة (واجبهم)، مع أن السليقة ترى اللام بدلاً عنها.

(٣) في الأصل وردت (اللامعين)، ويبدو أن الأقرب للصواب هو حالة الرفع، لأن اللامعين صفة للطلاّب، التي جاءت مرفوعة، والصفة تتبع الموصوف إعراباً.

في ذلك من التنوير للأفكار، والإشراف بها على مختلف المناحي العلمية والأدبية، ومن شحذ الهمم لممارسة كل طريف في العلوم والآداب.

١١ ـ إنشاء مجلة لتحرير الأفكار العلمية والدينية وتعميم ما يقرّه منطق العلم والدين والحياة الحرّة، ويفرض الإخلاص والتجرّد لمحض الحق والخير والمثل الإسلامية.

١٢ ـ أن تُتَبادل الزيارات والبعثات العلمية بين مدرستيْ النجف والأزهر تمهيداً لتوحيد مناهج التعليم وأساليب التدريس في كلا المدرستين، وتأليفاً بين الأذواق والأفكار والاتجاهات من كلتا الطائفتين.

١٣ ـ تعديل مناهج التعليم القديم بإدخال بعض الدروس والعلوم التي يضطر الطالب إلى الإلمام بمسائلها وقواعدها العامة، لتحرير جانب من فروع الفقه، وقضايا الدين، والتي هي ضرورية لكل من يريد أن يتثقّف بثقافة عالية: كعلم النفس، والاجتماع، والأخلاق بأصوله، والحساب وعلم الجغرافيا والتاريخ، بما فيه الأديان والمذاهب، وتاريخ الإسلام، وتاريخ أدب اللغة العربية.

ولقد عمل الشيخ كاشف الغطاء على تنفيذ تلك البنود من خلال مدرسة حملت اسمه، إذ تمَّ «تأهيلها بكل ما تسمح به ظروف النجف، وظروفه الخاصة، وتبرع لها بمكتبته الكبرى والتي تشتمل على أندر المخطوطات، وأنفس الكتب العلمية والأدبية».

* * *

ويتابع الأستاذ علي البهادلي عرضه للمدارس الجديدة، ومنها:

مدرسة الجزائري[1] (مدرسة النجف الدينية):

يبدو أن الاحتكاك بالرأي الآخر وبالثقافة المتجدّدة المنوعة، من أهمّ العوامل المساعدة على تولد الفكر الإصلاحي، إضافة إلى المعاناة التي يستشعرها المُصلِح بنفسه، أو من خلال إحساسه بمعاناة غيره.

وفي ضوء هاتين النقطتين يمكن أن ندرس كيفية نشوء فكرة مدرسة الجزائري. فالشيخ الجزائري هو أحد طلّاب الحوزة العلمية في النجف، وقد عانى ما عاناه أيام دراسته في الحلقات الدراسية في النجف الأشرف، من انعدام التخطيط، ومن عقم بعض مناهج الدراسة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فهو من المتابعين للنشاطات الثقافية المتجدّدة خارج العراق، حيث يظل محسوباً في عداد النجفيين الذين يتابعون كتابات أعلام رجال الفكر والحركات في العالم. ويتبادل معهم الأفكار أثناء لقائه بهم خلال رحلاته المتكررة إلى لبنان، وسوريا، وبعض البلدان الإسلامية.

---

(١) المقصود بالجزائري هنا، هو سماحة الشيخ عزّ الدين نجل المجاهد الشيخ محمد جواد الجزائري، وُلِدَ في النجف سنة (١٣٤٢ هـ/١٩٢٤ م). وتلقّى علومه فيها حتى حصل على إجازة عالِم من عمّه الشيخ عبد الكريم الجزائري، وحصل على إجازة رواية من السيد/عبد الحسين شرف الدين، بالإضافة لذلك فهو حاصل على (دبلوم) في الهندسة المدنية، ودبلوم هندسة التجميل (الديكور) ودبلوم في العلوم التجارية، مارس لوقت طويل تدريس مادتيْ الفقه وأصول الفقه في حوزة النجف.
من مؤلفاته: ١ ـ التعاريف النحوية.
٢ ـ أصول الفقه.
٣ ـ شرح الصحيفة السجادية.
٤ ـ شرع دعاء كميل.
انظر ترجمته في: الأميني: معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام، ١٠٣.
العنيسي: تاريخ بني أسد من الجاهلية حتى الحاضر، ١٩ وما بعدها، البهادلي: الإمام المجاهد الشيخ الجزائري، مجلة الموسم الهند ع/٨، مجلد/٢، ١٤١١ هـ/١٩٩٠ م.

وإذا ما أضفنا لذلك كله ملازمته لنادي والده الشيخ محمد جواد الجزائري المتوفى (١٣٧٨ هـ/١٩٥٩ م) وعمّه الشيخ عبد الكريم الجزائري المتوفى (١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م)، حيث ساهم هذان العَلَمان في الصراع الفكري والحوار العلمي والثقافي الذي كان حادّاً في تلك الفترة بحيث عاد ناديهما ملتقى لبعض أطراف الصراع، لبعض توجهاتهم وأفكارهم.

بدأ الشيخ عزّ الدين الجزائري بطرح فكرة تنظيم وتحديث الوضع الدراسي والاقتصادي والإعلامي للحوزة العلمية في النجف وللحواضر العلمية المسايرة لها. وشكّل نواة من تلامذته وبعض أصدقائه للقيام بالتبشير للفكرة وتحقيقها على مراحل. وذلك في حدود سنة (١٣٦٥ هـ/١٩٤٥ م). ووالى عقد اجتماع النواة وتبرعاتها في جلسات أسبوعية دورية، وتنشيطها الفكري في محاضرات ومقالات خاصة لدفع أعضاء النواة نحو الدور القيادي للتحرّك، وكانت كلمة المؤسّس في الجلسة الأولى (النواة) بعنوان:

«وثبة الشباب الروحي لإعادة كيانه من جديد».

وفي العام نفسه توقّف نشاط المؤسّس بسبب مرضه واضطراره لمغادرة النجف للعلاج وعاد إليها في حدود سنة (١٣٦٧ هـ/١٩٤٧ م)، حيث عاد إلى ما بدأه قبل سنتين، فعارض الخط اللامنهجي الذي كانت تسير عليه الدراسة والإدارة في الحوزة النجفية وواصل المعارضة بصلابة، ولكن بطريقة إيجابية - بمعنى أنه لم يحاول قطع ما بينه وبين مَن نسميهم خصومه تجاوزاً كما لم يلجأ للنيل أو التشهير بخصومه -، فطرح فكرته من جديد، وهي الفكرة القائمة على تنظيم وتحديث الوضع الإداري والدراسي والاقتصادي والإعلامي للمرجعية العامة، وللهيئة العلمية في النجف والحواضر المسايرة لها. وشملت الفكرة الخطوط التالية:

١ - توحيد الإدارة العامة (المرجعية) مع عدم المسّ بمبدأ فتح باب الاجتهاد.

٢ - ضبط الاقتصاد الشرعي لجهاز المرجعية الأولى العليا، والأمة، إيراداً وصرفاً.

٣ ـ تنظيم الدراسة.
٤ ـ التوعية والإعلام والتبليغ العام.

وأسّس (مدرسة الجزائري ـ مدرسة النجف الدينية)، بتاريخ ١٤/٥/١٣٧٧ هـ/١٢/٨/١٩٥٧ م لتدريس علوم الشريعة، والعلوم العربية دراسة منهجية، وهي محاولة لتجربة مرحلة من نظريته الإصلاحية. ضمّت طلّاباً غالبيتهم من العرب، فقد كانوا في كثرتهم من العراقيين واللبنانيين ومن بعض دول الخليج.

وكانت المدرسة قد خصّصت:
١ ـ يوماً في الأسبوع لتدريب الطلّاب على الخطابة.
٢ ـ جوائز للفائزين الأُوَل من الطلّاب في الامتحانات.
٣ ـ نشرات طالبية جدارية أسبوعية لتنمية مواهب الطلّاب الأدبية.

ولم تكتفِ المدرسة بذلك بل أصدرت مجلة (الذكرى)[1]، وصدر منها قبل أن تتوقف عشرة أعداد.

وبعد توقّف (الذكرى) أصدرت المدرسة مجلة (رسالة النجف)، التي صدر العدد الأول منها سنة (١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م). وتوقفت بعد صدور العدد الثالث[2].

هذا موجز، سريع عن (مدرسة الجزائري ـ مدرسة النجف الدينية)، يحق لنا بعده أن نتساءل عن موقف التقليديّين في الحوزة من هذه المدرسة، ومن ثَمَّ موقف السلطة منها أيضاً؟

فأما ما يتعلق بالشق الأول من السؤال عن موقف التقليديين من هذه المدرسة فإنها حوربت شأنها شأن الطروحات الإصلاحية المماثلة، وألصِقت

(١) انظر الملحق رقم (١٠) ص٣٣٨ صورة غلاف مجلّة الذكرى السنة الأولى، العدد الأول
(٢) كافة ما دوّناه عن مدرسة الجزائري اعتمدنا فيه على معلومات شفهية من مؤسّسها (الشيخ عز الدين الجزائري) الذي يُدلي لأول مرّة عن مدرسته بهذه المعلومات.
لقاءات شخصية متعددة في بيروت خلال عام (١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م).

بمؤسّسها بعض الاتهامات. إلاّ أن المؤسّس اختار الإصلاح الإيجابي. ولم يرد على كل اتهام، بل ظلّ يعمل بإصرار، دون أن يلتفت إلى ما يقال ويُحكى عنه، وعن مشروعه، كما أن التيار التقليدي استطاع أن يُقنع بعض أساتذة تلك المدرسة بترك التدريس فيها بالترغيب مرةً، وبالترهيب مرة أخرى. لا نقول إن التيار التقليدي لم ينجح في القضاء على المدرسة، فالمؤكّد أن ذلك التيار ـ وإن كان لم يحقق ذلك ـ استطاع تحجيم دورها، ووقف انتشار أفكارها.

أما السلطة، فالمدرسة تأسّست في الأشهر الأخيرة من الحُكم المَلَكي في العراق، ولذا فليس هناك ما يُذكر من احتكاك بين المدرسة والسلطة ـ عصرئذ ـ وما إن جاء الحكم الجمهوري وراح يغازل المدارس الدينية في النجف، حتى وُضعت تلك المدرسة في عداد من يبتغي الحكم مدّ الجسور بينه وبينها. «بيد أن المؤسّس كان يصرّ على ضرورة إبعاد المدرسة عن السلطة ما استطاع، حتى أنه رفض عرضاً بزيارة رئيس الجمهوريّة ـ عصرئذ ـ من قبل مؤسس المدارس الدينية في النجف، حيث سيقدم الرئيس منحة مالية في حدود ثلاثة آلاف دينار عراقي لكل مدرسة ممّن تشارك في الزيارة، فرفض رفضاً قاطعاً، رغم حاجة المدرسة الماسّة للمال، وفضل بَيْع قطعتي أرض في أرقى أحياء النجف (حيّ السعد) للصرف على المدرسة، على أن يكون في عداد زوّار رئيس الجمهورية»[1].

***

ويحدثنا الأستاذ/ علي البهادلي في رسالته الجامعية (الحوزة العلمية في النجف) عن مؤسسة أخرى ذات مميزات خاصة، عرضها بهذا النحو: ـ

---

(١) الجزائري: حديث شخصي في بيروت خلال عام (١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م). ويذكر الشيخ الجزائري أن وفد مؤسِّسي المدارس قد زار الرئيس فعلاً، وحصل على المكافأة المطلوبة، لكنّ (تلفزيون) العاصمة عرض صورة الرئيس مجتمعاً إلى الوفد، دون صوتٍ للمجتمعين، بينما كان المذيع يصوّر وكأنّ الوفد جاء لمباركة خطوات الرئيس وثورته...!

جامعة النجف الدينية:

على الطريق العام بين مدينتي النجف والكوفة وتحديداً في ضاحية (حيّ السعد)، يطل مبنى كبير، أقيم على الطراز الإسلامي في البناء والعمارة. حتى لكأنك ـ وأنت إزاءه ـ أمام مدارس العباسيّين، وحيث يمتزج الماضي والحاضر في هذا البناء الشامخ، تقترب منه. . . تتمعن بالكلمات الثلاث، التي نُقِشت (بخط الثلث) فتعرف أنها:

جامعة النجف الدينية

هذه الجامعة هي ـ منذ أن أُسّست وحتى اليوم[١] ـ أفخم مدرسة دينية بُنِيت في تاريخ النجف. . . رَصَدَ لها رجل الأعمال الإيراني الحاج محمد تقي اتّفاق، مبلغاً ضخماً عام (١٣٧٦ هـ/١٩٥٦ م). من ماله الخاص ـ لا من الخمس والحقوق الشرعية ـ واشتُرِيت لها أرض في منطقة (حيّ السعد)، إحدى أرقى ضواحي مدينة النجف، وتولّى أمر عمادتها منذ أن أُسّست حتى اليوم[٢] السيد محمد كلانتر[٣]، الذي يقول «إن تأسيس (جامعة النجف الدينية) لم يكن بالأمر الهيّن لمن أراد إتقانه، وَوَضْع مناهجها الدراسية الملائمة للوقت لم يكن بأسهل من تأسيسها لمن أراد احكامها، لذا فقد استوعب هذا جلّ أوقاتي واستهلك أكثر طاقاتي[٤].

---

(١) ٢٩ ذو القعدة ١٤١١ هـ/١٢ حزيران ١٩٩١ م.

(٢) التاريخ نفسه.

(٣) للاستزادة انظر: محبوبة: ماضي النجف وحاضرها، ١/١٤٦.
الخليلي: موسوعة العتبات المقدسة، ٧/١٦٢ وما بعدها.

(٤) كلانتر: مقدمة (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية) للشهيدين الأول والثاني، ١٧.

تُؤَمِّن هذه المؤسسة التعليمية للطالب الملتحِق بها السكن المجاني، وتمنحه راتباً شهرياً يسير طرداً مع تطوّره الدراسي، والمرحلة التي وصل إليها. أمّا منهاجها الدراسي فلم يكن مختلفاً عن المنهاج الدراسي للحوزة العلمية في النجف، مع فرق في ضبط الحضور والغياب، ونظام للامتحانات، وتدريب على الخطابة. ومع ذلك كلّه فقد ظلّت هذه الجامعة نائية عن السلطة، والسلطة نائية عنها، بفضل إيمان عميدها بضرورة ابتعاد مثل تلك المؤسسات عن السلطة حتى لا يكون لها السبيل عليها، إن بالتوجيه، أو بإدخال بعض المناهج، أو بالتأميم والهيمنة الكاملة كما حصل لغيرها من المؤسسات التعليمية. ومن هنا فقد كان هذا المشروع مباركاً من مراجع الدين في النجف.

ولمّا كان ظهور هذه الجامعة في الوسط الحوزوي في وقت انتشار الأفكار الإصلاحية ونضوج الدعوات إليها، ولمّا كانت الجامعة قد نالت موافقة مراجع الدين الكبار في النجف؛ فقد شهدنا إقبالاً جيداً على الانتساب إليها. وتوزّعت جنسيات الطلاب المنتمين إليها، كما توزعت وتعددت جنسيات طلاب الحوزة[١]، إذ نشهد في الحوزة العلمية الطالب الهندي، والباكستاني والأفغاني، والإيراني، كما نشهد الطالب العربي، لكن غالبية الطلاّب في هذه الجامعة كانت تحمل الجنسية الإيرانية واللبنانية[٢].

لم يكن شرط القبول فيها لِيَختلف كثيراً عمّا هو متّبع في الحوزة العلمية سوى تزكية يتحتم على الطالب إحضارها من أحد علماء النجف، إضافة إلى أوراقه الثبوتية، ومستوى معيَّن من الثقافة العامة، والتي يستطيع من خلالها تقبّل الدراسات في هذه الجامعة.

(١) من المفيد أن أشير هنا، إلى أن فارق الجنسية يكاد يكون معدوماً في كل مفردات التعامل في الحوزة العلميَّة في النجف، ويبقى المعيار الأساس هو اجتهاد الطالب ونبوغه ومعارفه.

(٢) ممّن كان المؤلِّف يشاهدهم في باحة جامعة النجف الدينية طلاباً من الإخوة اللبنانيّين:
ـ الشيخ صبحي الطفيلي، السيد إبراهيم أمين، الشيخ حسن المصري، الشيخ حسن عبد الساتر، الشيخ علي العفّي، الشيخ يوسف عبد الساتر.

وعلى الرّغم من النهج التقليدي الذي انتهجته (جامعة النجف الدينية)، فإنها أَوْلَتْ موضوع تجديد الكتب الدراسية الحوزوية اهتماماً ملحوظاً، يقول عميد هذه الجامعة:

«... قد كان يراودني منذ أمد طويل: أن الكتب الدراسية في أوساطنا العلمية بحاجة ملحّة إلى تجديد في التنسيق، وعناية في الطباعة، واهتمام في الإخراج (...) مع أننا نرى في الآونة الأخيرة كثيراً من الجامعات العلمية، قامت بتجديد طبعات الكتب الدراسية التي يتناولها طلاّبها بالدرس، فأعانهم على الإقبال على مطالعتها بلا ملل، ولا سأم، فكان يحزّ في نفسي أكثر من ذي قبل ـ غبطة لا حسداً ـ ان كتبنا الدراسية لم يُقَدَّر لها مثل هذا الاهتمام، ومثل تلك العناية من قِبَل ذوي الاختصاص في هذا المضمار»[١].

وقد قامت الجامعة بمهمة إعادة النظر في بعض الكتب التراثية التي تُدرّس في الحوزة العلمية بالنجف، وقد تمّ بالفعل تحقيق كتاب «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية»[٢]، إذ يلتقي الباحث في هذا الكتاب «بمصدر خصب من مصادر الفقه الإسلامي، بتعبير وافٍ، وأدب رفيع»[٣]. وصدرت طبعته المحقّقة الأولى سنة (١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م). في عشرة مجلدات، صدرت تباعاً، ووزّعت الجامعة قسطاً وافراً من نسخ هذا الكتاب ـ مجاناً ـ على كثير من أصحاب المذاهب الأُخرى خدمة للدين، وإعلاء لكلمة الحق حيث تعتقد عمادة (جامعة النجف الدينية) أن (الروضة البهية) «خير كتاب يمثّل الفقه الجعفري»[٤].

وبعد إصدار (الروضة البهية)، أصدرت الجامعة الكتاب الفقهي. الموسوم بـ(المكاسب)، للشيخ مرتضى الأنصاري، في أربعة أجزاء محقّقة.

---

(١) كلانتر: مقدمة كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ٩ ـ ١٥.

(٢) انظر الملحق رقم (٧): صورة عن الصفحة الأولى من هذا الكتاب بطبعته الحجرية وأخرى بطبعته المحقّقة. ص٤٣٣.

(٣) كلانتر: مقدمة كتاب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، ـ ١٥.

وبالإضافة لذلك كلّه فقد أصدرت مجلة إسلامية شهرية، غنية بما تحتوي عليه من موضوعات ودراسات حملت اسم (دراسات إسلامية)[١]. وما إن صدرت منها عدة أعداد حتى توقفت عن الصدور لأسباب لم نستطع الوقوف عليها.

وقبل أن نقول شيئاً في هذه التجربة الإصلاحية نشير إلى أسماء بعض أساتذة هذه الجامعة وهم:

ـ الشيخ محمد تقى الجواهري «فرّج الله عنه».

ـ الشيخ محمد هادي معرفة.

ـ السيِّد محمد كلانتر.

ـ الشيخ مسلم السرابي.

ـ الشيخ محمد إسحاق فيّاض.

ـ الشيخ إبراهيم الجنّاتي.

ـ الشيخ أحمد البهادلي.

إن تجربة (جامعة النجف الدينية)، تجربة ناضجة إذا ما قيست بمقاييس التطوير في نطاق الحوزة العلمية فقط، حيث استطاعت هذه الجامعة تخريج مجموعة طلّاب بمستوى علمي جيّد، ومع عناصر التجديد في مناهجها وطرائق التدريس فيها؛ إلّا أن معظم متخرجيها حافظوا على رسالتهم الحوزوية، فواصل بعضُهم دراسته على مستوى (بحوث الاجتهاد)، في ما توجّه آخرون لتولّي مهمة الإرشاد والتبليغ والوعظ، في القرى والمدن المختلفة، لا في العراق وحده، بل وفي أفغانستان. وباكستان وإيران وسوريا ولبنان.

---

(١) انظر الملحق رقم (٨) صورة غلاف أحد أعداد مجلة (دراسات إسلامية)، مع صفحة محتويات العدد. ص٤٣٥.

وكما قلنا سابقاً: فإن عدم مساس هذه الجامعة مقام المرجعية نقداً وملاحظات، وعدم إقامة أي علاقة لها مع السلطة، مكّناها من أن تؤدي مهمتها، وتسير في طريقها دون ما عقبات وصعوبات تذكر، خاصة وأن لها مورداً مالياً ضخماً. تركه متبرعها بعد وفاته يتمثل في مجموعة عقارات ومشاريع تجارية، وقفاً على (جامعة النجف الدينية)، يتصرّف فيه عميدها (السيد الكلانتر)، ومن بعده «المعمَّم من أولاده»، والأكبر سناً.

مدرسة العلوم الإسلامية[1]:

إن مدرسة العلوم الإسلامية ـ تأسست في النجف سنة (١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م)، برعاية مرجع المسلمين الشيعة عصر ذاك: السيد محسن الحكيم ـ كانت تعبيراً عن نزعة إصلاحية في الحوزة العلمية في النجف، وكان الهدف من تأسيسها تحقيق أمرين على غاية كبيرة من الأهمية هما:

ـ تجديد في مناهج التدريس في الحوزة، وتطويرها بما ينسجم مع متطلبات الأوضاع الفكرية والبيئية الجديدة في العراق بشكل خاص، والعالم بشكل عام.

ـ خلق جيل من العلماء الشباب الواعين، الذين يتحمّلون مسؤولية التبليغ للإسلام في العراق وخارجه، ويساهمون في التحرّك السياسي الذي تقوده المرجعيّة.

وتحقيقاً لهذين الهَدَفَيْن فقد أُدخِلت بعض المواد الجديدة للتدريس في هذه المدرسة كعِلْم الاقتصاد (اقتصادنا)، والفلسفة (فلسفتنا)، وعلوم القرآن (البيان

---

(١) اعتمدنا في دراستنا عن هذه المدرسة على إجابتين للسيِّد محمد باقر الحكيم ـ نجل مؤسّسها المرحوم السيّد محسن الحكيم ـ، المقيم حالياً بطهران، الذي أجاب عن أسئلة المؤلف برسالة مؤرَّخة: ١٧ شعبان ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م. وأخرى مؤرَّخة ٢٧ ذو الحجة ١٤١٠ هـ/٢٠ تموز ١٩٩٠ م.

في تفسير القرآن للإمام الخوئي)، بالإضافة للعلوم التقليدية: كالفقه، والمنطق، واللغة العربية والأصول.

ولعلّ ضرورة تسلسل الأفكار تدعونا إلى الحديث عن كيفية تبلور فكرة هذه المدرسة في ذهن المرجع الديني الإمام الحكيم؟

يكاد يجمع أكثرمن كتبوا عن هذه المدرسة على أنها «من مقترحات السيد محمد باقر الصدر، فهو الذي أقنع الإمام الحكيم بضرورة تنظيم الدراسة بهذا الشكل، وكان له الدور الكبير في إدارتها وتوجيهها، فمعظم أساتذتها هم من تلامذة السيد الصدر، وأغلب مناهجها الفكرية والثقافية من كتبه كـ (المدرسة الإسلامية) و (فلسفتنا)، و (اقتصادنا)»[1].

ولعلّ سائلاً يطلب تفسيراً لالتجاء السيد الصدر للإمام الحكيم، لكي يحقّق له مشروعه الإصلاحي هذا دون أن يُقْدِم هو نفسه لتنفيذ هذا المشروع مباشرة؟

إن السيد الصدر وقت التفكير بالمشروع هذا، لم يكن قد تَقَلّد زمام المرجعية الدينية، ولذا كان مضطراً أن يتحرك من خلال غيره من المراجع الكبار، حتى يضمن الدعم المرجعي للمشروع، بما يشمل من دعم مادي أيضاً يتطلبه كل مشروع ـ كهذا ـ ليُضمن له البقاء والاستمرار والعطاء.

على أن هناك من يقول إن السيد الصدر لم يفاتِح الإمام الحكيم بموضوع هذه المدرسة، بل إن السيد الصدر طرح الفكرة على نجلَي الإمام الحكيم: السيد محمد مهدي[2]، والسيد محمد باقر، وهما أقنعا والدهما بالفكرة، إذ لو

---

(١) القبانجي: الجهاد السياسي للإمام الصدر، ٢٤.
وقد أكّد المعنى نفسه (الموظف الإداري) للمدرسة منذ تأسيسها حتى إغلاقها الشيخ حسن ملك، وذلك في حواري معه عن (مدرسة العلوم الإسلامية) في بيروت يوم السبت ١٨ صفر ١٤١١ هـ/٨ أيلول ١٩٩١ م.

(٢) اغتيل في فندق (هيلتون) بالسودان عام (١٤٠٨ هـ/١٩٨٩ م) أثناء تلبيته دعوى حسن الترابي بحضور مؤتمر...

كان السيد الصدر هو المتصدّي للفكرة عَلَناً، لماتت الفكرة ولم يُقدّر لها أن ترى النور[١].

وسواء أكان السيد الصدر هو مَن فاتح الحكيم مباشرة، أو بواسطة نجليْه؛ فإن من المؤكد أن للسيد الصدر أياديه البيضاء في مشروع هذه المدرسة «سواء في وقوفه داعماً المدرسة، أو إيعازه إلى أفاضل تلامذته للتدريس فيها إدراكاً منه بأهمية مشروع كهذا»[٢].

أما نظامها الدراسي ومناهجها، فقد جُعِلَت (مدرسة العلوم الإسلامية) الدّراسة، فيها على سنوات خمس، يدرس الطالب في كل سنة من هذه السنين الكتب الدراسية الحوزوية التقليدية في الفقه والأصول واللغة العربية، مضافاً إليها بعض الدروس التي ارتأت المدرسة ضرورة إلمام المبلِّغ بها في مهمة الوعظ والإرشاد.

ففي السنة الأولى: أضيفت إلى العلوم التقليديّة مادة (المدرسة الإسلامية) من تأليف السيد الصدر[٣]، حيث تحتوي المادة على دراسة (الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية). وفي السنة الأولى أيضاً تدرس بعض خطب الإمام علي (عليه السلام) من (نهج البلاغة)، ويُترك للأستاذ اختيار الخُطب التي يراها، خاصة تلك التي تحتوي على بيان بعض العقائد الإسلامية، وما تحقّقه دراسة خطب (النهج) من جهة أخرى في تقويم سليقة الطالب الخطابية والبلاغية.

وفي السنة الثانية أضيفت مادة (الأخلاق)، حيث يُترَك أمر دراستها، كما في الحوزة على جهد الطالب نفسه. إضافة إلى الجزء الثاني من (المدرسة الإسلامية). وهو بعنوان (ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي)؟، وهذه المادة تهيّىء الطالب لدراسة كتاب (اقتصادنا) في السنة اللاحقة.

---

(١) مضمون حوار مع الشيخ حسن ملك (إداريّ المدرسة) في بيروت، السبت ١٨ صفر ١٤١١ هـ/٨ أيلول ١٩٩٠ م.

(٢) الحكيم: جواب خطي، مؤرخ ١٧/شعبان ١٤٠٩ هـ.

(٣) طُبع هذا الكتاب عدّة طبعات، وفي أكثر من بلد. ففي لبنان طبعته دار الزهراء خمس مرّات، كان آخرها سنة (١٤٠٥ هـ/١٩٨٥ م).

أما السنة الثالثة، فمن المواد التي تدرس بمدرسة العلوم الإسلامية، ولم تكن مألوفة للدراسة في الحوزة، فهي (اقتصادنا)، كما سبقت الإشارة لذلك، وكذلك مادة (علوم القرآن) من خلال كتاب الإمام أبي القاسم الموسوي الخوئي: (البيان في تفسير القرآن).

وفي السَّنة الرابعة، وإلى جنب المواد الحوزوية التقليديّة يدرس كتاب فلسفتنا ضمن مادة (الفلسفة الإسلامية)[(١)].

ولمّا كان من أهم أهداف مشروع (مدرسة العلوم الإسلامية) هو تخريج مجموعة من الطلبة القادرين على ممارسة التبليغ والإرشاد في صفوف الأمّة، وهم يحملون الزاد الثقافي العقدي والروحي الذي يرشّحهم بجدارة لأداء هذه المهمة، فقد ارتأى القائمون على أمر المدرسة إقامة ندوة أسبوعية ـ اختير لها صباح يوم الاثنين من كل أسبوع موعداً ـ يساهم فيها طلاب وأساتذة المدرسة بكلمات وأبحاث وقصائد شعرية، ويلزم كل طالب بالمساهمة في مثل هذه الندوات سواء بكلمة، أو بإدارة الندوة، وقد أوكل أمر الإشراف على هذه الندوات بشكل دائم للسيد كاظم الحائري، أحد أساتذة المدرسة.

ومثل تلك الندوات تُسهِم ـ دون شكّ ـ في رفع قدرة الطالب على الخطابة، وتنمّي المواهب الأدبية والعلمية في الطالب، وهو أسلوب علمي درجت على ممارسته أغلب الجامعات والمنتديات والمؤسسات العلمية والثقافية[(٢)].

---

(١) يقول الإمام المراغي: «منذ أربعين سنة اشتدَّ الجدال حول جواز تعلُّم الحساب والهندسة والتاريخ في الأزهر، وحول تعليمها لعلماء الدين، ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحدُ شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة، على أن نكتم الأمر لئلا يتّهمه الناس بالزيغ والزندقة.
يعلّق الشيخ محمد رضا شمس الدين على هذا الكلام فيقول: «ولهذا وذاك يُرَجَّح: أن دخول جمال الدين الأفغاني إلى مصر سنة (١٢٨٨ هـ/١٨٧١ م) بعد تخرّجه من النجف، وتلمذته على فلاسفتها، لأنه أول من بذر (الفلسفة) في مصر، وأخذ عنه تلميذه الشيخ محمد عبده».
انظر: شمس الدين: حديث الجامعة النجفية، ٦٨ ـ ٦٩. معتمداً على كتابَيْ: أنور الجندي: الإمام المراغي (٧٦). والدكتور الوافي: لمحة عن الأزهر (٢٦).

(٢) فكليّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية في بيروت ـ مثلاً ـ طلبت من أساتذتها القدامى =

ومن حيث وضع الطالب الوظيفي والمادي في أثناء دراسته أو بعد تخرّجه منها؛ فإن هذه المدرسة تمنح طلّابها راتباً بسيطاً في بداية الدراسة، ومن ثمّ يتطور كلما تقدم الطالب في مراحل الدراسة. ولكن يظل المتزوج متفوّقاً في راتبه في كل الأحوال على راتب الأعزب أو (المُجَرَّد)، كما يُطلَق عليه حوزوياً...

أما وضعه الوظيفي بعد التخرّج، فليس هناك من شهادة مادية تمنحها هذه المدرسة لمن يُنهي دراسته فيها، نعم تُوَجِّه المدرسة خرّيجها - بل وحتى أثناء العطل الصيفيَّة - إلى بعض القرى والأرياف في العراق أو في خارج العراق للقيام بمهمة التبليغ والوعظ بمثل تلك المهام إنّما يفرضه عليه واجبه الشرعي ما دام قد نَذَر نفسه لخدمة الدين.

إذن: كيف يؤمّن مثل ذلك الطالب معيشته؟

إن شأنه في ذلك شأن كل طلبة الحوزة وعلمائها في اعتمادهم على ما يصلهم من مخصصات شهرية من مراجع الدين في النجف، لا بعنوان الأجر على التعلّم والتعليم؛ بل بعنوان انطباق المفهوم الشرعي للفقير عليهم، وهو «من لا يملك مؤنة سنته اللائقة بحاله. له ولعياله»[١].

وتبقى قائمةً مشكلة العلاقة القانونية بين الطالب - في هذه المدرسة والدولة، فالدولة لا تعترف بالمدرسة هذه لا على مستوى التأسيس، ولا على مستوى قبول متخرجيها في وظائف الدولة. والمدرسة لم تكن لتسعى في هذا الاتجاه، بل على العكس: حرصت المدرسة أن تكون بعيدة كل البعد عن الدولة وعيونها.

= والجُدد المشاركة بانتظام في جلسات المناقشة الحرّة لطلّاب الدراسات العليا. هذه الجلسات تقوم على اختيار موضوع معيَّن يُكَلَّف بتقديمه أستاذ أو طالب مميَّز، وتدور مناقشات شاملة حول الموضوع بعد عرضه على مسامعهم. ويختار المشرفُ على هذه الندوات موضوعات للمناقشة تكون من القضايا الحيّة المثيرة للجدل.

انظر:

كلية الإمام الأوزاعي: من مشكلات بحوث الدراسات العليا الجامعيَّة في الدراسات الإسلاميَّة، ١٠.

(١) الخوئي: منهاج الصالحين، ب/٢٩٨.

وفي ضوء هذه البينونة بين المدرسة والدولة، يظل الطالب الملتحِق بها في وضع غير قانوني سواء أكان عراقياً، أمن من خارج العراق. فالعراقي مطالَب بالالتحاق بالتجنيد الإجباري إذا كان قد أكمل الثامنة عشرة من عمره، ولم يكن مؤجَّلاً لسبب، أو معفى لمرض، وغير العراقي ـ خاصة من غير العرب ـ يبقى ملاحقاً بقوانين الإقامة الصارمة، التي كثيراً ما استُخدِمَت لمحاربة الحوزة، وتشتيت طلّابها. ويبقى الطالب العربي غير العراقي، متمتعاً في بعض السنين بالإعفاء من ملاحقة قوانين الإقامة، وهو إعفاء ليس مقتصراً على طلبة العلوم الدينية من العرب، بل يشمل كل العرب المقيمين بالقطر.

أما أسماء المدرّسين في مدرسة العلوم الإسلامية، وجنسياتهم، والمواد التي درّسوها فهي كالتالي:

أما المدير الإداري (لمدرسة العلوم الإسلامية) فهو السيد/ محمد علي الباقري، وهو من أوائل خريجي كلية الفقه من طلّاب الحوزة. وهو الآن إمام جامع (البلوش) بمنطقة (السُّرَّة) بالكويت منذ ما يقارب الـ (١٥) سنة.

لقد واجهت هذه المدرسة نوعين من المشاكل منذ تأسيسها سنة (١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م) النوع الأول كان من أصحاب الاتجاه القديم في الحوزة ممّن لا يؤيّدون فكرة التجديد والإصلاح[1]. لا سيما بعد وفاة الإمام الحكيم سنة ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م إذ لم يكن ليجرؤ أحد على خلق الصعوبات للمدرسة في حياته. أما وقد توفي وبرزت للسطح أيادي السيد الصدر الذي لم يكن ليحظى برضا التقليديين من رجال الحوزة؛ فقد نجح التقليديون في محاربة المدرسة.

أما النوع الثاني من المشاكل التي واجهتها هذه المدرسة «فقد كان من نظام الحكم، حيث وجد فيها بدايات نهضة حديثة في الحوزة العلمية، وقد أثّرت هذه المشاكل بنوعيها في وضع العراقيل أمام حركة المدرسة التجديدية، (. . .) فأقدم النظام هناك على إغلاقها، كما أغلق غيرها من المدارس العلمية في النجف[2]، وذلك في حدود سنة (١٣٩٨ هـ/١٩٧٧ م)»[3].

---

(١) الحكيم: جواب خطي عن سؤال للباحث، مؤرخ ١٧ شعبان ١٤٠٩ هـ.
(٢) و(٣) المصدر نفسه.

جدول رقم (٥)
أسماء أساتذة مدرسة العلوم الإسلامية في النجف وجنسياتهم

اسم الأستاذ	جنسيته	المادّة الدراسية	ملاحظات
١ ـ السيد محمد كاظم الحكيم	عراقي	فقه/سنة أولى	توفي سنة ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.
٢ ـ السيد محمد الصدر	عراقي	فقه/سنة ثانية واقتصاد/سنة ثالثة	مؤلف موسوعة الإمام المهدي.
٣ ـ السيد عبد المجيد الحكيم	عراقي	فقه/سنة ثالثة	استشهد مع (١٦) عالماً من آل الحكيم سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
٤ ـ الشيخ أحمد البهادلي	عراقي	أصول فقه/سنة ثالثة	مؤلف كتاب (محاضرات في العقيدة الإسلامية)، وأستاذ في جامعة النجف، الجامعة المستنصرية (كلية الفقه).
٥ ـ السيد محمد كاظم الحائري	إيراني	أصول فقه/سنة رابعة	يشرف على الندوة الأسبوعية بشكل دائم. مؤلّف كتاب الحكومة الإسلامية.
٦ ـ السيد **محمود** الهاشمي	إيراني	المنطق/سنة ثالثة	مؤلِّف (تعارض الأدلّة الشرعية).
٧ ـ الشيخ حسن طراد	لبناني	البلاغة/سنة ثانية	إمام مسجد الإمام المهدي في الغبيرة ببيروت.
٨ ـ الشيخ علي الكوراني	لبناني	النحو العربي	مؤلف كتاب: فلسفة الصلاة.
٩ ـ الشيخ خليل شقير	لبناني	النحو العربي	حالياً قاضٍ في بعلبك، وشارك بتأسيس حوزة صغيرة فيها.
١٠ ـ السيد نوري الأشكوري	إيراني	النحو العربي	حالياً أستاذ في جامعة الإمام الصادق لطهران.
١١ ـ السيد علي مكّي	لبناني	الأخلاق/سنة ثانية	وكيل المرجعية الدينية العليا بدمشق حالياً.
١٢ ـ الشيخ نجيب سويدان	لبناني	المدرسة الإسلامية سنة ثانية	حالياً هو مفتٍ بمدينة صور بجبل عامل.
١٣ ـ السيد محمد باقر الحكيم	عراقي	فلسفتنا/ سنة رابعة علوم القرآن/سنة ثالثة	مؤلف كتاب: المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن. وكتاب: علوم القرآن، أستاذ بكلية أصول الدين ببغداد (سابقاً).

بعد دلك ، يتجه «البهادلي» إلى حقل خاص بكلية الفقه ـ فيما سبق أن تحدث عن المؤسسة التي أنشأتها (وهي جمعية منتدى النشر) ومدارسها حيث ـ يجدها ـ أي الكلية ـ نموذجاً للتجديد الدراسي الذي يستحق بحثاً خاصاً به ، جعله بعنوان (كلية الفقه : نموذجاً للإصلاح الدراسي) مهّد له بخطوات التجديد السابقة على الكلية المذكورة ، فقال :

[. . . إن دعوات تطوير الأساليب الدراسية ومناهجها في الحوزة العلمية في النجف قد تعالت منذ سنة (١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠ م). فدعت من ضمن ما دعت إليه إنشاء كلية دينية إذ استمر السيد عيسىٰ كمال الدين[١] «يناضل ربع قرن لتوجيه إخوانه وتنبيههم لإيجاد كلية دينية تحفظ لهم أتعابهم، وقد تجرد من كل تفكير إلاها»[٢]. ولجأ إلى الدولة محاولاً الحصول على تأييد لمشروعه هذا، فاقترح على سعد صالح[٣] أن يقوم بدوره، فيوقف الجهات الحكومية المسؤولة على وضع الطالب الحوزوي إن في مورده المالي أو وضعه الدراسي المضطربَيْن. كان يأمل من طرح الفكرة على الحكومة احتمال أن «تلهمهم في المستقبل بتكوين جامعة للدين في النجف تُنَظَّم على طراز الجامعات في العالم، ليكون الطالب على بصيرة من أمره ومعرفة مستقبله»[٤]. وفي رأي السيد كمال الدين: «أن الحكومة لا يهمها ـ إذا أحبّت الإصلاح ـ أن تساهم في المشروع الإصلاحي»[٥].

ولكن أين أصبحت جهود السيد كمال الدين في إنشاء تلك الكلية الدينية؟ يجيب عن هذا السؤال أحد المؤرخين الذين عاشوا الفكرة فيقول:

« . . . وكاد أن ينجح هو وفريقه الذي آزره، غير أن المغرضين ـ وما

---

(١) وُلد في النَّجف سنة (١٢٨٨ هـ/١٨٧١ م)، وتوفي سنة (١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م).

(٢) الخاقاني: شعراء الغري، أو النجفيات، ١/٢٩٥.

(٣) سعد صالح، المتوفى في النَّجف سنة (١٣٦٨ هـ/١٩٤٨ م)، تلقّى علومه في الحوزة العلميّة في النجف ثم دخل دار المعلمين وتسلّم بعدها وظيفة إدارية في الدولة ليتدرَّج فيها من كاتب في المحكمة الشرعية الجعفريَّة حتى منصب وزير الداخليَّة سنة (١٣٦٦ هـ/١٩٤٦ م). انظر ترجمته في: الخاقاني: شعراء الغري ٤/١٢٧.

(٤) الخاقاني: م.س، ٤/١٢٨.

(٥) نفسه.

أكثرهم ـ شاعت أغراضهم أن تميت هذه الفكرة وتقبرها وهي في مهدها (...) وبموتها فقدت النجف جيلاً كان يصلح لحراسة المذهب والدين على الأسلوب الذي يتمشى وعقلية الزمن الآتي»[١].

ولعلّ أسلوب الدعوة لمثل تلك الكلية ـ الذي انتهج آنذاك ـ هو السبب الأبرز في موت الفكرة إذ «انطلقت الفكرة من عقول بعض الشباب المجدد إذ ذاك بأساليب فيها الشيء الكثير من العنف والانفعالية واللامبالاة، ممّا ولّد في نفوس الآخرين من ردود الفعل ما حوّل الصراع حولها من مجاله الفكري إلى مجالات العاطفة والانفعال»[٢].

وفي ضوء تجربة هذه الثورة الإصلاحية خطا الشيخ محمد رضا المظفر خطوة اتسمت بالهدوء والحذر، خاصة وأنه يدرك جيداً قوّة الخط التقليدي في داخل الحوزة فبعد سنتين من تأسيس (جمعية منتدىٰ النشر) وتحديداً في سنة (١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م). وضع الخطة لتأسيس مدرسة عالية للعلوم الدينية وكلية للاجتهاد بفتح الصف الأول الذي كان يدرس فيه أربعة علوم:

١ ـ الفقه الاستدلالي.
٢ ـ تفسير القرآن.
٣ ـ الفلسفة.
٤ ـ علوم أصول الفقه.

على شكل محاضرات توضَع بلغة سهلة واضحة[٣] سمّيت وقتها (منتدىٰ النشر العالية)[٤].

يتحدث الشيخ المظفر عن هذه المؤسسة فيقول: «فتبرّع بتدريس الأول والثاني الشيخ عبد الحسين الحُلي، وتبرّع بتدريس الثالث والرابع الشيخ عبد

(١) الخاقاني: شعراء الغري، أو النجفيات ١/١٥٤.
(٢) الحكيم: المنتدىٰ تاريخ وتطور، مجلّة النَّجف (النجف) س/٣/٢ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ/١٩٦٨ م.
(٣) الآصفي: مدرسة النَّجف ١٢٧.
(٤) المظفَّر: تقديم كتاب «الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد» للشيخ الطوسي.

الحسين الرشتي. وكان تبرُّع هذين العَلَمين بالتدريس دراسة منظّمة من أهم الأحداث في تاريخ النجف الأشرف ويعدّ تضحية نادرة منهما تذكر مدى الدهر بالتقدير والإعجاب بروحهما الإصلاحية. ولم تأتِ العطلة الصيفية إلّا وتعطل هذا الصف ليعود بعدها، ولكنه أبى. ولا يدري غير بعض أعضاء مجلس الإدارة أكان إباؤه عن دلال أم ملال؟ أم عن شيء آخر غير منتظر حتى من مثل هذين العَلَمين نفسيهما. قاتل الله الشجاعة الأدبية كيف تعزّ في أشدّ ظروف الحاجة إليها[١].

ولم يتوقف الشيخ المظفر مع توقف (منتدىٰ النشر العالية) بل راح يحاول إعادة التجربة مرة بعد مرة أخرى، حيث قامت على يديه وضمن إطار (جمعية منتدىٰ النشر) (كلية منتدىٰ النشر)، وذلك سنة (١٣٦٢ هـ/١٩٤٣ م)[٢]. وبعد كل تلك المحاولات التي لم تكن بسيرها، وما أدّت إليه من نتائج بمستوى طموح الشيخ المؤسّس. «فقد أسّس في سنة (١٣٧٦ هـ/١٩٥٧ م). بعد محاولات عديدة وتجارب طويلة (كلية الفقه) في النجف الأشرف»[٣]. كإحدى المؤسسات التعليمية المنبثقة عن جمعية منتدىٰ النشر نفسها[٤].

الوضع القانوني والمستوى الجامعي لكلية الفقه:

بعد سنة واحدة على تأسيس (كلية الفقه) في النجف «اعترفت بها وزارة المعارف العراقية سنة (١٣٧٧ هـ/١٩٥٨ م)، واعتبرت شهادتها عالية يُطَبَّق على حاملها ما تنص عليه القوانين والأنظمة في ما يتعلَّق بخريجي المعاهد العالية»[٥]. ودرجتها العلمية درجة (الليسانس)[٦]، أو (البكالوريوس) كما هو مثبت في

---

(١) الآصفي: م.س، (نقلاً عن): المظفَّر: منتدىٰ النشر: أعماله وآماله، ٨ ـ ٩.

(٢) المظفَّر: تقديم كتاب (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، للشيخ الطوسي) صفحة/ح.

(٣) الآصفي: مدرسة النجف، ١٢٩.

(٤) للاستزادة انظر: الآصفي: م.س. والمظفَّر: تقديم كتاب (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد).
والخليلي: موسوعة العتبات المقدَّسة، ١٨٤/٧.
والفضلي: دليل النجف الأشرف، ٧٦.

(٥) الآصفي: م. س. ١٢٩.

(٦) المظفَّر: جامعة النجف وجامعة القرويّين، مجلَّة النَّجف س/٤، ع/٥ ـ ٦ جمادى الأولى ١٣٨٠ هـ/١٠ تشرين الثاني ١٩٦٠ م.

شهادات خريجي كلية الفقه، ودرجة الإجازة إنما تكون في اللغة العربية والعلوم الإسلامية[١]. وقد «تلقّت عمادة (كلية الفقه) من قبل جامعة بغداد بكتابها المرقم (٢٠٣٨٣) بتاريخ ١٩٦٢/١٢/٢٩ الاعتراف بمستوى (كلية الفقه) ومعادلتها بالكليات الشبيهة بها في الجامعة مثل كلية الشريعة وكلية التربية وكلية الآداب»[٢]. وفي سنة (١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م) رُسِّمت الكلية[٣] حيث أصبحت تابعة لجامعة بغداد مباشرة، وأحد أقسام كلية الآداب تحديداً. وفي سنة (١٤٠٠ هـ/١٩٧٩ م) ألحِقَت الكلية بالجامعة المستنصرية، ومن ثم لتكون إحدى كليات جامعة الكوفة التي أنشئت قريباً من النجف عام (١٤٠٨ هـ/١٩٨٧ م). وقد عرفت لاحقاً أنها الغيت عام (١٤١١ هـ/١٩٩١ م) وأُلحِقَ طلّابها وبعض أساتذتها بكلية الحقوق ببغداد.

أما مدّة الدراسة في (كلية الفقه) فهي «أربع سنوات، تبدأ في اليوم الأول من الأسبوع الثاني من تشرين الأول، وتنتهي في آخر الأسبوع الثالث من شهر أيار»[٤]. ويقبل في الكلية «خريجو الدراسات الثانوية، أو ما يعادلها، وذوو الدراسات الخصوصية ممّن يجتاز امتحاناً، خاصة في علوم اللغة العربية، وعلم المنطق، وعلمي الفقه وأصوله بمستويات معينة»[٥].

أهداف كلية الفقه:

لا تختلف أهداف كلية الفقه كثيراً عن أهداف الحوزة العلمية في النجف، خاصة وأن فكرة الكلية انطلقت من قلب الحوزة وقام بتنفيذها بعض رجال الحوزة، الذين لم يروْا بُدّاً من إصلاح نظام الدراسة في الحوزة نفسها.

يتحدّث الشيخ المظفر عن أهداف (كلية الفقه) في محاضرته التي ألقاها في المهرجان الذي أقامته الحكومة المغربية (بفاس) سنة (١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م)

---

(١) الفضلي: دليل النجف الأشرف، ٧٧.
(٢) المنتدى في شهر، سجلة النجف س/٥، ع/٤ شعبان ١٣٨٢ هـ/كانون الثاني ١٩٦٣ م.
(٣) المظفَّر: مقدمة كتاب (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد) للشيخ الطوسي، صفحة، ح.
(٤) الفضلي: دليل النجف الأشرف، ٧٦.
(٥) ن.

بمناسبة مرور أحد عشر قرناً على تأسيس جامعة القرويين الإسلامية، فيقول: ـ «وقد لمس كثير من المفكرين صعوبة هذه المرحلة[١]، فوجدنا أن من الجدير بنا أن نسعى إلى فتح كلية منظّمة لنتلافى بها كثيراً من النواقص التي يشتكي منها الطالب وذلك بتبسيط بعض الكتب، وتنظيم المناهج والدروس والامتحانات، وهكذا تمّ لجمعية منتدىٰ النشر أن تفتح (كلية الفقه) لتخريج طلّاب لهم الاستعداد الكافي لحضور مجالس دروس كبار المجتهدين بالإضافة إلى القيام بواجب الدعوة إلى الدين الإسلامي وتبليغ مبادئه بمنابرهم وأقلامهم»[٢] تحقيقاً لهذه الأهداف وُضِع منهاج (كلية الفقه) لسنواتها الأربع.

وحتى بعد اعتراف الدولة بخريجي هذه الكلية، ولجوء الكثيرين منهم إلى وظائف الدولة؛ فإن هدف الكليّة نلمسه واضحاً حتى لدى خريجي الدورات البعيدة زمنياً عن الدورة الأولى، وفي هذا الاتجاه نقرأ في مجلة كلية الفقه (النجف) بقلم أحد طلّابها تحت عنوان: (رسالة الطالب في كلية الفقه): ـ

«لا شك أن الدراسة والثقافة وحدها لم تكن الباعث لنا ـ نحن طلّاب كلية الفقه ـ في الدراسة في هذه الكلية، وإن كانت هي جزءاً من العلة، فقد كان بإمكاننا أن نطرق أبواب سائر الكليات والمعاهد العلمية في هذا البلد وغير هذا البلد حيث نتلقى فيها العلم والثقافة التي تؤهلنا للحياة. ولكن ما كنّا نتوخّاه في (كلية الفقه) بالإضافة إلى الثقافة هي أن نتزوّد فيها طيلة سنوات الدراسة بروح الرسالة الإسلامية وبالذهنية الإسلامية المشبعة بمفاهيم هذه الرسالة. وهذا ما يندر أن نجده في كثير من الكليات والمعاهد الدراسية، الرسالة في حياتنا وحضارتنا ليست شيئاً فوقياً، وإنما هي في الصميم من حياتنا وكياننا».

يضيف:

«إن ملء الفراغات الهائلة في حياة الشباب طلّاباً كانوا أو غيرهم على صعيد واحد وإشباع ذهنيتهم بالرسالة الإسلامية هي المهمّة التي نسلّح أنفسنا

---

(١) إشارة منه إلى مرحلة السطوح في الدراسات الحوزوية، والتي تحدثنا عنها مفصلاً في الفصل الأول من الباب الرابع من كتابنا (الحوزة العلمية في النجف).

(٢) المظفّر: جامعة النجف الأشرف وجامعة القرويين، مجلة النجف س/٤ ع/٥و٦ م.س.

لها، ونجند جميع طاقتنا ونبذل أقصى جهودنا في هـذه المؤسسة لهـا، وهي التي دفعتنا أكثر من أي عامل آخر على الدخول في هذه الكلية»[١].

ممّـا تقدم يمكن أن نـوجـز الأهـداف التي من أجلهـا أسّست كليـة الفقـه، بالآتي:

١ ـ تنظيم الدراسة الحوزويـة في مرحلتي المقـدمات والسـطوح، وفق نظام السنـوات، وإدخال الامتحـانات، والأخـذ بقسم من المناهـج الحديثـة في تيسيـر الكتاب الدراسي الحوزوي، وتبسيط مفاهيمه، وتطويرها.

٢ ـ إعداد نخبة واعية من الدعاة مسلّحين بالثقافة الإسلامية، وبعض العلوم الحـديثة التي اشتمـل عليها منهـاج (كلية الفقـه)، ليكون الـطالب ـ الـذي يجتـاز مـرحلته الأولى ـ بمستـوى رسالتـه التي يُـراد لـه تـأديتهـا، وبمستـوى التحـديـات المعـاصرة التي تـواجهه، سـواء انتقـل إلى مـراحـل الـدراسـة الحـوزويـة العليـا (الاجتهاد)، أو وقف عند حدود المرحلة الأولى.

المناهج الدراسية في كلية الفقه:

لكي يسهـل علينا معـرفة المـواد الدراسيـة في كلية الفقـه لسنيهـا الـدراسية الأربع، فقد قمنا بإعـداد الجدول التـالي ـ الذي وزعنـا فيه المـواد الدراسيـة وفق سنوات الدراسة في الكلية: ـ

---

(١) معلّه: رسـالـة الـطالب في كليـة الفقـه، مجلة النجف (النجف) س/١ ع/٥ جمـادى الأولى ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م.

جدول رقم (٦)
المواد الدراسية في كلية الفقه لسني الدراسة الأربع

السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة
١ ـ الفقه	١ ـ الفقه	١ ـ الفقه	١ ـ الفقه
٢ ـ أصول الفقه	٢ ـ أصول الفقه	٢ ـ أصول الفقه	٢ ـ أصول الفقه المقارن
٣ ـ الحديث	٣ ـ التاريخ الإسلامي	٣ ـ التفسير/علوم القرآن	٣ ـ أصول الفقه
٤ ـ التفسير علوم القرآن	٤ ـ الفلسفة الإسلامية	٤ ـ التاريخ الإسلامي	
٥ ـ البلاغة	٥ ـ النحو	٥ ـ الفلسفة الإسلامية	٥ ـ الفلسفة الحديثة
٦ ـ تاريخ الأدب العربي	٦ ـ البلاغة	٦ ـ الالتزام (قانون)	٦ ـ النحو
٧ ـ أصول البحث والمكتبة	٧ ـ تاريخ الأدب العربي	٧ ـ النحو	٧ ـ تاريخ الأدب العربي
٨ ـ المنطق	٨ ـ النقد الأدبي	٨ ـ العروض	٨ ـ فقه اللغة
٩ ـ علم الاجتماع	٩ ـ علم النفس	٩ ـ تاريخ الأدب العربي	٩ ـ طرق التدريس
١٠ ـ اللغة الإنكليزية	١٠ ـ اللغة الإنكليزية	١٠ ـ النقد الأدبي	١٠ ـ أصول البحث والمكتبة
		١١ ـ التربية	١١ ـ الصرف

إن نظرة سريعة في المواد الدراسية لكلية الفقه، تكشف أن هناك تركيزاً على المواد الأربع التالية:

١ ـ الفقه. ٢ ـ أصول الفقه. ٣ ـ النحو. ٤ ـ تاريخ الأدب العربي.

حيث تظل هذه المواد ملازِمة الطالب من السنة الأولى حتى السنة الرّابعة، وهو ما يكشف عن هدف الكلية في أن لا تخرج عن إطارها الحوزوي، وإن أُضيفت إلى المنهج الدراسي بعض العلوم التي لم تكن مألوفة الدراسة في الحوزة: كعلم التربية، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفقه المقارن، وما إليها.

وهناك ما لا يحسن التغافل عنه في ما يرتبط بمنهاج الدراسة في الكلية، إذ يُشترط على كل طالب في الكلية أن يقدّم بحثاً في السنة الرابعة ضمن مادة (المكتبة وأصول البحث). ومن غير الممكن حصول الطالب على شهادة التخرّج بدون إقرار البحث من أستاذ المادة، حتى ولو كان الطالب قد نجح في كل

المواد الدراسية الأخرى[1].

إن المنهج الدراسي في (كلية الفقه) قد أُعِدّ إعداداً مباشراً من قبل مؤسّسي الكلية، وخلال سني كلية الفقه كان مجلس الكلية يؤلّف اللجان للنظر في الوضع القائم للكلية ودراسته دراسة مفصلة، بخاصة ما يتعلق في المناهج ومفرداتها. وقد عثرنا في بعض أعداد مجلة النجف[2]، على أسماء الأعضاء لإحدى تلك اللجان، وهم:

١ ـ السيد هادي فياض، رئيس جمعية منتدىٰ الشعر.

٢ ـ السيد محمد تقي الحكيم، عميد كلية الفقه.

٣ ـ الشيخ أحمد البهادلي، عضو مجلس الكلية.

٤ ـ الشيخ محمد كاظم شمشاد، عضو مجلس الكلية.

٥ ـ الشيخ عبد الهادي الفضلي، عضو مجلس الكلية.

وقد طُلِب إلى هذه اللجنة ـ بالإضافة إلى النظر في المناهج الدراسية في الكلية ـ دراسة موضوع «تفريع الكلية إلى قسمين، وفتح معهد عال لدراسة (الماجستير)، ورفع نتائج الدراسة والمقترحات التي تراها بعد الاستئناس بآراء المعنيين من الخبراء والتربويين، رفعها إلى مجلس الكلية للقيام بما يلزم»[3].

ويبدو أن هذه اللجنة قد عملت بمثابرة إذ حدثتنا مجلة (النجف)، وهي تتابع أخبار (منتدىٰ النشر في شهر) عن «انتهاء لجنة تطوير الكلية من دراسة الموضوع ورفع الصيغة الجديدة المقترحة إلى مجلس الكلية للنظر فيها»[4]. ووعدت المجلة بموافاة القُرّاء الكرام بتفاصيل المشروع وما يجد فيه في العدد القادم[3] ويبدو أن قيام الثورة ربيع الثاني ١٣٨٨ هـ/تموز ١٩٦٨ م. حال دون مواصلة صدورها، إذ توقفت بعد شهر واحد تقريباً من قيام تلك الثورة.

وكيف كان أمر لجنة تطوير المناهج في كلية الفقه؛ فإن مجلس الكلية استمر مشرفاً على المناهج الدراسية في الكلية، رغم اعتراف الدولة بشهادة

---

(١) س/٢، ع/٥، ربيع الأول ١٣٨٨ هـ/حزيران ١٩٦٨ م. (٢) مجلة النجف م. س.

(٣) مجلة النجف، س/٢، ع/٧ جمادى الأولى ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م. (٤) ن.

(١) انظر الملحق (٩) أسماء بعض البحوث التي قدّمها طلبة الكلية، مع التقدير الحاصلين عليه. ص٣٣٧.

متخرجي هذه الكلية، بل حتى بعد ترسيمها عام (١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م) حيث ظلّت قائمة بالمنهج ذاته إلى الوقت الحاضر[١]. مع ما تخلل ذلك من محاولة بعض القائمين على أمر كلية الفقه تبسيط الكتب الدراسية الحوزوية وإزالة التعقيد والغموض عنها لتسهّل للطالب المادة الدراسية في الدرس من غير جهد ومشقة، وليوفر على الطالب كثيراً من الجهود التي يبذلها في هذا السبيل، ليصرفها في مجالات الفكر الرحبة.

ومن هنا تأتي خطوة الشيخ محمد رضا المظفر الرائدة في هذا المجال فقد «حرر كتابَيْه (المنطق) و(أصول الفقه). فحرر بهما هذين العِلْمَين من غموض تعقيد الكتب القديمة»[٢]. وقد طبع هذان الكتابان ووجد فيهما طلاّب الكلية وأساتذتها، وطلاّب الحوزة العلمية وأساتذتها، خير مادة دراسية استغنوا بها عن الكتب القديمة التي توارث الحوزويون أمر دراستها دون جرأة من أي منهم على إبدالها أو تجديدها. على أن الشيخ المظفر في كتابي المنطق وأصول الفقه «حاول أن يجاري أحدث المناهج التأليفية في كتب الدراسة الجامعية من العرض والتبسيط والتمرين والتنسيق والتعليق»[٣] وبهذه الخطوة كسر الشيخ المظفر حاجز التقديس للكتب الحوزوية التقليدية، وكان من نتاج ذلك أن ألَّف الشيخ الفضلي كتاباً في (مختصر النحو)، وكتاباً في (مختصر البلاغة)، وألَّف الشيخ البهادلي كتاباً في العقيدة الإسلامية سمّاه (محاضرات في العقيدة الاسلامية)، حيث اعْتُمِدَت هذه الكتب منهاجاً دراسياً لا في كلية الفقه، أو الحوزة النجفية فقط: بل وفي الحوزات العلمية في الخليج وإيران ولبنان.

التمويل المالي لكلية الفقه:

لكي يستمر كل مشروع، تجارياً كان أم ثقافياً، فلا بدّ له من دعم مالي وتمويل ومساندة وكلما كان التمويل قويّاً ومستمراً كلما كانت أمام المشروع فرصة أكبر للتقدم والنجاح والاستمرار.

---

(١) المظفَّر: تقديم كتاب (الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للشيخ الطوسي) وتاريخ كتابة المقدمة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٨ م.

(٢) الآصفي: مدرسة النجف، ١٣١.

(٣) الآصفي: مدرسة النجف، ١٣١.

جدول رقم (٧)
الميزانية المالية لـ (جمعية منتدىٰ النشر)
للفترة بين حزيران ١٩٦٢ م، وكانون الثاني عام ١٩٦٣ م

		الواردات			المصروفات
٢٥٠	١٢٢١	إيجار حوانيت المنتدىٰ لسنة ونصف السنة	٨٠٠	٣٢٨٦	مصروفات كلية الفقه
٥٠٠	٠٢٩٢	من رواتب طلّاب المتوسطة	٩٥٠	٠٦٥٦	مصروفات المتوسطة
٨٥٠	٠٢٠٨	من رواتب طلّاب الابتدائية	٦٨٠	٠٦٨٤	مصروفات الابتدائية
٠٠٠	١٠٠٠	من وزارة المعارف (منحة سنوية)	٥٥٥	١٣٨٣	مصروفات الجمعية وأقساط للمصرف العقاري وترميمات أوضاع البناية، ومصروف المجلة والكهرباء والماء وهاتف، وأجور سفر وغيرها من النثريات
٠٠٠	٠٥٠٠	من وزارة المالية (منحة سنوية)			
٥٦٠	٠٩٣٨	مساعدات متفرقة من المحسنين			
٥٠٠	٠١٩٠	من واردات مجلة النجف			
٠٠٠	١٠٧٣	من تبرعات أساتذة كلية الفقه	٩٨٥	٦٠١٢	مجموع المصروفات
			٦٦٠	٥٤٣٤	يخرج من الواردات: المصروفات
٦٦٠	٥٤٢٤	خمسة آلاف وأربعمائة وأربعة وعشرون ديناراً عراقياً و ٦٦٠ فلساً	٣٢٥	٠٥٨٧	فقط خمسمائة وسبعة وثمانون ديناراً عراقياً و ٣٢٥ فلساً، العجز قرض من السيد/ هاشم الصرّاف.

... ولم يغب عن بال القائمين على مشروع (كلية الفقه) هذا الأمر، فالدولة لا تتبنى ـ مالياً ـ مشروعاً كهذا كونه مشروعاً غير حكومي من جهة، وهو يخالف توجهاتها الفكرية من جهة ثانية. نعم: قد تقدم الدولة للجمعيةِ المشرفة عليه بعض المِنح المالية والتي تقدم عادة من قبل وزارتي المعارف والمالية.

لذا فقد كانت الأقساط البسيطة التي تؤخَذ من الطلّاب، تشكل بعض الروافد المالية الصغيرة لمشروع كلية الفقه. أمّا الدعم الأساسي والرافد الكبير

فقد «كان يأتي للكلية من تبرعات المؤمنين الذين يؤمنون بضرورة وجود مثل هذا المشروع»[١].

ومن الملفت للنظر، وما يبعث على الإعجاب حقاً: هو رفض أساتذة كلية الفقه قبض شيء من المال نظير قيامهم بالتدريس، وليس هذا هو مثار الإعجاب، وإنما: تقديم أولئك الأساتذة بعض الأموال كتبرعات (لجمعية منتدى النشر)، المشرفة على مشروع كلية الفقه[٢]. فقد وجدنا ضمن ميزانية الجمعية بين حزيران ١٩٦٢ وشباط ١٩٦٣ م وضمن الواردات المالية للجمعية مبلغاً وقدره (١٠٧٣) د. ع: ألف وثلاثة وسبعون ديناراً عراقياً، تبرعاً من أساتذة كلية الفقه للجمعية، وهو رقم كبير إذا ما قورن بالإيرادات المالية الأخرى للجمعية والتي نوضحها في هذا الجدول عن ميزانية جمعية منتدى النشر بين حزيران ١٩٦٢ وكانون الثاني ١٩٦٣»[٣].

شروط القبول:

فتحت كلية الفقه ـ منذ إنشائها ـ أبوابها لقبول الطلّاب الحوزويين، لا بموجب وثيقة تخرّج، أو شهادة دراسية معينة، بل بموجب امتحان قبول في بعض المواد الدراسية في الحوزة، وبعض المواد الدراسية في الكُليّة. هذه المواد هي:

الفقه، أصول الفقه، النحو، المنطق، البلاغة.

فإذا ما اجتاز الطالب الامتحان التحريري في هذه المواد قُبِل طالباً في الكليّة، وقد توجهنا بالسؤال إلى من فاز بالمرتبة الأولى على خريجي الكلية من الدورة الأولى، عن أسماء الكتب التي امتحن فيها هو وزملاؤه طلّاب الدورة الأولى، فأجاب:

---

(١) الكوثراني: حديث شخصي في الغسانية بجبل عامل، في ١٧ ذو القعدة ١٤١٠ هـ/١٠ حزيران ١٩٩٠ م.

(٢) قد يتساءل البعض عن مصادر عيش هؤلاء الأساتذة؟ والجواب أن حالهم في مجال العيش كحال طلّاب وأساتذة الحوزة العلمية في النجف يتعهدهم المرجع الأعلى برواتب شهرية لا لأنهم طلّاباً وأساتذة في الحوزة؛ بل لأنهم مستحقون ممّا لدى المرجع الأعلى من الحقوق الشرعية، فيعطون ما يكفي حاجاتهم المعيشية، كما يعطى غيرهم من المحتاجين.

(٣) نقلاً عن: مجلة النجف (النجف) س/٥، ع/٢.

١ ـ في أصول الفقه كتاب (كفاية الأصول للملاّ كاظم الخراساني).
٢ ـ في النحو ألفية ابن مالك (شرح ابن عقيل) جزآن.
٣ ـ في الفقه (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية للشهيدين الأول والثاني).
٤ ـ البلاغة كتاب (المختصر) للتفتازاني[1].

وهكذا ففي بداية الأمر كان كل طلاّب كلية الفقه هم من رجال الحوزة العلمية في النجف. وبعد اعتراف الدولة بكيان الكلية، ومن ثم الاعتراف بمستوى (كلية الفقه)، ومعادلتها بالكليات الشبيهة بها في جامعة بغداد؛ وضعت الكلية مجموعة شروط للتقديم للكلية، تلك الشروط هي:

١ ـ ملء استمارة القبول.
٢ ـ دفتر النفوس لعام ١٩٥٧، أو دفتر الإقامة لغير العراقي.
٣ ـ شهادة عدم المحكومية[2].
٤ ـ شهادة الالتزام بالأحكام الإسلامية من قبل العالِم الديني للمنطقة التي يقطنها الطالب.
٥ ـ شهادة السلامة من الأمراض السارية.
٦ ـ وثيقة التخرّج من الثانوية مصدقة من مديرية التربية للمنطقة.
٧ ـ أربع صور شمسية[3].

أما الزي فلم تشترط الكلية ـ في من ينتسب إليها ـ الزي الخاص برجال الحوزة العلمية وهو (العمّة) و(الجبة). نعم حبّذت (كلية الفقه) للطالب فيها ارتداء هذا الزي المبارك، وتمثل ذلك في بعض جوانبه بإعفاء كل طالب في الكلية يتزيى بزي أهل الدين من الأجور الدراسية[4] المطلوبة من كل طالب، وقد كان لمثل ذلك القرار (صدى استحسان كبير وسمعة طيبة في الأوساط الدينية

---

(١) الكوثراني: حديث شخصي في جبل عامل بتاريخ ١٧ ذو القعدة ١٤١٠ هـ/١٠ حزيران ١٩٩٠ م.
(٢) وهي المُسَمّاة في لبنان: السجل العَدْلي، وفي الخليج العربي صحيفة الحالة الجنائيَّة.
(٣) المنتدىٰ في شهر (مجلة النجف) س/٢ ع/٢، ذي الحجة ١٣٨٧ هـ/آذار ١٩٦٨ م.
(٤) ن.

في النجف الأشرف، وحافزاً قوياً لعدد محترم من الطلّاب إلى لبس هذا الزي الشريف»[١].

طلّاب كلية الفقه:

بإمكاننا تقسيم الطلّاب المنتمين لكلية الفقه بلحاظ ماضيهم الدراسي ـ قبل الكلية ـ إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: طلّاب حوزويون، رغب البعض منهم في مواصلة دراسة منهجية مبرمجة، ورغب آخرون في الاضطلاع بمهمة التبليغ والإرشاد من خلال توجيهات الكلية. فيما وجد قسم ثالث في الكلية مَنْفذه للوصول إلى الوظيفة، لتأمين مستوى معيشي أفضل ممّا هو عليه في الحوزة العلمية.

الفئة الثانية: خريجو الثانويات، أو ما يعادلها ـ وخاصة من النجفيين ـ الذين يجدون مشقة في الالتحاق بجامعة بغداد[٢]. أو بجامعة البصرة[٣]، أو أولئك الذين يرغبون بالتسلّح بثقافة إسلامية هادفة، تفتقدها كل جامعات القطر عصرئذ.

الفئة الثالثة: معلمو المدارس الابتدائية، الذين وجدوا فرصتهم الذهبية في تحسين أوضاعهم وظيفياً ومادياً، إذ إنهم بواسطة شهادة التخرّج من كلية الفقه، يمكنهم أن يكونوا مدرسين في مدارس الدولة الثانوية، كما يمكن لهم مواصلة دراساتهم العليا.

وتَجمَع الفئات الثلاث أعلاه الرغبة في الحصول على الشهادات الجامعية العليا، وهذا ما يلاحظه من يتتبع أعداد الطلّاب المسجلين بمعاهد الدراسات العليا، «فخلال الفترة من (١٩٦٤ هـ/١٩٦٨ م)، بلغ عدد خريجي كلية الفقه الذين تمّ قبولهم في قسم (الماجستير) بجامعة بغداد (١٨) طالباً في فرع الشريعة، وأربعة طلّاب في اللغة العربية»[٤]. وهو رقم كبير إذا ما وضعنا

---

(١) ن.

(٢) تبعد عن النجف حوالي (١٦٥) كلم تقريباً.

(٣) تبعد عن النجف حوالي (٦٠٠) كلم تقريباً.

(٤) المنتدىٰ في شهر (مجلة النجف) (النجف) س/٢ ع/١ شوّال ١٣٨٧ هـ/كانون أول ١٩٦٨ م.

الظروف المادية الصعبة والعوائق البيئية الكبيرة التي تقف بوجه خريجي كلية الفقه.

أمّا جنسيات طلّاب (كليّة الفقه)، فليس للكلية، توجّه معين في ما يرتبط بهذا الجانب شأنها في ذلك شأن الحوزة العلمية في المنهج. على أن المستعرِض لأسماء الطلّاب المنتمين للكلية في السنة الأولى من تأسيسها سنة (١٣٧٧ هـ/١٩٥٧ م) يجد الطالب اللبناني، والإيراني والخليجي، كما يجد الطالب العراقي. نعم بعد اعتراف الدولة بشهادة خريجي كلية الفقه ومعادلتها «تهافَتَ على الكلية الطلّاب وخاصة من العراقيين»[1]، الذين يحاولون ـ في ما يبدو ـ التخلّص ممّا هم فيه من ضائقة مالية مقترنة بإباء وعزّة نفس لا تسمح لهم بالجلوس على موائد العطاء الحوزوية... دون أن يُفهَم من هذا القول أن طلّاب الحوزة من غير العراقيين يرتضون وضعاً كهذا، لا، ذلك ما لا يمكن لأحد قوله، إذ يظل الطالب الحوزوي ـ في الغالب دون حديث عن استثناءات ـ أبيّ النفس، عزيز الجانب، عفيف اليد، بيد أن الطالب الحوزوي غير العراقي ـ في الأعم الأغلب ـ يظل مشمولاً بعطاءات أهله وذويه وأبناء قريته الذين يأملون كفايته معيشياً، فيساعده ذلك على التحصيل الدراسي وبعدها يعود لأهله ومدينته عالِماً يتولّى شؤون التبليغ والدعوة للإسلام فيها.

ومن المهم أن نشير ـ ما دمنا بصدد الحديث عن نوعية طلّاب كلية الفقه ـ إلى أن الدولة قد اشترطت لكي تعترف بشهادة خريجي كلية الفقه في سنة ١٣٨٣ هـ/١٩٦٣ م «أن يكون المنتسب لكلية الفقه من خريجي الثانوية العامة أو ما يعادلها. شأنه في ذلك شأن المنتسب إلى كافة الجامعات والكليات العراقية»[2] وبعد هذا لوحظ أن الرقم الأغلب من الطلّاب هم من خريجي الثانويات، وحتى أصبح من النادر أن نرى من بين الطلّاب واحداً من الحوزويين، مع استثناءات لا تكاد تشكل رقماً يُذكر...

---

(١) الكوثراني م. س.

(٢) المُظفَّر: جامعة النَّجف الأشرف وجامعة القرويّين، مجلَّة النَّجف (النَّجف) س/٤، ع/٥ ـ ٦ ٢٢ جمادى الأول ١٣٨٠ هـ/١٠ تشرين الثاني ١٩٦٠ م.

أساتذة كلية الفقه:

في محاضرته سنة (١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م) بمدينة فاس بالمغرب تحدث الشيخ المظفّر عن النجف، وكان من جملة ما تحدّث عن تجربة كلية الفقه، وجاء على ذكر أساتذتها، حيث قال «لا يدرّس في الكلية إلاّ حملة إجازات الاجتهاد من كبار المجتهدين، أو حملة شهادات الجامعات المعترف بها»[١].

إذن: فأساتذة كلية الفقه ـ من حيث درجاتهم العلمية ـ هم: إما حوزويون لا يحملون أية شهادة جامعية حكومية، إنما يحملون تقدير المجتهدين الكبار لهم بمستواهم العلمي، واعترافهم باجتهادهم ونبوغهم وإما أن يكونوا جامعيّين، يحملون شهادة (الدكتوراه) من هذه الجامعة أو تلك.

إن أغلب الأساتذة الحوزويين في كلية الفقه قد تفرغوا تفرغاً شبه كامل لكلية الفقه تدريساً وإدارة وإشرافاً، دون أن يقطعوا صلتهم بالحوزة العلمية إذ ظلّوا يواصلون حضور دروس البحث الخارج (الاجتهاد) التي يديرها المرجع الأعلى، ويواصلون كذلك نشاطاتهم في التدريس الحوزوي (ولكن في نطاق ضيّق) مع بعض الأعمال الوعظية والإرشادية، بحكم ما تفرضه عليهم طبيعة المهمة التي نذروا أنفسهم لها حين قدومهم للحوزة العلمية في النجف.

وغير الحوزويين من (حملة شهادة الدكتوراه) فهم محاضرون في كلية الفقه، ويتركز عملهم الأساسي في جامعة بغداد ولكي يتمكنوا من إلقاء المحاضرات في كلية الفقه دون أن يؤثر على عطائهم في جامعة بغداد فقد التجأت الكلية إلى جعل عطلتها الأسبوعية يوم الثلاثاء من كل أسبوع، بدلاً من يوم الجمعة، وبهذا تتيح للمحاضرين الوصول إلى النجف في وقت تعطيل الجامعة ببغداد (يوم الجمعة) كما تتيح للأساتذة الحوزويين في الكلية التفرّغ يوم الثلاثاء من كل أسبوع لمواصلة التدريس في نطاق الحوزة العلمية بالنجف.

إن استعراضاً لأسماء الأساتذة والمحاضرين في كلية الفقه عبر سنواتها الطويلة، لا ينطوي على فائدة كبيرة، إذ لم يطرأ تغيير كبير على أسماء أولئك،

لذا فسنكتفي هنا ببيان ملاك الكلية لسنتها الدراسية ٨٦ ـ ١٣٨٧ هـ/٦٦ ـ ١٩٦٧ م كما نشرته مجلة النجف[1].

أ ـ الأساتذة:

١ ـ السيد محمد تقي الحكيم: عميد الكلية: للفقه المقارن، وأصول الفقه.

٢ ـ الشيخ محمد تقي الإيرواني: للفقه والتفسير.

٣ ـ الشيخ عبد المهدي مطر: للفقه والحديث والنحو والصرف.

٤ ـ الشيخ علي سماكة: للفقه.

٥ ـ محمد كاظم شمشاد: للفلسفة الإسلامية وأصول الفقه.

٦ ـ الشيخ محمد مهدي شمس الدين: للتاريخ الإسلامي.

٧ ـ السيد مصطفى جمال الدين: للبلاغة والمنطق.

٨ ـ الشيخ محمد رضا الجعفري: لأصول الفقه والفلسفة الإسلامية.

ب ـ المحاضرون:

١ ـ د. عبد الرزاق محيي الدين: لتاريخ الأدب العربي.

٢ ـ د. عناد غزوان إسماعيل: لتاريخ الأدب العربي.

٣ ـ د. عبد المجيد الحكيم: للالتزام: مصادره وأحكامه.

٤ ـ د. أحمد حسن الرَّحيم: لعلم النفس والتربية.

٥ ـ د. عبد الله درويش: للنحو والصرف.

٦ ـ د. حسين نصّار: للنحو.

٧ ـ د. حامد شاكر حلمي: للتربية.

٨ ـ د. قيس النوري: لعلم الاجتماع.

٩ ـ د. مدني صالح: للفلسفة الحديثة.

١٠ ـ د. محمد باقر تويج: للغة الإنكليزية.

وقد إلتحق بالكلية في ما بعد للتدريس فيها من الحوزويين كل من: ـ

---

(١) منتدى النشر في شهر، مجلة النجف (النجف) س/١، ع/٦ شعبان ١٣٨٦ هـ/تشرين الثاني ١٩٦٦ م.

ـ الشيخ أحمد البهادلي لمادة العقيدة الإسلامية.
ـ الشيخ عبد الهادي حموزي لمادة الحديث.

من الجامعيين:

ـ الدكتور: محمود البستاني لمادة النقد الأدبي.

وإنما أثبتنا بعض أسماء أساتذة كليّة الفقه لنشير إلى المستوى العلمي الذي عاشته كلية الفقه في ظل أساتذة كبار.

* * *

الأورق المتقدمة، تحدثت عن حركة الإصلاح في نطاق المؤسسات المدرسة (في شتىٰ مستوياتها). أما الآن فنتقدم إلى الحركة الإصلاحية في نطاق الدرس الحوزي المرتبط عادة بالدراسة كالفقه والأصول والفلسفة وإلخ...، حيث نحاول أن نعرض وجهة النظر الإصلاحية التي اقترحها هذا الحوزوي وجعله متوافقاً مع لغة العصر،... وفي هذا الميدان ظهرت وجهات نظر متنوعة بخاصة في سنواتنا المعاصرة، نحاول أن نبثها في هذه الأوراق، ونبدأ ذلك بالحديث عن دراسة محمد حسن القاضي جزء من صفحاتها في الحركة الإصلاحية في نطاق المؤسسة المدرسية.

لقد تحدث الكاتب عن الدروس المتصلة باللغة والفقه والأصول والمنطق والفلسفة وغيرها، بدأها عن اللغة العربية أولاً، مشيراً إلى طبيعة التركيبة الحوزوية من حيث انتماء الطلاب غير العرب إليها أيضاً، وضرورة مراعاة مستوياتهم اللسانية، فيقول:

[إن قراءة المتون العربية بالنسبة لغير من يتكلمون باللغة العربية ليس سهلاً وميسراً كإشباع بعض الحروف وتخفيفها بالنسبة للبعض الآخر وسلاسة النطق بالجملات والكلمات العربية وأشباه ذلك... لم يتيسر لغير العرب بسهولة أو بسرعة على الأقل... والكتب المتداولة لدراسة علم النحو والصرف والاشتقاق عادة ـ في القديم ـ تقتصر على إعادة كلمات وألفاظ معينة ويجري عليها القواعد ويعيدها في حالات متفاوتة ومتكررة كما ويجري عليها جميع الاشتقاقات الأخرى كما هو الحال مثلاً في كتاب (الأمثلة) وشرحها في مجموعة (جامع المقدمات) وكان المنتدائيون وهم جملة من الأساتذة المختصين باللغة العربية وأساليب الدراسة فيها يرون أن يبدأ الطالب ـ إن كان عربياً أو غير عربي ـ بحفظ كلمات عربية ثم جمل عربية كثيرة ليسهل عليه التلفظ أولاً وليأنس ويألف جملةً من الكلمات والجمل العربية والأفضل اختيار هذه الكلمات والجمل من القرآن الكريم ونهج البلاغة وقوله الأحايث الشريفة وأن تكون هذه المتون مقصورة على كلمة مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل... وهكذا وجمع هذه الكلمات والجمل في كتاب وتقديمهما للطالب في مبدأ الشروع بالدراسة العربية للحفظ والاستظهار... ثم يتدرج في تطبيق القواعد العربية على نفس تلكم الجمل التي حفظها. وهو بهذا العمل يدرك معنى الحركات واختلافها في آخر الجمل والكلمات... هذا الاختلاف الذي تتميز به اللغة العربية عن سائر اللغات ـ الفتح والضم والكسر.

وطبعاً حفظ واستظهار كمية من الجمل العربية ليس سهلاً بالنسبة للطالب في السنين الأولى للدراسة خصوصاً، إذا لم يكن عربياً ـ لكن إذا عرفنا أن المحفوظ آيات قرآنية أو أحاديث شريفة ندرك أن الوقت لم يضع فيه سدى وأن المنهج الذي يسير عليه سيعينه في السنين التالية وسيكون الحفظ والاستظهار ممّا

سيعينه في المستقبل على التعرّف على اللغة أكثر خصوصاً عندما يدرك تماماً تأثير القواعد على الكلمات وكيفية هذا التغيير يسهل عليه حينئذ ضبط القواعد وتطبيقها وموارد استعمالها.

وإنما استدركت هذا الكلام هنا لأشير إلى أن الكتاب الأول الذي كان يتناوله الطالب الديني للدرس هو كتاب جامع المقدمات وكتاب الأمثلة وشرحها بالتعيين الأصل في هذا الكتاب هكذا: ضرب. ضربا. ضربوا. إلخ والشرح هكذا: ضرب فعل ماض مفرد غايب. وهكذا وأحسب أنه لا ضرورة إلى هذا النوع من التدريس في البداية. وربما احتاجه فيما بعد وبعدما يتقدم قليلاً في قراءة القواعد النحوية وإن الاشتقاق حينئذ يكون أيسر وأسهل.

ومن النوادر... والكتب النموذجية الجميلة التي كان مقرراً على الطلبة حفظه كتاب باسم (نصاب الصبيان) هذا الكتاب شعري ومنظوم. وهو في غاية البداعة واللطف. إنه كتاب عربي وفارسي يعني كلمة عربية وترجمتها بالفارسية وهكذا: المثال ـ رجل مردو مرئة زن وويل واي ـ أو ـ محمود ستوده أمين استوار ـ وهكذا وهو كما قلت غاية في البداعة والجمال... إلاَّ أنه ومع الأسف لا يعلم اللغة العربية مطلقاً فلو كان الحفظ لجمل عربية كان أوفق وأصحّ وأدعى للحفظ والضبط والاستظهار.

ولنأخذ مثلاً الكتب التي وضعت للمطالعة العربية في الدول العربية في الثانويات وحتى في بعض الجامعات فإن كتب (المطالعة) موضع اهتمام الأساتذة في المدارس سواءً في اللغة العربية أو اللغة المقارنة لها لأن القراءة العربية وقراءة متون أي لغةٍ أمر ذو بال لا يأنس الطالب باللغة العربية التي يريد التمرّن والمراس عليها إلاَّ بقراءة المتون المختارة وقد تحتاج هذه المتون إلى الحفظ والاستظهار.

وخلاصة الكلام... أن اللغة العربية تحتاج إلى عناية أكثر فلو أن الإعتماد في دراسة العلوم والمعارف الإسلامية يكون على قراءة المترجمات يوشك أن يضيع الأصل... والأصل هو اللغة العربية... ولها من الخواص والمزايا ما لا

توجد في أية لغة أخرى والتفنن والبراعة فيها يكسب الإنسان حذقاً خاصاً ومعرفةً رقيقة بفهم المتون الدينية الأصلية والقرآن الكريم والحديث الشريف. وبغير فهمهما وتذوقهما لا يصل الإنسان إلى ما يسعى إليه من فهم الحقائق العالية من المعارف... وليست لهذه المعارف حدود ولا زمان فهي تسير مع الباحث في كل الأحوال والأعصار ومختلف الظروف الطارئة للمجتمعات الإسلامية كماً وكيفاً نفياً وإثباتاً وفي كل الأحوال، والترجمة تفقد اللغة هذه الخصوصيات وخصوصاً اللغة العربية... إذاً يجب حث الطلبة وفي المراحل الأولى خاصة بإتقان اللغة العربية تمهيداً للوصول إلى المراحل المتأخرة عنها...

وممّا يجلب الانتباه أن العلماء من السلف الصالح - وفي مختلف العصور - ألفوا في غير اختصاصهم أو غير ما كان ينتظر منهم بمجرد أن يحسوا بالحاجة إلى التأليف في أي فرع من الفروع. ولا أقصد من قولي: - في غير اختصاصهم - يعني أنهم كتبوا فيما لا يتقنون! لا... بل أقصد عُنوا بتأليف كتب دون مستواهم فمثلاً هذا الفاضل المقداد العالم الفقيه المتبحر ألّف كتاباً في علوم البلاغة والنحو بمجرد أن أحس بالحاجة والضرورة إلى هذا النوع من التأليف ويقال عن هذا الكتاب: إنه لم يألّف مثيلاً له في الدقة والجودة وسهولة البيان - ولماذا خصّصوا (المطول) لعلوم البلاغة؟ لا ندري - وإن لم يكن من اختصاصه لأنه فقيه ومفسر للقرآن - وكذا القول (في السيوطي) صاحب الدر المنثور شارح ألفية ابن مالك... وهكذا فالضرورة والحاجة هي التي كانت تدعو إلى التأليف... ترى العلماء في القرن الحاضر أي واحد منهم يخصّص شيئاً من وقته للكتابة... وتأليف كتاب لمتوسطي الطلاب مثلاً في النحو والصرف وللطلاب المبتدئين يراعي في هذا التأليف ما ينبغي أن يراعي من سهولة البيان وجودة التعبير والإخراج... وكلما يجده ضرورياً ومراعاته لازماً ليسهل على الطلبة الدخول في هذا الفن ويقرب عليهم الطريق ويسرع لهم الوصول إلى الهدف والغاية من تعلم اللغة وعلوم النحو والصرف والبلاغة... هذه العلوم الأساسية التي لا ينبغي الإعتراف بفضيلة عالم دون الإلمام بها بصورة دقيقة وجدية فإن مجرد فهم الكلمات والجمل العربية لا يكفي لفهم المتون الإسلامية بصورة صحيحة ودقيقة. وقطعاً هذه المتون كلها مترجمة إلى اللغات بصورة أو

بصور متعددة. ومن العجز والقصور أن نكتفي بالتراجم السابقة ونكتفي ونبني على فهم الآخرين من تلك المتون... إنما الضرورة تقضي أن يفهم عالم اليوم المتون العربية من جديد وكأنها لم تترجم ولم تبين. ولا يتأتى هذا الفهم إلّا بدراسة العلوم العربية - كما أسلفت بصورة جيدة ودقيقة... وليس من عبث الفعل أن يقوم الخطيب التبريزي بشرح المعلقات العربية شرحاً دقيقاً ووافياً... وهو عالم وفقيه وذو مكانة مرموقة في وسط له الذي عاش فيه... وكانوا في النجف الأشرف يردّون علينا بأن أمثال التفتازاني والسيوطي وفاضل المقداد ومثلاً من المتأخرين الشيخ البهائي قد كتبوا وألفوا بما لا مزيد عليه وأحسنوا التأليف وأجادوا... نعم هو كذلك وكما يقولون لكنهم - ومع الأسف الشديد - ألّفوا لغير زماننا لمئات السنين مضت من هذا التاريخ... وليس يعاب عليهم أنهم لم يراعوا الأساليب المستحدثة في تأليفاتهم وكتبهم الدراسية وغيرها... نحن نترحّم لهم في اليوم ألف مرة لأنهم قد خلدوا هذا التراث العظيم إلى اليوم وأوصلوه إلينا بفضل مجهوداتهم المشكورة وعلينا نحن الواجب المفروض... أن نواصل السعي خدمةً لجيلنا الحاضر والأجيال المقبلة... بإعادة التأليف والنظم والنهج الجديد وندفع التهمة عن هذا التراث بأنه قديم وبالي لا يتناسب مع عقلية طالب العلم اليوم.

وخلاصة القول: - وأعتذر من التكرار والتطويل - إن الأصول والموازين المستحدثة اليوم من تأليف الكتب المدرسية - خصوصاً - قد اختلفت أشد الاختلاف عمّا كانت عليها في القرون السابقة واستجدت أساليب ومناهج جديدة ينبغي أن تراعى في التأليف على الأخص في الكتب المدرسية - بالتعبير الواضح الصحيح - لاختصار الطريق على الطالب أولاً ولمسايرة الزمان والعصر وما استحدث من جديد ثانياً... وثالثاً لأن العلم غير محدود بزمان وعصر خاص فلكل زمان وعصر لغتة وأساليبه ومصطلحاته.

فمثلاً - كتاب (مغني اللبيب) كتاب في غاية الدقة والمتانة والجودة في تنظيم وتبويب وشرح أصول وقواعد لغة الأعاريب... إلّا أنّ باب العلم لم يغلق... واحتياجنا إلى التجديد والتنوّع لم ينته والطلبة في كل عصر وزمان

ينتظرون منا الجديد لمسايرة الأساليب والأطوار الجديدة وعلى العلماء أن يلبوا هذا الطلب ـ ولم يكتفوا بما ألف قبل ستمائة سنة ـ ويقدموا لنا الجديد الطيب المستساغ ولم يقتصر طلبهم هذا عند حد علوم العربية والمنطق مثلاً... بل يجري ذلك في الفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه الاستدلالي كذلك وغيرها من المعارف التي يتعطش لها أبناء اليوم من طلاب الجامعات وحماة الدين والمعارف الإسلامية.

إنهم يطلبون... أيسر الطرق وأسهل الأساليب ليكون البلوغ إلى الغاية والهدف أخصر وأيسر وفي زمان محدود ومعين... وذلك، لا يتيسر إلاّ بتظافر الجهود من لدن أفاضل العلماء الأعلام ومن الطبقات العليا.

هذا يتصل بالدرس اللغوي . . وأما فيما يتصل بسائر الدروس الحوزوية ، فقد رتب الكاتب الحديث عنها بالنحو الآتيو بادئاً ذلك بالحديث عن الدرس الفقهي :

[حتى زمان قريب من زماننا كان كتاب (الشرائع) للمحقق في القرن السابع. هو الكتاب الوحيد الذي جعله أعاظم العلماء المتن الذي يدور حوله البحوث والشروح... ولعل عدد هذه الشروح يبلغ العشرين وآخرها (الجواهر) وقد طبع مؤخراً في أربعين مجلداً مع بعض التعليقات اليسيرة والهوامش والتوضيحات قام بهذا العمل والمسعى المشكور الحاج شيخ عباس القوجاني المعروف بـ(هاتف) ومع أنه كان ينبغي أن يقوم بهذا العمل الجبار جملةٌ من العلماء ليكملوه بحثاً ودرساً وتحقيقاً ويختموا البحث في هذه الطبعة في عصرنا الحاضر على الأقل لأنه ليس من المنتظر أن يطبع هذا الكتاب الفقهي بهذه السعة مرة أخرى وبتحقيقات جديدة إلاّ أن العمل على أي حال عمل مشكور وسعي مجيد «الكلام نفسه يجري في سائر الكتب المذهبية التي أعيد طبعها مؤخراً وعلى أيدي علماء ومحققين من المستويات العالية شكر الله تعالىٰ مساعيهم وأجزل لهم الأجر والثواب محققين وناشرين» قلت كان كتاب الشرائع للمحقق في الفقه مدار البحث لدى العلماء منذ قرون غير أن آية الله السيد الحكيم قد عدل عن هذا الكتاب إلى العروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي. إن هذا التغيير في المنهج لم يخل بمكانة المحقق رحمه الله لأن العروة الوثقى جاء تعبيراً صحيحاً عن التغيير الذي بدا في أساليب الدراسة وأساليب عرض المسائل الفقهية والرسائل العلمية (الرسالة العملية) (هذا ولا يخفى أنه قد حدث تغيير آخر في أسلوب وإخراج الكتب الفقهية التي توضع بين يدي الناس للاستفادة منها فيه شيءٌ من التوضيح والسهولة واليسر وهذا الكتاب هو (الجامع العباسي) الذي وضعه الشيخ البهائي العاملي للشاه عباس الصفوي. وهذا الكتاب وإن كان في الوضوح والسهولة أقرب من الشرائع إلاّ أن العروة الوثقى قد جاء بسبكٍ جديد وأسلوب سهل وواضح مع تفكيك المشاكل وتحليلها وتيسيرها بحيث نستطيع كل من يتقن القراءة العربية أن يستفيد منه في شؤونه الشرعية)].

[نحن الآن في القرن الرابع عشر والمحقق في القرن السابع وكل هذا الفاصل الزماني لا يمكن أن يكون بلا تأثير في أسلوب وطرح عرض المسائل الفقهية وهكذا القول في كتاب اللمعة الدمشقية والذي هو الآخر كتاب درس وقد شرحه الشهيد الثاني وهذا الكتاب مع ما فيه من الدقة والتحقيق وإشارات مستوفاة بالأدلة لأكثر الفروع إلاّ أنه وعلى أي حال كتاب ألف وشرح قبل مئات السنين ونحن لا نستطيع أن نقبل ذلك من العلماء الأعلام وأمام أعينهم تقدم الأساليب العلمية وتطورها وتغيير مناهجها وكيفية عرضها فالجمود على القديم يجب أن يكون له حدّ معقول نقف عنده وإلاّ رُمينا بالبِلى والجمود. وينبغي أن لا يسوءنا أمثال هذه التهم.

إذاً ـ العروة الوثقى ـ نحن أمام كتاب جديد فيه تسلسل بديع في عرض المسائل الفقهية... هذا النوع من التسلسل هو الذي حكم وأفتى به الزمان ويجب تقبله ونقبل عليه بكل وجودنا وعلى نمطه وضعت (توضيح المسائل للأعلام) الذين جاؤوا خلال هذه الفترة وما يدرينا فلعل الزمان يتقدم ويتطور العرض إلى صور أخرى. وهذا ما كان المظفر يدعو إليه ويطلب العلماء بِمدّ يد المعونة للطلبة ووضع كتب يناسب عصرهم وزمانهم ويختصر لهم الطريق ـ وكما أسلفت ـ إن أبواب العلم ـ أو العلوم ـ قد توسعت وتفرعت وتعددت عمّا كان عليها في القرون الماضية. وعلى الطالب أن يُوفّر الوقت لاستيعاب المزيد من هذه الفروع المستحدثة. كما أن تهذيب الكتب من الآراء المردودة والتي ذهبت موضوعاتها أو لم يكن ممّا يبتلي به الناس فعلاً يجب أن ينال كل العناية والرعاية... واتركوا المكتبة العربية الإسلامية تزخر وتموج وتحتفظ بمئات الألوف من تلكم الكتب القديمة فهي ذخائرها الغالية الخالدة.

٦ ـ ولعلم الأصول وضعوا كتباً للدراسة هي غاية في الإتقان والدقة (المعالم) ثم (القوانين) ثم (الكفاية) للشيخ ملا كاظم الأخوند (أعلى الله مقامه) الذي به ختم علم الأصول في عصرنا الحاضر ومن جاء بعده كانوا أعلا ما يشار إليهم بالبنان كالميرزا النايني والشيخ محمد حسين الأصفهاني والسيد أبو القاسم الخوئي وغيرهم إلاّ أن كلهم يفتخر بأنه تلميذه أو تلميذ تلميذه وهكذا.

وعلم الأصول يقع في مباحث متعددة وإن كان (الأصول) يطلق على الأصول العملية والأصول العقلية وتبقى مباحث الألفاظ خارجاً... إلاَّ أن جميعها باعتبار أنها واقعة في طريق استنباط الأحكام الشرعية الواقعية والظاهرية سميت هذه المجموعة (علم الأصول أو علم أصول الفقه).

يعبرون (مباحث الألفاظ) ثم الأصول أخذ المتأخر يسير على نهج المتقدم وهذه الأبواب التي تتقدم علم الأصول وهي مباحث الألفاظ ما يرتبط بها أو يحوم حولها وإن اتسعت وتشعبت إلى جهاتٍ ونواحٍ أخرى قد لا يكون من الجرأة أن نقول: أن ليس لأكثر هذه المباحث علاقة بمباحث الألفاظ ولا يقع أكثرها في طريق استنباط الأحكام الشرعية إلاَّ أنها وعلى أي حال موجودة... ولعل الأكثر يهتم بها لتمرين الطالب على المناقشات والجدال العلمي كالبحث في القضاء والقدر وبعض القواعد أو القوانين والأسس الفلسفية... وعلى أي حال ففي مجموعها فائدة عظمى للطالب تتفتح آفاق تفكيره على مسائل وبحوث كبيرة عالمية وفلسفية وجدلية لا يستغني عنها ولم يمر بها في غير هذه الفترة من سنين الدراسة.

حيث يجري البحث عنها هنا بإسهاب وتطويل وبصورة مناسبة وموضوعية ونافعة... ومع أن اختصارها وحذف الروافد منها والاقتصار على النقاط المحدودة والنافعة في طريق الاستنباط الفقهي... ليسهل الأمر على الطالب ويقصر له الطريق في طي مراحل علم الأصول ويقلل عدد السنين الطويلة التي يقضيها الطالب في التوفّر عليها والإطلاع على كل مباحثها وأبوابها وفروعها... قلت: مع هذا فهي باقية كما هي بل وآخذة في التوسّع المتزايد.

هذا وقد دأب المتأخرون من الأعلام أن لا يكتبوا هم شيئاً بأقلامهم... بل إنهم يقررون والمستمعون التلاميذ يكتبون ولهذا السبب (وغيره) فقد صدرت مؤخراً تقريرات كثيرة متعددة وفي درجات ومستويات علمية متفاوتة قد تتجاوز العشرين للعلماء العظام المتأخرين الذين أدركنا زمانهم (كالشيخ موسىٰ الخونساري والكاظمي والمشكيني وآغا ضياء العراقي وأخيراً آية الله الخوئي وكلهم من المتأخرين الذين أدركنا زمانهم ومحاضر دروسهم وغيرهم ممّن سبقهم أكثر وأكثر ولكل واحد منهم تقريرات... بل الأصح أن نقول: لكل واحد من

تلاميذهم تقريرات والقسم الأعظم منها مطبوعة وفي متناول يد الطلاب ولقد أحدثت هذه التقريرات صخباً أو قلّ همساً غامضاً بين الطلاب إلَّا أن هذه التقريرات للطالب الذي يريد أن يبقى في بيئته دون التفكير للخروج منها إلى حيز ثان ليكون أنفع له ولمجتمعه... قُلت: لمثل هذا الطالب هو عمل حسن وشاغل لفراغه لأن قراءة هذه التقريرات ومناقشة الآراء المستدلة والمشروطة وحل رموز عباراتها ونكاتِها وتأملاتها ـ كما يصطلحون ـ الدقيقة يحتاج إلى وقت متسع وطويل قد يتجاوز عشرات السنين حتى تتبلور عنده فكرة ناضجة وصحيحة وحتى تكون هذه الفكرة ملكة قوية متنامية تستطيع أن تثبت على رأي أو لتستجد آراء ونظريات مركزة جديدة وهكذا.

أما للطالب الذي يريد أن يحدد الزمان للدراسة فهو مضطر لأن يترك هذه التقريرات والأبحاث الطويلة كلياً ويكتفي مؤقتاً بما كتبوا من نتائج أبحاثهم وكيفية استدلالاتهم على الفروع الفقهية هذه الاستدلالات التي دأب أصحابها في مقام إيرادها على الفروع الفقهية...

أقول: لا هذا ولا ذلك وخير الأمور أوساطها أليست لهذه الآراء والنظريات والبحوث.... خلاصات أو نهايات؟ قد يكون الجواب بالإثبات... فلماذا لا تجمع شتات هذه الآراء والنظريات في كتاب؟ وتوضع بين يدي الطالب؟ ليستفيد منها وليقف ويطلع على آخر هذه النظريات التي اتفقوا على صحتها ولو جزئياً... وبهذا العمل نختصر الطريق ونقصر الوقت ولم نهمل أسماء ثلةٍ من العلماء الأعلام ممّن أفنى زهرة حياته في إحياء الفقه الجعفري ووضع أسسه على قواعد متينة ورصينة.

إن أساس الفقه الجعفري يجب أن يكون من الدقة والمتانة بحيث لا يتداخله الشك والترديد وليست عزيزةً هذه الأعمار التي تصرف في هذا الغرض ولهذا الهدف... ولكن الإفراط والتفريط كلاهما ـ وعلى أي حال ـ مردودان ومذمومان أليس كذلك؟

نعم لا يجوز أن يفوتنا هنا التأكيدات الواردة والاحتياطات الكثيرة اللازمة على من يريد أن يصل إلى مقام الفُتيا... والتحذيرات الواردة في هذا الباب التي تكاد تجعل الوُصول إلى هذا المقام الشامخ... مقام القدرة والتمكّن من إصدار الأحكام الشرعية صعباً وغاية في العصوبة... فإنها من الأمور الصعبة التي لا تنال إلّا بتوفيق منه تعالىٰ ونورٍ يقذفه في قلب من يشاء من عباده الصالحين الأبرار والإعتكاف في المُدن المقدسة عشرات السنين وخوض غمار البحور العلمية مع مختلف طبقات الطلبة والعلماء ليظهر المران والحنكة اللازمة للوصول إلى هذا المقام الشامخ... نعم هذا صحيح... والحديث عن مثل هذا الرجل يختلف عن الحديث الذي يريد أن يرسم مناهج لدراسة الطلبة وكتب معينة تعينهم على الإلمام بجوانب خاصة من المعارف الإسلامية يهيئون أنفسهم للقيام بوظيفة الإرشاد والتبليغ... والبحث في هذا الباب يحتاج إلى متسع من الوقت والكلام وموكول إلى محله المناسب إنشاء الله تعالىٰ.

وعوداً على بدء ـ وكما سبق ـ أن المظفر كان يعتبر (الأصول) الذي كتبه لتلاميذه ـ وهو في هذا الفن من تلاميذ العالم الشيخ محمد حسين الأصفهاني، الحلقة المفقودة بين كُتاب (المعالم) وكتاب (الكفاية) وثم الخوض في خضم هذا الفن الغامر... ولا يعتبر (القوانين) الكتاب الذي يوصل المعالم بالكفاية بل بالعكس يعتبر الاشتغال به مضيعة للوقت وبعد السنين المائة أو المائة والخمسين ـ الفترة بيننا وبين تأليف القوانين ـ فرصة كافية ليشتغل العلماء بوضع كتاب يبين ويشرح مباني هذا الفن للطلبة بصورة سهلة وميسّرة ويعتبر ما كتبه المظفر مجرد إعطاء صورة نموذجية عن الكتاب الذي يجب أن يكتب ويقدم لطلبة ومن المعيب أن تقتصر الجهود على الموجود بل العلم في تقدم أبداً ولا يزال...

ولا يفوتني أن أذكر أني رأيت السيد العالم الفاضل السيد جليل اليزدي في النجف وهو كان يدرس القوانين ونبرات صوته العالية والمتموجة ترن في الجامع الهندي في النجف حوله وله حلقة وجماعة من الطلبة الذين يبدو عليهم الجهد في تفهم واستيعاب توضيحات الأستاذ على القوانين ولعله كان آخر من درس هذا الكتاب في النجف الأشرف.

وفي بعض الحوزات العلمية كان يدرس (القوانين) السيد موسى الصدر أيام والده فيما كان يدرس هو على شيوخه (الرسائل) و(المكاسب) للشيخ الأنصاري التوستري (طيّب الله روحه) ممّا يدل على نباهة ورشده الفكري المتنامي . ولعل (آغا موسى الصدر) تغمّده الله تعالى برحمته ورضوانه كان آخر من درس القوانين .

٧ ـ وفي الفلسفة وعلم الكلام: كانوا يدرسون (منظومة السبزواري) ثم الأسفار للفلسفة وشرح الباب الحادي عشر للفاضل المقداد وشرح تجريد الكلام للعلاّمة الحلي وشرح عبد الرزاق اللاهيجي (مشارق الإلهام) على تجريد الكلام ـ والأول أكثر ؛ لعلم الكلام وبعض الفضلاء كان يدرس شرح الإشارات لابن سينا أذكر منهم العالم الجليل الشيخ محمد تقي الآملي وشرح الإشارات هذا هو للخواجة نصير الدين الطوسي وللإمام (فخر الرازي) صاحب التفسير الكبير شرح على الإشارات طبع مؤخراً طبعة منقّحة ولم يكن هذا قبل هذا معروفاً لدى الطلبة (ويحتوي على فوائد جمةٍ للمناقشات والجدل العلمي والتمرّس على خوض المجادلات اللفظية شأن الإمام فخر في كل مؤلفاته) ولم يعرف السبب في إهمال كتب ابن سينا كما أنه أيضاً لم يعرف السبب الدقيق في إهمال كتب علم الكلام كلياً من الحوزات العلمية خصوصاً في الفترة الأخيرة حيث صار الاتجاه الخاص نحو الفلسفة كلياً ويجوز أن يكون السبب هو تغيير مباني الفلسفة الأساسية (في إصالة المهية ـ وأصالة ـ الوجود) والذي استقرّ الرأي فيها بعد (صدر المتألّهين) والكلاميون كلهم من أتباع الرأي القديم. والبحث ليس هنا محل تقريره وخوضه، واستيعاب الكلام فيه.

قلت للفلسفة منظومة السبزواري أعلى الله تعالى مقامه وليس قبله كتابٌ غدا المنطق بمستوى تهذيب المنطق للتفتازاني وشرحه المعروف بحاشية مُلاّ ليس إلا ، ولمن يقرأ الحاشية يصعب عليه حقاً أن يفهم المنظومة . . أما الأسفار فهو كتاب لا يجرأ على تدريسه إلا أساطين الفن . وما يهمنا من البحث عنهما هنا بعض الإشارات والتلميحات . فمثلاً المنظومة فلسفة في شعر ويكفي هذا القدر من الإشارة وقد كتب الشهيد السعيد (المطهري) عن السبزواري واعتبره من الطبقة الثالثة عشر ممن انتهت اليهم ميراث الفلسفة وقال عنه في مقام ترجمته إنه عالم بالفلسفة . . . وله شعر عربي وفارسي ليس كله بالمستوى اللائق بمقامه ولم يذكر رأيه بالنسبة إلى شعره في المنظومة والمفهوم ان الفلسفة من الدروس الصعبة للطلبة وتدريس الفلسفة نثراً

يحتاج إلى كثير من التوضيح والشرح والبيان. . أما إذا كان شعراً خصوصاً وأن هذا الشعر لم يُسبق بكتب تمهيدية توضح للطالب مبادىء الفلسفة أو مقدماتها ومقاصدها. وقد نظم الفيلسوف. . ويظهر أنه رآه صعباً ومعقداً فكتب عليه شرحاً، ثم رأى أن الشرح أيضاً غير وافٍ بالغرض فأخذ يعلق عليه بتعليقات وهوامش لزيادة التوضيح ودرس هذه المنظومة عدة مرات ولا بد أن قلم التصحيح والتوضيح كان جارياً على هذه المنظومة. ولا يزال أبياتاً منها لا يوفي غرض الناظم أو يخرج عن الأصول والقواعد العربية ويدرس بما في الصدور أستاذ عن أستاذ وقد كتب من ترجم للسبزواري أنه دخل مدينته (سبزوار) ولم يخرج منها طوال أربعين سنة وخلال هذه الفترة الطويلة كان مشغولاً بدراسة الفلسفة وله حلقة ومجموعه من الفضلاء يتلقون عنه الدروس (تغمّده الله برحمته وأسكنه الفسيح من جنته) وقد تخرج على يده من هؤلاء الطلبة أساتذة في الفن لا ينكر فضلهم ومكانتهم العلمية طوال القرنين الماضيين. ولم يجرأ أحد أن يكتب خلاصة رأيه أو آرائه مع كثرة التعليقات والحواشي والشروح على هذه المجموعة وهكذا بقيت الفلسفة (بعد أن نسخت علم الكلام وقضت على المتكلمين) تترنح بين المنظومة للسبزواري والأسفار لصدر المتألّهين الشيرازي .

نعم في الآونة الأخيرة طلبوا من العلامة الطباطبائي أن يكتب في الفلسفة كتاباً مدرسياً خالياً من مشاكل منظومة السبزواري وتعقيداته فكتب رحمه الله تعالى وأجزل له الأجر والثواب (بداية الحكمة ونهاية الحكمة) وهما كتابان وعلى نهج مدرسي ممتاز لا يضاهيهما أي كتاب في نظمه واستيعابه جميع المباحث الفلسفية والنتائج والنهايات التي توصل اليها العلماء في هذا الفن الشريف (فشكر الله تعالى سعيه) على هذا المسعى المشكور والعمل المبرور واعتبر هذا الكتاب في بعض الحوزات من الكتب الدراسية المقرر تدريسه كمقدمة لدراسة الفلسفة العليا عندهم .

غير أن ـ ولا غضاضة ـ يلزم أن نتذكر أن العلامة (قدس سره) في أكثر كتبه يكتنف أسلوبه العلمي نحواً من الغموض ولعل سببه يرجع إلى أنه يلتزم الاختصار والاقتضاب في بيان المسائل العلمية وكان يكتب خلاصات لأمهات المسائل العلمية. . . أو كان قدس سره ينظر إلى المسائل العلمية بأم عينه وهي واضحة وجلية أمامه فيشير إليها بطرف أصابعه، ويظن أن هذه الإشارة كافية للمتعلمين

النابهين الأذكياء وعلى غيرهم رحمة السماء وبركاته ـ فيترك التوضيح الأكثر والأمثلة الموضحة وعادةً يهمل التسلسل العلمي المتبع من قبل العلماء المتقدمين.

نعم بداية الحكمة ونهاية الحكمة يجب أن يوصفا كأساس يبني عليه الفضلاء من جديد ويوسعوه شرحاً وبحثاً وتوضيحاً وهو ـ العلامة ـ في هذين الكتابين قد اتبع نفس الطريقة التي سلكها في كتابه الآخر الموسوم (روس رناليسم) والذي شرحه الشهيد السعيد تلميذه (المطهري) في خمسة أجزاء وأصبح في متناول يد الجميع.

ويجب أن لا يبعد عن أذهاننا بأن هناك كتباً علمية يجب أن توضع في المتاحف لتخليد أسماء مؤلفيها والاحتفاظ بآرائهم مع تجلةً واحترام تُرىٰ.. كم من العلماء عُنوا بشرح أمثال هذه الكتب الغامضة وكشف الستار عن مبهماتها.. فلو أنهم أقدموا على التأليف مع مراعاة الأصول المتبعة في التأليف في كل عصرٍ أما كان أقرب إلى ذوق وفهم الطالب...؟

نحن اليوم بحاجة إلى وضع كتاب يشرح مرامي الفلسفة الإسلامية الشيعية وأبعادها ومقاصدها بأوضح بيان دون العناية بسجع الجمل والأخذ بالمحسنات البديعية المهجورة حتى في شعر الغزل والنسيب لنفهم آخر ما قالوا ولنجتاز إلى المرحلة الثانية وليس للعلم حدود.. أما أن نظل نتعثر في طريق فهمٌ شعر غامض ليس فيه إلا التلكؤ والتعثر في منعطفات الطريق فذاك أمر لو فهمه الطالب مسبقاً لما أقدم على تدارسه.. إنما المؤسف ـ بالنسبة للطلبة في النجف على الأخص ـ أن القليل من الطلبة يجلب انتباههم هذا التعثر. وأن الأكثرية يظنون بأن الطريق هو هذا لا غير لقصور ثقافتهم الفكرية عن خارج جدران مدينة النجف وعن اطلاعهم عن المناهج الدراسية المطروحة في الجامعات وسير العلم والمعارف فيها ويحسبون أن المسائل العلمية إلى هذا الحد من الغموض والإيهام.. غير أن هؤلاء أنفسهم بعد أن يقضوا عبثاً السنين يدركون حَيْف السنين العزيزة التي قضوها وأفنوها في دراسة

ومما يناسب ذكره في هذا المقام أنه عقد أحد الأعلام من المتأخرين ومن الأساتذة البارعين في الفلسفة حلقة لدراسة الفلسفة الإلّهية واجتمع حوله عدد لا يتجاوز العشرين وذلك في أيام زعامة آية الله البروجردي وبعد أن درّس دورة من

الفلسفة على مستوى (الأسفار) لصدر المتألهين الشيرازي إنهال الطلبة على دراسة الفلسفة واتجهوا إليها بحيث بان ذلك في حِلَق الدروس الأخرىٰ في الفقه والأصول الأمر الذي جلب انتباه آية الله البروجردي فأصدر توصياته الخاصة وأوامره المطاعة بتقليص دروس الفلسفة والسماح لعدد معين للاشتغال بهذا الفن أو ـ على الأقل ـ جعله من الدروس الجانبية التي لا تخل بالاشتغال بسائر الفروع.

وهذه الأوامر نفس ما صدر وسبق أن ذكرناه في حياة آية الله الأصفهاني (قدس سره الشريف) صاحب الوسيلة في الفقه.

ومع أن آية الله البروجردي كان يعد هو الآخر من الفلاسفة وقد اشتغل بهذا الفن سنين قبل أن تنتهي إليه الزعامة العامة إلا أنه لم يسمح بتهالك الطلبة وانهماكهم في دراسة الفلسفة بحيث يؤثر ذلك على اشتغالهم بالفقه والأصول والحديث والتفسير..

ولعل السر في ذلك يرجع إلى... أن الفلسفة هي ملخص أو خلاصة آراء الفلاسفة اليونانيين مع شيءٍ قليل أو كثير من التحوير والتطوير ليتناسب مع العقائد الإسلامية والمذهبية.. أو ـ على الأصح ـ فقط لئلا تتنافى مع ما أثر من أئمة المسلمين وآراء فقهائهم والاشتغال بها كلياً والانصراف إليها يجر الطالب إلى ميادين بعيدة الغور إن لم يرم به في متاهات أمثال شيخ الإشراق في إشراق حكمته أو ابن عربي في خصوصه ونصوصه من الكتب التي لا محصل لها آخر المطاف.

نعم إن قليله ضروري للتعرف على طرق الاستدلال والمصطلحات الفلسفية المتداولة.. لأن طريقة الاستدلال المنطقي أو الفلسفي قد دخل بطريق أو آخر إلى علم التفسير والحديث وبالأخص علم الأصول والفقه الاستدلالي كذلك لشيوع هذا الفن بين العلماء الأعلام وكثرة من تخرج منهم وبلغ الذروة والكمال ونال المراتب العالية لا يحصى عددهم حصراً واستيعاباً وجلهم فقهاء وأصحاب زعامات دينية ولهم وجهات نظر مذهبية وإن كانت تشتد هذه الأفكار والآراء في أيام وتخف في أخرى... كما أني لا أريد أن أذهب إلى ما ذهب إليه آية الله (ميرزا مهدي الأصفهاني) عليه رضوان الله ورحماته.. الذي كفّر وأفرط وشط وانحاز وتحايز.. بل الأمر الأحسن والأقرب هو الحد الوسط والأخذ من كل علم على قدر الحاجة. فإنه

كما قيل الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك وأقصاك.

وناهيك أن تعرف أن أوج الفلسفة وشيوعها في الأوساط العلمية الدينية (كان في أيام «صدر المتألهين الشيرازي» و(السيد ميرداماد) وعدد كبير أمثالهم في الشهرة والمكانة والمنزلة العلمية.. ومع ذلك كله فإن الملاصدرا كان مطروداً من الحوزات العلمية ومات في البصرة وبصورة مجهولة.. الأمر الذي يدل على أن الفقهاء كانوا يخالفون منذ القديم التوغل في الفلسفة والإشراقية بالخصوص وكانوا يرغبون دائماً أن يكون القرآن والتفسير والسنة الرائد والدليل الذي يجب أن ينهمك فيه العالم المسلم ويشتغل به اشتغالاً كلياً لأنه المعين الذي لا ينضب.

ويمكن أن يُتصور لهذا الأمر - مخالفة جمع من العلماء للفلسفة والفلاسفة - علل مختلفة ومتعددة.. مثلاً يجوز أن يكون السبب الحسد والغيرة من قبل أولئك الذين لم يتسع عقلياتهم وأفق تفكيرهم لمثل تلكم المعاني الفلسفية الدقيقة والإنسان عدو ما جَهل... ويمكن أن يكون السبب هو أن هؤلاء الفلاسفة قد أوضحوا - وخصوصاً في القرون الأخيرة - ببيان صريح وخالٍ من كل غموض أموراً ومسائل كان الأجدر أن تكون مخفية ومتروكة طيّ الكتمان خوفاً من أن تصل إلى العامة وهؤلاء عقولهم لا تستوعب ولا تهضم كثيراً من هذه المسائل (وقد نقل مثل هذا الجواب من «السيد ميرداماد» الذي هو أستاذ صدر المتألهين الشيرازي) وخلاصة القول إن هذه المخالفة واقعة حتماً من جانب الفقهاء أعلى الله مقامهم لجماعة الفلاسفة والمتفلسفين سواءً الإشراقيين والمشائيين وإن تعددت الأسباب أو وجهات النظر].

* * *

في الختام، يعرض الكاتب على نحو سريع، مجمل النشاط الإصلاحي الذي اضطلعت به مؤسسة منتدىٰ النشر وأساتذتها وغيرها من الأعلام في ميدان الدرس الحوزوي، مصنفاً ذلك علىٰ هذا النحو:

[أما النموذج الذي قدمته جمعية منتدىٰ النشر فهو منطق المظفر والذي كان يلقى علينا كمحاضرات نكتبها بأقلامنا. وقد نال هذا الكتاب إقبالاً شديداً. وأصبح من الكتب الدراسية في النجف لا ينكر ذلك أحد من الفضلاء.

والأصول أيضاً للمظفر وكانت محاضرات ودروساً طبعت مؤخراً ونالت الاستحسان والرضا من لدن عامة أهل الفضل والدِّراسة بهذا الفن وقد قال مؤلفه عنه في مقدمة الكتاب: إنه وضع ليكون الحلقة المفقودة بين كتاب (المعالم) و (الكفاية) وكأنه ينكر (أن يكون قوانين مرزا القمي) الكتاب الموصل بينهما ففي القرن الأخير خُتم علم الأصول بالشيخ ملا كاظم الآخوند. إلّا أن الطلبة يدرسون (القوانين) مع ما فيه ويتحملون في سبيل فهم مطالب مرزا القمي كل الصعوبات والمشاق ويقول أساتذتهم (مدرسو القوانين) لا يفهم من الأصول شيئاً (ويعصدون الكفاية) من لم يقرأ القوانين!! غير أن المظفر كان ينكر ذلك ويقول: الوقت أثمن من أن يضيع في فهم عبارات مرزا القمي تغمدة الله برحمته ورضوانه... نعم لا بأس بتهذيبه وإخراجه من تلكم الصورة المبهمة والمغلقة. وإسدال ثوب جديد عليه يتناسب والحُلل المعروفة اليوم.

هذا وقد قدم آية الله الخوئي على كتاب (أصول المظفر) وفي هذه التقدمة يظهر مكانة المظفر والعمل المشكور الذي قام به. كما قدم وكتب الشيخ مرتضى آل يس على كتاب المنطق.

ومن النماذج والكتب الجديدة الدراسية التي صدرت بمساعي المظفر وتوجيهاته (أصول الفقه المقارن) للأستاذ السيد محمد تقي الحكيم... ولم يكن معروفاً في النجف. إلّا أن المظفر هو الذي سنّ وأرشد إليه وأمر بوضع كتاب متكامل فيه ليكون بدايه للدراسات العليا في هذا الباب.

وهنا كلام خاص خارج عن الموضوع وهو نقل آراء المخالفين ودرسها. ومناقشة هذه الآراء كانت من السنن المفروضة في الحوزات العلمية وعلى أساس من هذه الفكرة وضع أمثال كتاب (الخلاف) للشيخ الطوسي. إلّا أن هذه السنة قد نُسيت في القرون الأخيرة ولعل السبب تشعب الفروع وتوسّع نطاق المعلومات التي يجب على الطالب أن يتفرغ لها. أو أمر آخر لا يناسب المقام ذكره.

كان أسلس وأوضح أسلوباً وبياناً من (المظفر) كما كان يقول هو ويعترف ويشيد به ويشير إليه. وقد طبع له أخيراً كتاب (المعالم الجديدة) وسنتحدث عنها.

ولعل فكرة وضع هذا الكتاب وبهذه الصورة المبسطة والأنيقة والنظم الجديد في دراسة (علم الأصول) كانت مستوحاة من بطانة المظفر أو منه (رحمهما الله وأجزل لهم الأجر والثواب) لما كانت بينهما من الصداقة. والصلات الوثيقة. ولأن الدعوة إلى تأليف كتب دراسية جديدة كانت مثار البحث والجدل في أكثر مجالس النجف الأشرف ونواديها العلمية.

وكان الشيخ علي تامر والشيخ عبد المهدي مطر يقومان بتدريس علوم البلاغة في كلية الفقه وعلى مستوى (مختصر المطول) للتفتازاني. وكانت دروسهما تأتي على شكل (كراسات) كنا نستنسخها بأقلامنا (ويومئذ لم تكن أجهزة الكي المعروفة اليوم موجودة) وقد تمّ الكتاب وعمل فيه المظفر قلمه بالتقديم والتأخير وإضافة الأمثلة اللازمة. وكان هذا الكتاب موجوداً يتداوله الطلاب بالبحث والدرس (وأرى أن هذا الكتاب وبعدما أجريت عليه من التعديلات اللازمة من الكتب الدراسية النافقة).

وفي عقائد الشيعة ألّف المظفر كتاباً صغيراً نال رضا الجميع حتى قال عنه الأستاذ (كذا) وسار إلى جنب كتاب أصل الشيعة وأصولها. ولعله يفوق هذا الكتاب من جهات.

وفي التاريخ الإسلامي أو بالأصح (السيرة النبوية) ألّف المظفر كتاباً لا يزال مخطوطاً في كراسات موجودة في النجف الأشرف.

وكان التاريخ الإسلامي من الدروس المهمة التي عُنيَت بتدريسه (كلية الفقه) ولم يكن هذا الدرس معروفاً في النجف... إلاّ أن الشيَخ محمد الشريعة ألقى محاضرات مطولة في الكلية شرح فيها أهمية ضرورة ودراسة التاريخ الإسلامي وفي السنين الأولى لدراسة الطلبة على الأقل ومن يومه (أي من يوم عينّ عميداً لكلية الفقه) اعتبروا التاريخ الإسلامي أحد الفروع الذي يجب أن يدرس ويمتحن الطالب عليه كسائر الدروس.

وفي القواعد الفقهية. ألّف الشيخ محمد الشريعة كتاباً كان يلقي علينا للاستنساخ لم ينل كل الرضا لأنه كان يوجز البحث ويراعي فيه آراء الشيخ آغا ضياء العراقي الأصولي المعروف في القرن الأخير. ولا تزال كراساته موجودة. والملاحظ على هذه الدروس عدم التوضيح والبيان الكافي بالأمثلة التطبيقية اللازمة. ولا أنسى أن المظفر أشار عليه بإعادة كتابة هذه الدروس وتقديمها إلى الكلية للنظر فيها وتقريرها.

وكان الشيخ محمد جواد آل الشيخ راضي والشيخ محمد جواد القسّام يدرسون المتون العربية كتمهيد لدراسة نهج البلاغة فقرأنا عليهما كتاب ابن المقفع (كليلة ودمنة) فلم يرتض منهما المظفر ذلك. وكان يأمر بقراءة متون عربية أسهل وأيسر ليكسب الطالب ملكة بيان عربية مرنة. ويبتعد ـ ما أمكن ـ عن الكتابات الغامضة والمعقدة والمتعثرة بين الكلمات والاستعمالات البعيدة عن الذهن وعن التداول كمتون (المعري) خصوصاً في كتابه الفصول والغايات ورسالته إلى (ابن القارح) (رسالة الغفران).

والفاضل المقداد (وهو كما يظهر من ترجمته تلميذ الشهيد الأول رضوان الله تعالى عليهما) مؤلف اللمعة الدمشقية من أفاضل العلماء في عصره وقد أجاد فيها كتبٍ وألّف كل الإجادة وهو يشير في أكثر الموارد إلى نقاط الخلاف بين الإماميين وغيرهم وطرق استدلالنا واستدلالهم ويعنى عنايةً جِدُ خاصة بالاستنارة من آراء العلماء المعاصرين له ويعتمد في تفسير الآية كلياً على ما ورد في تفسيرها عن الأئمة المعصومين عليهم السلام وأسلوبه البياني والاستدلالي في غاية الدقة والمتانة وخالية من أي نوع من الغموض والتعقيد... إلا أن قراءة هذا الكتاب كان يقضينا وقتاً طويلاً ومسهّراً كثيراً وقد أمرنا بكتابة أكثر أبوابه بأقلامنا لما في النسخة التي كانت بأيدينا من الأغلاط المطبعية ورداءة الخط وعدم وضوحه ويقول عنها إنها كتبت لغرض الحفاظ على الكلمات العربية الغريبة.

واقتصر الأستاذ المظفر في تدريس التفسير على كتاب (كنز العرفان) للفاضل المقداد القرن الثامن وكتاب (حقائق التأويل) للشريف الرضي ومع أنه كان يوصي

بقراءة المتون العربية السهلة المبسطة. وكان كتاب زبدة البيان للمقدس الأردبيلي القرن العاشر في نفس الموضوع أوضح وأسلس بياناً ومع أن آيات الأحكام (وهي زهاء خمسمائة آية) تأتي أثناء دراسة الفقه الإستدلالي وكان المفروض أن تكون قراءة التفسير في غير آيات الأحكام. . . قلت: مع هذا كله فقد فرض علينا كتاب (كنز العرفان) ولعله كان لشغفه الخاص بأسلوب وبيان الفاضل المقداد. . . أو لجهات أخرى خفيت علينا] .

* * *

أخيراً ، يتحدث الكاتب عن المعرفة الإسلامية والنشاط المواكب لها بنحو عام ـ فضلاً عن الدرس الحوزوي الخاص بالفقه وأدواته ـ ملمحاً إلى أهمية تنظيم وتطوير المعرفة ، منتهياً من ذلك إلى العودة إلى مؤسسة منتدى النشر ، مقارناً بين المؤسسة الحوزوية في النجف وبين سواها ، مبيناً مدى الإخلاص الذي تقوم عليه الحوزة العلمية في النجف . . وقد بدأ حديثه عن هذه الجوانب جميعاً الإشارة إلى المعارف الإسلامية ـ كما أشرنا ـ بهذا النحو :

[ومن المسائل المهمة برامج التخصص في المعارف الإسلامية ، فلو ألقينا نظرة عابرة عامة على العلوم والمعارف الإسلامية وقسمناها بصورة بدائية وسريعة إلى علوم ومعارف عقلية ونقلية . واعتبرنا علم الكلام وأصول الفلسفة وأصول الفقه من العلوم العقلية. وأن التفسير والحديث والتاريخ مثلاً من العلوم النقلية ففي مثل هذا التقسيم نحتاج إلى كل قسم من هذه الأقسام كتباً خاصةً به ومجموعة من الطلبة يسيرون على نهج تلكم الكتب. . ومن هنا يظهر ميزة رأي (المتندائيين) الذين كانوا يرون أن الأخذ من كل علم بطرف من هذه المجموعات أمر غير صحيح وغير موفٍ بالغرض وتختلط المسيرة على الطلبة في الدورة الدراسية التي يقضي سنيها في إحدى الجامعات وأن التخصص وتعيين مسيرة الطالب معنى الدراسة أمر لازم وضروري. . . هذا ولا أنسىٰ أنه كان في النجف الأشرف في الفترة التي عشناها. . . أفاضل من الدرجة الراقية ولهم حلقات دراسية واسعة لكل فرع من هذه الفروع. . . إلا أن الطالب ـ وبسبب فقدان التوجيه الصحيح من لدن هيئات خاصة يتابعون مسيرة الطلبة في تطبيق المناهج ـ كان يتردد بين هذه الحلقات ويأخذ من كل حلقةٍ بطرف. . . يتركها متى

شاء. . . أو يستمر إذا أعجبه الاستمرار «ولا ينكر أن لهذه الحرية الدراسية أثرها الواضح في تنمية العبقريات الناشئة كما أن هذه الحرية تنبذ الآخرين ممن لم تتوفر لديهم العقلية الواعية للدراسة . . . وهذه الطريقة هي التي أقرها أحد الفلاسفة الكبار في التاريخ القديم في أكاديميته حيث كان ـ على ما نقل ـ يقبل الطالب وبشروط معينة للالتحاق بالأكاديمية دون أن يقيد بنوع أو منهج خاص للدراسة بل يترك ليلتحق بالدورات الدراسية الدائرة في الأكاديمية وينتخب ما يريد وما يوافق ذوقه وتمايله النفسي ورشده العقلي. . . ولعل هناك من يقضي السنين ثم يترك الكلية دون أن يتوفر على دراسة خاصة أو علم معين. . . وحتى في مثل هذه الحالة ـ والطالب يتحول بين الحلقات الدراسية المختلفة ـ ما كان القائمون بشؤون الكلية يطلبون منه الخروج والانفصال عن جماعتهم إلى أن يجد أو يحس هو من نفسه العجز عن الاستمرار في الدراسة ويفضل الانفصال ليلتحق بعمل آخر أنفع له» نعم هذا صحيح ـ كما أشرنا إليه سابقاً يضاف إليه أن في جامعاتنا عدد غير قليل من الطلبة الذين قضوا سنين الدراسة وأشرفوا على سنين العجز والجمود وعدم القدرة على القيام بأي عمل وهم باقون ضمن إطار الجامعة دون التمكن بصورة من الصور من إبعادهم أو إخراجهم. . . على أن وجود عدد قليل أو كثير من أمثال هؤلاء في الجامعة الدينية لا يضر بشؤون الجامعة بأي حال من الأحوال. . . في حين يمكن أن تلقى تبعتهم على الهيئات المشرفة على سير الدراسة في الجامعة وتوجيهاتهم الخاصة والتفريق بين الطالب والمجدّ والمتواني. . . وهكذا نرى ونتلمس الدواعي الملزمة لوجود مناهج معينة وكتب خاصة لكل فرع إلى جانب الدراسة الحرة ـ ومن هنا كان يشتد النكير من (المنتدائيين) حين كانوا يرون من يلتحق بدورة قبل أن يستكمل الدورات السابقة أو يحضر حلقات أعلام لا يستفيد منهم. وكترك دُوات العلوم العربية واللغوية والالتحاق بالدورات التي تليها كالعلوم العقلية مثلاً. . . ويظهر أثر هذه الدراسة المنهجية بعد التخرج كذلك وحين الالتحاق بالأعمال الإرشادية. . فالخطيب المنبري يحتاج إلى معلومات خاصة غير ما يحتاجه أئمة الجماعة والمساجد مثلاً. . . وربما احتاج الطالب ـ وفي بعض الحالات ـ إلى اتقان لغة أجنبية خاصة. وكذا المرجع حين يريد أن ينتخب عليه أن يختار من بين كل فئة من

يحتاجه إلى عمل خاص ومعين وممن توفرت فيهم الشروط والكفاءات اللازمة للمهمة التي يوفدون إليها. . . ولئلا يوفد إلى عمل معين من لم تتوفر فيه الشروط اللازمة لذلك العمل.

وخلاصة الكلام. . . إن الهيئات المشرفة على سير الحركة العلمية في الجامعات الدينية من الضروري أن تكون لها الهيمنةُ الكاملة على سير الدراسات في الحوزات سواء التخصصية أو العامة . . وأن لا يكون الاتجاه فقط نحو سير التقدم العلمي في الفقه والأصول. بل يجب أن تكون العناية متجهة نحو جميع الفروع العقلية والنقلية ويشمل جميع الاتجاهات والخطوط المرسومة لكل مسيرة. . . وفي كل فرع يجب أن تكون المسيرة واضحة المعالم والأساليب. . وبهذا النحو من السير المنظم في الدراسات الجامعية الدينية يكون النتاج الحاصل أكمل وأنجح شأن الجامعات الأخرى وأسسها المتبعة وهذه المسيرة العلمية المنظمة في صفوف الطلبة والتخصص المنهجي المعلوم والواضح المعالم هي التي تسد الثغرات أمام المهملين والمتوانين وهي التي تغلق الأبواب أمام أصحاب الدعاوى الفارغة ويرضى كل فرد بما يملك من اللياقة والقابلية والكفايات العلمية والثقافية وبطبيعة الحال تكون صورة المراتب والدرجات العلمية هرمية ويتعين الفرد الشاخص والزعيم الذي يجب على جميع الأمة السير خلفه والأخذ برأيه وتسليم مقاليد الأمور إليه وتخويله السلطات اللازمة في الحوزات بالتقديم والتأخير والأخذ والعطاء .

هذا ـ وأعتذر من التطويل ـ وإن النظم في جميع الشؤون العلمية والاجتماعية هو الغطاء الشامل الذي يجعل النتاج أكثر وأوفر وأكمل ـ وبه. . . يحق لنا أن نأمل ـ أقوى الأمل ـ باستمرار المسيرة في عرض المعارف الإسلامية أمام العالم في إطار محدد ومعلوم. . وهو الرأي الذي أقره كل من الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والسيد مهدي بحر العلوم (تغمدهم الله جميعاً برحمته ورضوانه) حين تفرد الأول في الشؤون العلمية والثاني اختص لإصدار الفتيا. . . كما أحالوا سائر شؤون الحوزة العلمية إلى الثالث. . وهذا معنى قناعة كل فرد بماله من الكفاية والقابلية. كما أحالوا أمر الصلاة جمعة وجماعة للشيخ طه نجف (ره) .

وأنا اليوم حين أُعيد على ذاكرتي هذه الصُوَر العجيبة والذكريات الخاصة بتلكم الظروف أقف مبهوتاً أمام هذا الزخم من الآراء والنظريات الإصلاحية... وأتفهم وأدرك مدى مسامحة الناس مع المتندئين ومراعاتهم وعدم التصدي لهم بالطرد والتشريد... فإن هذه الآراء كانت تتعرض بالصميم من الوضع السائد ذلك اليوم... وتنال من عواطف كثير من المتصدرين والمتضدين لشؤون الطلبة... ولا أرى حاجة لذكر أسماء البعض أو إيراد أمثلة توضيحية على هذا المدعى بل أكتفي بالقول بأن الذي كان... والوضع السائد في حوزتنا النجفية ذلك اليوم هو الذي أوحى بمثل هذه النظرات الإصلاحية.

٨ ـ وبعد... فإن الذي كان يقود حركة (المنتدى) في النجف الأشرف الشيخ محمد رضا المظفر... وهو في علم أصول الفقه تلميذ الشيخ محمد حسين الأصفهاني... وفي الفلسفة تلميذ السيد مرزا حسن البجنوردي صهر آية الله الأصفهاني (السيد أبو الحسن) وكان الذي يشرف على سير دراسته وتنشئته العلمية الشيخ محمد حسن المظفر مؤلف (دلائل الصدق) وفي الأخلاق والعرفان كان يحضر مجالس الحاج مرزا علي آقا القاضي... وهو حين كان ينادي بإدخال النظم الجامعية في حوزات النجف الدينية... ما كان يجهل المقاييس المتبعة هنا وهناك فلكل منها أهدافه وأغراضه ومراميه... فإن الطلبة حين يتقاطرون على الجامعات العالمية يتابعون أغراضاً دنيوية هي دون أهداف رجل الدين الذي يمحصُ حياته لطلبِ المعارف الإسلامية يقصد بعمله وجه الله واليوم الآخر ولأجله يهوِّن على نفسه كل مشقة وعناء ويستطيب خشونة العيش ومرارة الحياة وأن ظروفه والحالة هذه تختلف عن ظروف أولئك الذين يستعجلون سنين الدراسة ليصلوا أسرع وفي زمان أقل إلى العيش الرغد ونعومة الترف... نعم كان هذا كله نُصب عيني الأستاذ المظفر ويُلَقِن الطلبة بغاية المطاف من مسيرة دراستهم ونتائج جهودهم... وأنها ليست إلا تهذيب الأخلاق والوصول إلى الكمالات النفسية العالية... فلئن كان الطلبة في العقد الأول من تأريخ تأسيس الجامعات والمدارس العلمية في المدرسة النظامية (في التاريخ القديم) عيونهم ترصد الباب عن أن يدخل وزير أو رئيس دولةٍ ويقع اختياره على أحدهم ليكل إليه أحد مناصب الدولة أو يمنحه قدراً من المال أو... فإن هذا



صورة لفريقٍ من أساتذة وتلامذة مدرسة منتدى النشر في النجف الأشرف



عميد وأساتذة كلية الفقه في النجف الأشرف ـ وهم جلوساً من اليمين : الشيخ عبد الهادي حموزي ـ الشيخ عبد المهدي مطر ـ السيد محمد تقي الحكيم ـ السيد هادي فياض ـ الشيخ عبد الهادي الفضلي وخلفهم مجموعة من طلبة الكلية .

الأمل كان معدوماً أو مفقوداً في النجف الأشرف والأبواب كانت مغلقة بوجوههم والطرق موصدة أمامهم.. إلا طريق الهداية والإرشاد والأخذ بيد الناس إلى نهج التعاليم الإسلامية مهما كانت الظروف والأحوال ومهما آلت إليه النتائج من بذل الجهود وبلوغهم المراتب العالية في العلم والعرفان... أما أهل القصور الشامخة والمراكب الفخمة والمناصب الدولية العالية... فهم ليسوا من الطلبة الدينيين ولم يجرِ الحديث عنهم في أي حال من الأحوال!!

ومع هذا كله... فإن التعثر الذي يسود الجامعة الدينية (أقصد كان يسود الجامعة الدينية آنذاك) كان بحد لا يُطاق وإدخال النظم عليه أمر ضروري لا محيص عنه.. ولئن تمزق شملهم وتفرق ما تقدم، يجسّد الحديث عن الدرس الحوزوي بنحو عامد وأنك من خلال تجربة الكاتب التي عايشها قبل نصف قرن].

* * *

وخلال السنوات الأخيرة ظهرت وجهات نظر تصب في الاتجاه الإصلاحي المذكور نفسه، ومنها: ما كتبه حديثاً أحد المنتسبين للحوزة العلمية في النجف وهو الشيخ عبد الجبار الرفاعي؛ حيث يعرض لحوزة النجف وأحياناً مطلق الحوزات) تحت عنوان:

* * *

ملاحظات على
النظام التعليمي في الحوزة العلميّة في النجف
نظرة تقويمية لدواعي التجديد

يعود تشكيل النظام التعليمي السائد في الحوزة العلميّة إلىٰ قرونٍ عديدةٍ خلت، حين كان المحدّثون ورواه الحديث، وحفّاظ القرآن، والمهتمون بالعلوم الشرعية يتحلّقون حول شيوخهم في المساجد، ليحفظوا ويدوّنوا عنهم ما يتلقّونه منهم.

ولعل المسجد النبوي الشريف شهد بدايات ولادة هذا النظام في عصر الرسول صلى الله عليه وآله، عندما كان الصحابة يرجعون في كل مشكلاتهم إليه، وإن كان العصر الذي أعقب عصر الرسول صلىٰ الله عليه وآله، قد شهد تبلور الصورة الواضحة لشكل هذا النظام.

ثمّ تنامىٰ هذا النموذج بمرور الزمن، حتىٰ كان مسجد الكوفة، في العصر الذي تزامن مع سقوط الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية، مكتظاً بالدارسين من طلاب العلوم الإسلامية، الذين كانوا ينهلون من معين الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، حيث بلغ عددهم مئات الدارسين.

وهكذا بشكل تدريجي تعاظم دور المساجد الأخرىٰ، كمساجد البصرة، ومصر، والشام، وبغداد، وخراسان، والري، والأندلس. . . وغيرها، كمراكز تعليمية نموذجية في الحياة الإسلامية.

وقد تجاوزت وظيفة المساجد التعليمية علوم الشريعة لتهتم باللغة العربية وآدابها، والكلام، والفلسفة، والتاريخ، بل شملت العلوم الطبيعية أيضاً. إذ ولدت بذرة الكيمياء، والفيزياء، والرياضيات، والهيئة. . . وغيرها، في المساجد.

* * *

وعلىٰ طول التاريخ الإسلامي تميزت المساجد في دورها كمراكز علمية أساسية في الحضارة الإسلامية، تخرج فيها عدد كبير من الرواة، والمفسرين، والفقهاء، والنحاة، والمؤرخين، والفلاسفة، والمتكلمين، والأطباء، والفلكيين... وكل رجال العلم والمعرفة في التاريخ الإسلامي.

وتواصل هذا الدور العظيم حتى ظهور التعليم الحديث في العالم الإسلامي، في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين، حينما تأسست المدارس الحديثة، وتم تصنيف مراحل الدراسة علىٰ أساس آخر، غير تلك المراحل التي ألفها التعليم في المساجد والمدارس التي أنشأها المسلمون، كما اعتمدت المدارس الحديثة مناهج مدرسية غير المناهج السابقة في التعليم في المساجد والمدارس الإسلامية.

وهكذا بدأ الانفصال بين التربية والتعليم في المدارس الحديثة وبين الدين، حتى أقصي الدين في مدارس خاصة به عُبِّر عنها بالمدارس الدينية، وانتهت تلك التجربة التاريخية الرائدة التي أسسها المسلمون في التعليم بالمساجد، وقدّموا بها للإنسانية أعظم الإنجازات العلمية، التي ساهمت مساهمة فعالة في دخول الغرب عصر التنوير.

من هنا لم يتردد الطلاب في الانخراط في المدارس الحديثة، حتىٰ أقفرت المساجد والكتاتيب بما ازدانت به من متعلمين وحركة علمية قرون عديدة.

إلّا أن بعض المساجد كانت استثناءً من ذلك، فاستمر عطاؤها في العصر الحاضر، وواصلت نفس التجربة الإسلامية كما نلاحظ ذلك في: مساجد النجف الأشرف، وقم المقدسة، والأزهر، والزيتونة، والقرويين في فاس... وبعض المساجد الأخرىٰ في شبه القارة الهندية، وأفريقيا.

وإن اضمحلت أخيراً الحركة العلمية في بعض تلك المراكز، بعد تحديث التعليم في الأزهر، والزيتونة، والقرويين، بينما أكدت مساجد النجف الأشرف، وأيضاً قم المقدسة، وفاءَها للنظام التعليمي الذي توارثته منذ العصر الإسلامي الأول.

وقد شهدت السنوات الأخيرة نمواً واسعاً في حركة الدراسة والتدريس، بعد أن تزايدت أعداد الطلاب الذين انتسبوا للحوزة العلمية ، كما قفز الاهتمام بالدراسات الإسلامية في العالم الإسلامي ، وكذلك في الجامعات الغربية ، بعد النهضة الإسلامية الحديثة .

إلّا أن هذا الاضطراد في إعداد الطلاب كماً ونوعاً، (إذ أن نسبة كبيرة منهم ممن تحصلت على تعليم أكاديمي في الجامعات المعاصرة، قبل التحاقهم في الحوزة) لم يواكبه تطوير أو إعادة نظر في شكل النظام التعليمي وطرق التدريس الذي نشأ وترعرع في المساجد، والذي لا يشبهه أي نموذج آخر في التعليم في العالم المعاصر، خارج إطار الحوزات العلمية.

النظام التعليمي في الحوزة والتحديات الراهنة:

تسعىٰ هذه الورقة للإجابة علىٰ سؤال تكررت إثارته في أروقة الحوزة العلمية، وتقاطعت الإجابات عليه، وربما كان غموض وإبهام الإجابة عليه سبباً في تسرب بعض الطلاب من ذوي القابليات الفريدة في الجد والذكاء، ومغادرتهم للحوزة.

ويتمثل هذا السؤال في مدىٰ استجابة النظام التعليمي المتوارث بالوفاء بالمتطلبات الفقهية، والمعرفية للدولة والمجتمع المعاصر، ودوره في تلبية الحاجات الإنسانية المتغيرة، والإجابة علىٰ الأسئلة المتنوعة في حقول أسلمة المعرفة، وتفقيه النظم، وتقنين التشريعات، في ضوء المعطيات الحاضرة التي ما انفكت تنجزها الدراسات الحديثة في علم الإنسان (الأنثربولوجيا)، وعلم الاجتماع (السوسيولوجيا)، وعلم الدلالة (السيمياء)، وعلم النفس (السيكولوجيا) ... وغيرها من الدراسات الإنسانية.

وبتعبير آخر:

إن النظام التعليمي الموروث في الحوزة، والذي هو نتاج زمان آخر وظروف

أخرىٰ لا يمكنه أن ينتج عقلاً آخر، غير ذلك العقل الذي أنجز تلك المدونات المعروفة في التراث الإسلامي.

من هنا بات هذا العقل يكرر نفسه لأنه يخضع للآليات ذاتها، تلك الآليات التي تأسست قبل قرون.

ولعل هذه الإشكالية من أعمق الإشكاليات التي يواجهها التفكير الفقهي الحاضر في الحوزة، لأن الآليات التي خضع لها هذا التفكير عبر قرون عديدة، واتّجه في ضوئها هذا التراث الفقهي الكبير، أضحت نفسها قيداً يحول بين العقل الفقهي وعصره، لأن ذلك التراث يمارس سلطة علىٰ هذا العقل، فحين يفكّر الفقيه فإنه مضطر لاستعارة تلك الأدوات التقليدية التي ورثها عن سلفه، فيقرأ النص (الكتاب الكريم، والسنة الشريفة) بأدوات تعود إلىٰ الأمس، بعد تغييب النظام الذي تعلّم في ظله لأدوات اليوم.

إذن تتلخص الإشكالية في استعارة الفقيه لعقل آخر ينتمي إلىٰ غير عصره، والتفكير من خلاله، علىٰ أساس معطيات ذلك العصر، فيما تبقىٰ تحديات هذا العصر ومشكلاته مُغيّبة، لأن كل عقل يُبصر مشكلات عصره، فكيف يُتاح لعقل عاش قبل عشرات السنين أن يُبصر مشكلات عصرنا هذا؟!

وقد عبر السيد الشهيد محمد باقر الصدر عن هذه الإشكالية بـ(النزعة الاستصحابية)، موضحاً تأثيرات نوع الأبحاث التي يدرسها الطالب في صياغة عقله، وطريقة تفكيره، حيث يقول:

(الاستصحاب الذي قرأناه في علم الأصول، طبقناه علىٰ أساليب العمل، وطبقناه علىٰ حياتنا، فكنا نتجه دائماً إلىٰ ما كان، ولا نفكر أبداً في أنه هل بالإمكان أن يكون أفضل مما كان؟!... لا بد لنا أن نتحرر من النزعة الاستصحابية، ومن نزعة التمسك بما كان حرفياً بالنسبة إلىٰ كل أساليب العمل، هذه النزعة التي تبلغ القمة عند بعضنا، حتىٰ إن كتاباً دراسياً مثلاً ـ أُمثّل بأبسط الأمثلة ـ إذا أُريد تغيير كتاب بكتاب آخر في مجال التدريس ـ وهذا أضئل مظاهر التغيير ـ حينئذ يُقال: لا ليس الأمر هكذا، لا بد من الوقوف. لا بد من الثبات والاستمرار علىٰ نفس

الكتاب الذي كان يدرس فيه الشيخ الأنصاري رضوان الله عليه، أو المحقق القمي رضوان الله عليه.

هذه النزعة الاستصحابية التي تجعلنا دائماً نعيش مع أُمة قد مضىٰ وقتها، مع أمة قد ماتت وانتهت بظروفها وملابساتها، لأننا نعيش بأساليب كانت منسجمة مع أُمة لم يبقَ منها أحد، وقد انتهت وحدثت أُمة أُخرىٰ ذات أفكار أُخرىٰ، ذات اتجاهات أخرىٰ، ذات ظروف وملابسات أُخرىٰ. . .)".

لقد صدر هذا الكلام قبل ربع قرن تقريباً من أبرز رواد التجديد في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، في حديث مكاشفة وصراحة مع طلابه الذين أراد لهم أن يكونوا رواد التجديد في الحوزة.

ولم يكن هذا الصوت أول صوت انطلق في الدعوة للإصلاح والتحديث، وإنما سبقته بسنوات عديدة أصوات أُخرىٰ تكرر نداؤها غير مرة.

محاولة جادة لحل المشكلة في الحوزة العلمية في النجف:

قد يحسب البعض أن هذه المشكلة نتاج العقد الأخير الذي تبلور فيه المشروع الإسلامي في إيران، ولكن الصحيح أن هذه المشكلة تعود إلىٰ ما يربو علىٰ خمسين سنة ـ وإن أضحت هذا اليوم أعمق وأكثر إلحاحاً من ذي قبل ـ فهذا الشيخ محمد رضا المظفر وهو من رواد التجديد البارزين في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، يحدثنا عن النواة الأولى لولادة المشروع الإصلاحي في الحوزة، والتي تشكلت من مجموعة من الطلاب المستنيرين، الذين كان علىٰ رأسهم هو آنذاك، كما نقل ذلك عنه تلميذه الشيخ محمد مهدي الآصفي فيما وجده في مذكراته المخطوطة:

(لقد سايرت بنفسي فكرة الإصلاح حتىٰ هذه الساعة ـ ويقصد بذلك عام ١٣٥٨ هـ، وهو عام تدوين المذكرات ـ. وسأعطيكها وليدة نشأت في أحضان الاجتماعات الصامتة، ومرت عليه أدوار وتجارب غذتها حتىٰ اشتد ساعدها، ونمت نمواً يناسبها. شأن الكائنات الحية. ولعلها الآن في دور الشباب اليافع المتحفز،

يحتاج إلىٰ غذاء كثير من الجهود الجبارة والتضحية النادرة حتىٰ يكمل رجلاً سوياً.

تألفت ابتداء من ١٣٤٣ هجرية أي قبل ١٥ عاماً ـ يقصد عن تاريخ تدوين مذكراته هذه ـ عدة جماعات أشبه بجمعيات سرية، أو مجالس تمهيدية للتفكير في طريق الإصلاح واكتساب الشعور العام، وأتذكر جيداً أني اشتركت في إحداها، وكنت كاتبها، وأعضاؤها كلهم من الشباب الديني ذلك اليوم، وجماعات أخرىٰ هناك، منها التي اتصلنا بها، وهم أكبر منا طبقة، اشترك أكثرهم بعد ذلك في «منتدىٰ النشر». ومحورها الثلاثة المعروفون بالصفوة، أو أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع: «الشيخ محمد جواد الحجامي، والشيخ محمد حسين المظفر، والسيد علي بحر العلوم»...

ويقول في محل آخر من هذه المذكرات:

هذا هو التفكير الذي يبدو ظاهراً علىٰ بعض رجالنا، الذين كانوا يعلمون بإصلاح نواقص الدراسة العلمية في معاهد النجف الأشرف، فإن هذه النواقص كفقدان نظم التربية والتدريس، في الإمتحانات، والمواد العلمية، والأوقات، والشهادات، كانت تهدد المفكرين منا بشلل الحركة العلمية في مستقبل الجامعة القريب، أو البعيد، يوم أن اصطدمت سفينة هذه الجامعة القديمة بتيار هذا العصر الجديد، فهزتها في بحر متلاطم...).

فليست المشكلة إذن وليدة هذه الأيّام، وإنّما هي مشكلة قديمة تعود جذورها إلىٰ ما يقارب المائة سنة، حين بدأ الإحتكاك بين المسلمين والغرب، وبدأ التحوّل في أساليب التربية والتعليم إلىٰ المدارس الحديثة، واتّجه اهتمام الاستعمار نحو المراكز العلميّة التاريخيّة للمسلمين، التي قادت المقاومة في عدّة مناطق من بلاد المسلمين التي تعرّضت للغزو الغربي، وسعىٰ المستعمر الكافر في ذلك الحين لتفتيت هذه المراكز والمؤسّسات، ولكن المقاومة العنيفة التي قامت بها هذه المراكز، حالت دون تلك المخطّطات التي نفّذها الغازي الكافر وأعوانه.

لكن هذه المقاومة، بالمقدار الذي نجحت في تحقيقه من إجهاض مخطّطات

الإستعمار العدوانيّة، ساهمت مساهمة كبيرة في الإنكفاء علىٰ الذات، والتشبّث بكلّ ما هو قديم، ورفض أيّ دعوةٍ للتجديد والإصلاح.

وبناءً على ذلك حصل خلط بين المفاهيم، فلم تميّز الحوزة بين التبادل الثقافي والغزو الثقافي، كما لم تميز بين التفاعل الحضاري والصراع الحضاري، أو بين التجديد والتفتيت، وبين الإصلاح والهدم، وبين التحديث والتغريب.

وبذلك تترست الحوزة إزاء كلّ محاولة تجديد وإصلاح، وتعرض المجددون فيها لشتىٰ التهم والافتراءات، وحاول بعضهم أن يتستّر علىٰ أفكاره فضلاً عن أعماله، وقد ألمح الشيخ المظفّر لذلك بقوله:

«... ولا أزال أحتفظ بمحاضر جلسات جماعتي الأولىٰ تلك، وبمذكّراتي الخاصّة عنها وعن غيرها، وهي علىٰ بساطتها تمثّل لي مقدار التكتّم والخوف الذي كان يساورنا، وكان عملنا وتفكيرنا مقتصراً علىٰ تفقّد المفكّرين من أصحابنا الذين يحسّون بالداء مثلنا، وبالرغم من مواصلة الجلسات، والتفكير طيلة عام واحد، لم نستطع أن نخرج صوتنا من غرفتنا إلاّ بعض الشيء، ولم نستطع أن نضمّ إلينا أكثر من عشرة أعضاء...»

إذن هذه الإشكاليّة قديمة، والتفكير في حلّها والإجابة عليها قديم أيضاً، إذ يمكن أن نتلمّس بداياته في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، في الفترة التي سبقت تلك الجهود التي قام بها الشيخ المظفّر وصحبه، فالسيّد هبة الدين الشهرستاني كان من أوائل الروّاد علىٰ ذلك الطريق، وقد حفلت تجربته في الدعوة للتجديد بالكثير من المشكلات.

ثم توالى من بعده آخرون، وما زال يحمل الراية في كلّ جيل طائفة من الرجال، الذين تبصّروا بواقعهم، ووعوا عصرهم، وعرفوا بزمانهم، و«العارف بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام.

وكما أشرنا فيما سبق، سنحاول البحث في إشكاليّة الموائمة والاتّساق بين

متطلّبات الدولة والمجتمع الإسلامي المتغيرة، وبين النظام التعليمي في الحوزة العلميّة، ومدىٰ نهوضه بتلك المتطلّبات.

من هنا ينبغي أن نسلّط الضوء علىٰ كلّ مفردات هذا النظام، بما في ذلك الكتب والمقرّرات الدراسيّة، وأساليب التدريس، ومسألة التخصّص العلمي في الدراسات الإسلاميّة، والشهادات، والمصير العلمي الذي من المتوقّع أن يؤول إليه طالب الحوزة العلميّة بعد دراسته، أي طبيعة ونوع الوظيفة الإجتماعيّة التي سيتولّاها الطالب بعد دراسته.

وعلىٰ هذا الأساس لا بدّ أن نراجع كلّ تلك المفردات في إطار الواقع الذي يحياه الطالب في الحوزة، والعلاقة بين هذا الواقع والعالم الذي يحيط به في مستجدّاته المعرفيّة، والثقافيّة، والأخلاقيّة، والإجتماعيّة، والفنيّة...، لكي تتّضح لنا ملامح الصورة التي تكيّفت فيها العلاقة بين الطالب في الحوزة العلميّة، والعصر الذي يعيش فيه.

المناهج الدراسيّة المتعارفة:

المراحل المعروفة للدراسة في الحوزة العلميّة هي ثلاث مراحل:

١ - مرحلة المقدّمات.

٢ - مرحلة السطوح.

٣ - مرحلة البحث الخارج.

وتتّفق المرحلتان الأولىٰ والثانية في إلتزام الطالب بكتبٍ محدّدةٍ فيهما، فيما تكون الدراسة حرّة خارج الكتاب في المرحلة الثالثة، حين يحضر الطالب علىٰ أيدي الأساتذة الذين يلقون بحوثهم المعمّقة في الدراسات الفقهيّة والأُصوليّة.

ويدرس الطالب علوم عديدة في المرحلتين الأوّليّتين، تتوزّع تلك العلوم بين

ما هو أساسي، كالنحو وعلوم اللغة العربيّة، والفقه، وأُصول الفقه، وبين ما هو مساند، وفيما يلي تعداد سريع لعناوين الكتب التي دأب الطّلاب علىٰ دراستها في دراساتهم في مرحلتي المقدّمات والسطوح:

١ ـ النحـو:

كتاب الهداية في النحو، وشرح قطر الندىٰ وبل الصدىٰ لابن هشام، وشرح ابن عقيل علىٰ ألفيّة ابن مالك، وشرح ابن الناظم (بدر الدين) علىٰ ألفيّة أبيه (محمّد بن مالك)، وشرح السيوطي علىٰ ألفية ابن مالك، ومغني اللبيب لابن هشام، وشرح الرضي علىٰ الكافية.

٢ ـ الصـرف:

مختصر الصرف، وصرف مير، وقسم الصرف في شروح ألفية ابن مالك، وشرح النّظام للحسن بن محمّد النيسابوري.

٣ ـ البلاغـة:

البلاغة الواضحة لعلي الجارم، وجواهر البلاغة لأحمد الهاشمي، وشرح المختصر للتفتازاني، والمطوّل للتفتازاني.

٤ ـ المنطـق:

حاشية ملاّ عبد الله علىٰ التهذيب، كتاب المنطق للشيخ محمّد رضا المظفّر، شرح الشمسيّة لنجم الدين عمر بن علي القزويني الكاتبي، وقسم المنطق في منظومة السبزواري، وقسم المنطق في كتاب الشفاء لابن سينا.

٥ ـ الفلسفـة:

بداية الحكمة، ونهاية الحكمة للسيّد محمّد حسين الطباطبائي، وقسم الحكمة من منظومة السبزواري، والأسفار الأربعة لصدر المتألّهين، و الشفاء لابن سينا.

٦ ـ علم الكلام:

شرح الباب الحادي عشر للعلاّمة الحلّي، وكشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد للعلاّمة كذلك.

٧ ـ الفقه:

الرسالة العلميّة لأحد المراجع، وشرايع الإسلام للمحقّق الحلّي، والروضة البهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة للشهيد الثاني، والمكاسب للشيخ مرتضىٰ الأنصاري.

٨ ـ أُصول الفقه:

معالم الدين للشيخ حسن بن الشهيد الثاني، وأُصول الفقه للشيخ محمّد رضا المظفّر، والرسائل للشيخ الأنصاري، وكفاية الأُصول للآخوند الخراساني.

فيما يدرس بعض الطّلاب كتاب دروس في علم الأُصول (وهو ثلاث حلقات بثلاث مستويات متدرّجة) للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر.

تلك هي الكتب المتعارفة للدراسة في الحوزة العلميّة، وقد لا يدرسها الطلاب بتمامها، كما يفعل البعض في الإكتفاء بحاشية مّلا عبد الله، أو منطق المظفّر في دراسة المنطق.

وقد يهمل آخرون بعض العلوم ولا يتعاطونها كالفلسفة، فيما يهتمّ غيرهم بدراسات أُخرىٰ كعلوم القرآن والتفسير، والدراية وعلم الحديث.

وقد يستبدل بعض الطّلاب كتباً بغيرها، كما يفعل البعض في دراسة كتاب القوانين للمحقّق القمّي، بدلاً عن أُصول المظفّر، وربّما جمع آخرون بينهما.

ولكنّ هذا هو المنهج المدرسي المتوارث، عبر سنين مديدة، والذي لم يخترقه أي كتاب جديد، فيما عدا كتاب أُصول الفقه للشيخ محمّد رضا المظفّر، الذي ألّف قبل ما يربو علىٰ ثلاثين عاماً، وكتاب دروس في علم الأُصول الذي ألّفه السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر قبل خمسة عشر عاماً، وإن كان الكتاب الأخير ظلّ محصوراً بين أقليّة من الطّلاب حتّىٰ الوقت الحاضر، لكنّ الكتاب الأوّل (أُصول

المظفّر) تمكّن من زحزحة كتاب القوانين للمحقّق القميّ، وحلّ محلّه قبل سنوات عديدة.

بعد هذا العرض والتعداد السريع لمفردات المقرّر المتعارف الذي يدرسه الطالب، نحاول أن نلاحظ مقرّر اللغة العربيّة (النحو، والصرف، والبلاغة)، ومدىٰ وفائه بدوره المناط به في تعليم العربيّة لغير الناطقين بها، واستيعاب قواعدها النحويّة والصرفيّة وتنمية الحسّ البلاغي والذوق الفني للمتعلّم، عند مباشرة أساليب اللغة العربيّة، وتمكينه من الكتابة والتأليف به طبقاً لأساليب البيان الحديثة فضلاً عن التحدّث بها.

وكذا سنلاحظ مقرّرات الفقه، ومدىٰ نهوضها بحاجات الدولة الإسلاميّة التشريعيّة، وأسلمة المؤسّسات الإقتصاديّة والإجتماعيّة.

وهكذا سنحلّل مقرّرات أُصول الفقه، لنتعرّف علىٰ إمكاناتها في تأمين القواعد اللازمة لعمليّات الإستدلال الفقهي الجديدة، في تفقيه مؤسّسات الدولة والمجتمع.

كما سننظر في مقرّرات العلوم العقليّة (المنطق، والكلام، والفلسفة) وعلاقتها بالفلسفات الحديثة التي ظهرت في العالم الغربي، وامتدّ تأثيرها في تيّارات الفكر والثقافة في العالم الإسلامي، في القرن الأخير.

وهل استطاعت هذه المقرّرات أن تنقل الطالب إلىٰ هذا العصر، أم إنّها توقّفت به عند النظريّات والأفكار، والشبهات التي ظهرت قبل قرون عديدة.

مناهج اللغة العربيّة:

العربيّة هي لغة القرآن الكريم، وعليها يتوقّف فهمه، ووعي مضامينه، كما إنّ فهم السنّة الشريفة التي احتوتها المدوّنات الحديثيّة، يتوقّف علىٰ إتقان هذه اللغة.

ومن المعلوم إنّ القرآن الكريم والسنّة الشريفة، هما محور العلوم الإسلاميّة، والمصدر الأساسي لاستنباط الأحكام الشرعيّة.

من هنا أضحىٰ التمكّن من العربيّة في المطالعة والقراءة، والتكلّم والمحادثة، والكتابة والتأليف، هو البوّابة الوحيدة التي يمكن أن يصل من خلالها طّلاب العلوم الشرعيّة إلىٰ التفقّه في الدين، ومن ثمّ القدرة علىٰ استنباط الأحكام الشرعيّة.

وعلىٰ هذا الأساس اتّفق العلماء علىٰ أنّ التمكّن من العربيّة لا بدّ منه لطالب العلوم الشرعيّة، فقد قال المرحوم الشيخ محمّد رضا الإصفهاني المسجد شاهي في كتابه وقاية الأذهان :

«إنّ الراغبين في استنباط الأحكام الإلهيّة من الكتاب والسنّة ، يجب أن تكون لهم ممارسة باللغة العربيّة كي تكون العربيّة بالنسبة لهم طبيعة ، لا تطبّعاً ، وقريحة ، لا تكلّفاً» .

وهذه مسألة واضحة، لا تحتاج إلىٰ مزيد بيان، أو إقامة برهان، إذ كيف يتسنّىٰ لمن لا يعرف اللغة العربيّة، أن يفهم النصوص المقدّسة للكتاب والسنّة، ويستنطقها ويستظهر معانيها.

ولذلك كانت العربيّة لغة العلم والثقافة في طول التأريخ الإسلامي، فلا تجد طالباً للعلم في ديار المسلمين (من غير العرب) لم يتمكّن من العربيّة في المكالمة والكتابة، فضلاً عن القراءة، فيما كان العلماء المسلمون في كلّ أنحاء العالم الإسلامي (من الأندلس إلىٰ الصين)، قد صنّفوا كلّ تآليفهم باللغة العربيّة، في مختلف الفنون والمعارف، حتّىٰ كان الكثير من علماء اللغة العربيّة المعروفين من العلماء المسلمين غير العرب، واحتفظت معاجم الأدباء، ومراجع تَأريخ الأدب العربي بتراجم الكثير من الشعراء من غير العرب.

* * *

أمّا الكتب التي تعارف الطّلاب في الحوزة العلميّة علىٰ دراستها (وجُلّ هؤلاء الطّلاب من غير العرب)، في المنهج الدراسي للّغة العربيّة، بفروعه التي أشرنا لها فيما سبق، فإنّ هذا المنهج يستهلك من الطالب جهداً وزمناً كبيرين، قد يستغرق عدّة سنوات، في دراسة تلك الكتب، واستظهار القواعد التي تشتمل عليها، متنقّلاً بين كتب النحو، إلىٰ الصرف، والبلاغة، وهو يعاني معاناة كبيرة في شرح عبارات

تلك الكتب، وفهم معانيها، وهو يطمح إلىٰ إتقان العربيّة واستيعاب آدابها، إلّا أنّه سيفاجىء في نهاية المطاف، وبعد سنوات من الجهود المضنية، أنّه لم يبلغ هذا الهدف، كما هو معروف الآن في الحوزة العلميّة.

إذن ما هو السبب في عدم وصول الطالب إلىٰ ذلك الهدف، الذي استهلك عدّة سنوات من حياته؟!

السبب يكمن في الأسلوب الخاطىء الذي يجري فيه تعليم اللغة العربيّة لغير الناطقين بها، بالإعتماد علىٰ كتب ومقرّرات دراسيّة لم تؤلّف لذلك الغرض، فضلاً عن إنّها تعود لما قبل مئات السنين.

وقد أشار لذلك الشهيد الشيخ مرتضىٰ المطهّري بقوله:

«في الحوزة العلميّة يدرسون الأدب العربي، ولكن بطريقة مغلوطة، بحيث إنّ الطّلاب بعد سنوات من الدراسة لا يتعلّمون اللغة العربيّة، على الرغم من أنّهم يتعلّمون قواعدها، فلا يقدرون على التكلّم، ولا الكتابة بها».

* * *

بينما نلاحظ في الأساليب الحديثة لتعليم اللغة لغير الناطقين بها، كما في كافّة الجامعات الحديثة هذا اليوم، إنّ أي طالب أجنبي لا يعرف اللغة التي تعتمدها تلك الجامعة التي التحق بها، تدخله تلك الجامعة دورة لغة مكثّفة معدّة للطلاب الأجانب من غير الناطقين باللغة التي تعتمدها، وبعد فترة زمنية لا تتجاوز السنة في الغاب، يتمكّن ذلك الطالب من هذه اللغة الجديدة قراءة، وكتابة، ومحادثة.

إنّها ليست معجزة، وإنّما كلّ ذلك يتمّ بالإعتماد علىٰ منهج خاصّ، وضعه خبراء في اللغة، وطرق التدريس، وعلم النفس اللغوي (سيكولوجيّة اللغة)، وإتّباع أحدث الأساليب في التدريس، التي تعتمد علىٰ وسائل الإيضاح، والرسوم والصور التوضيحيّة، من خلال الفانوس السحري، والسينما التعليميّة، وكذلك المختبرات الصوتيّة.

مع الحرص علىٰ تهيئة بيئة لغويّة خاصّة، يُمنَع فيها المتعلّم من استعمال لغته

الأُم، كما يلتزم المعلّم باللغة المراد تعليمها، ويُلزِم المتعلّمين بذلك، من حين دخول مدرسة اللغة حتىٰ مغادرتها.

بهذا الأسلوب يُتقِن الطلاب غير العرب المنتسبون إلىٰ الجامعات العربيّة اللغة العربيّة، ويتخصّصون فيها بعد في آدابها، وربّما أصبحوا من الأُدباء والنقّاد باللغة العربيّة.

* * *

ما ينبغي أن يتوفّر عليه طالب الحوزة العلميّة من اللغة العربيّة هو:

القراءة الصحيحة للنصوص العربيّة القديمة والمتأخّرة، والتحدّث والنطق بهذه اللغة بمستوىٰ يؤهّله للخطابة والحوار بها مع الناطقين باللغة العربيّة.

وكذا ينبغي أن يكون قادراً علىٰ الكتابة والتأليف بهذه اللغة، كما هو حال السلف الصالح من العلماء، وطّلاب العلوم الإسلاميّة (من غير العرب)، بمستوىٰ يتناسب مع أساليب البيان المعاصرة باللغة العربيّة.

ومن المعروف أنّ مثل هذا المستوىٰ يندر أن نجده لدىٰ طلّاب الحوزة اليوم، إذ حتىٰ بعض الذين يجيدون العربيّة، وربّما حاول بعضهم أن يكتب بها، فإنّه يجهل الأساليب المتأخّرة في البيان العربي، المستعملة في الدوريّات والكتب المؤلّفة حديثاً.

وهنا لا بدّ من إلفات النظر إلىٰ مسألة فقهيّة، بشأن نمو اللغة العربيّة (وأي لغة أُخرىٰ كذلك)، وتطوّر أساليب البيان والتعبير فيها، باعتبار أنّ اللغة ظاهرة إجتماعيّة حيّة تتكيّف وتتطوّر تبعاً لمجمل الظروف الإجتماعيّة، والثقافيّة، والدينيّة، والحضاريّة التي يعيشها المجتمع.

وعلىٰ هذا الأساس يتغيّر البيان من عصر لآخر في اللغة، إذ أنّ كلّ عصر ينتج أسلوباً خاصّاً، وكيفيّة خاصّة في التعبير، وفي ضوء ذلك تمكّن المختصّون في فقه اللغة من اكتشاف عصر بعض النصوص المجهولة التأريخ، أو اكتشاف بعض النصوص المنحولة في عصر متأخّر عن العصر الذي يُزعم انتماء النصّ له.

وتأسيساً علىٰ ما سبق فإنّ أساليب البيان والتعبير شهدت تطوّراً كبيراً في

القرن العشرين، بل ذهب بعض النُقّاد إلىٰ أنّ البيان العربي تخطّىٰ مرحلتين في هذا القرن، ودخل في المرحلة الثالثة .

والمتابع للإنتاج الأدبي العربي في المائة سنة الأخيرة، يمكنه ملاحظة الإختلاف بوضوح بين تلك الألوان الثلاثة في التعبير.

وربّما تسارعت وتيرة التغيير في أساليب البيان في السنوات القادمة، بعد أن تحوّل العالم إلىٰ قرية صغيرة (كما يقال)، نتيجة لانتشار وسائل الإتّصال من هاتف، وتلكس، وفاكس، فضلاً عن الراديو، والتلفزيون، . . . وغيرها، وما ينجم عن ذلك من غزو لغوي، وتفاعل لغوي، واتّصال حضاري، وغزو فكري، وتبادل ثقافي.

بناءً علىٰ ذلك كيف يستطيع طالب الحوزة، أن يواكب حركة الثقافة، والتيّارات الفكريّة الحاضرة في الساحة العربيّة، التي لم يعد يشغلها شيء سوىٰ التراث الإسلامي، وما تسميّه بالأُصوليّة، إذا كان هذا الطالب لم يتمكّن من التحدّث بالعربيّة، فضلاً عن القدرة علىٰ استيعاب آليات التعبير المعاصر فيها، والذي قد يجد بعض المثقفين من الإسلاميّين العرب أنفسهم، مشكلات جمّة في تحليل مضمون بعض الكتابات التي تحتشد فيها طائفة كبيرة من المصطلحات المعاصرة في العلوم الإنسانيّة؟!

وهل يتحسّس هذا الطالب الذي وقع في أسر منهج اللغة العربيّة التقليدي في الحوزة، جمال القرآن، والصور المتنوّعة للتعبير الفنّي فيه؟!

وهل إنّ الأسلوب الذي يعتمد علىٰ كتاب المختصر والمطوّل، في دراسة البيان العربي، يخلق عند الدارس الحاسّة الجماليّة التي تلامس النصوص الفنيّة، أم أنّ قواعد البلاغة والبيان التي صاغها التفتازاني، طبقاً للمنطق الأرسطي، تخفي الذوق الفنّي، وتُغيِّب الإحساس بالجمال الذي ينبع من الوجدان، وليس من العقل وأدواته القانونيّة البرهانيّة؟!

وممّا ينبغي التذكير به هنا إنّ أحداً من كبار الأُدباء العرب المعاصرين، لم يدرس المختصر أو المطوّل.

لم تتوقّف مشكلات الطّلاب غير العرب في تعلّم اللغة العربيّة، وآدابها، في المشكلات المتقدّمة فحسب، وإنّما برز تحدٍّ آخر ساهم في تعقيد هذه المسألة، ويتمثّل هذا التحدّي في الحركة التي ظهرت في السنوات الأخيرة بنقل مجموعةٍ من الكتب الدراسيّة في الفقه، وأصول الفقه... وغيرها.

فابتعد الدارس في الحوزة هذه المرّة مسافةً نائيةً عن العربيّة، حين توفّرت له الكتب المدرسيّة في الحوزة بلغته الأمّ، ولم يعد محتاجاً للكتاب المدرسي العربي، وهو الذي كان يعاني صعوبات بالغة في شرح واستيعاب ذلك الكتاب، ونصوصه المكثّفة باللغة العربيّة.

وهكذا تضاعفت المسافة بين طلّاب العلوم الإسلاميّة واللغة العربيّة، إذ بدلاً من أن يجري تغيير في مناهج اللغة العربيّة، بما يضمن تأهيل الطالب لغويّاً في فترة مناسبة، فإنّ الطالب حيل بينه وبين العربيّة التي لم يكن لديه خيار فيما مضىٰ، سوىٰ الاعتماد علىٰ المراجع والكتب الحوزويّة المدرسيّة المصنّفة فيها، بينما صار يجد الآن هذه الكتب والمراجع بلغته الأمّ التي لا يحتاج والحال هذه إلىٰ جهد وعناء حين مراجعتها.

مناهج الفقه:

يعود تأريخ أوّل كتاب فقهي يبدأ طالب الحوزة في دراسته إلىٰ ما يزيد علىٰ السبعة قرون، حيث عاش الشيخ نجم الدين جعفر بن الحسن المعروف بالمحقّق الحلّي في الفترة ما بين (٦٠٢ ـ ٦٧٦ هـ). مؤلّف كتاب شرايع الإسلام، الذي هو أوّل كتاب فقهي يدرسه الطالب، ثمّ ينتقل بعد ذلك إلىٰ كتاب اللمعة الدمشقيّة، الذي هو من مصنّفات القرن الثامن الهجري، حيث عاش الشهيد الأوّل مؤلّف هذا الكتاب في الفترة ما بين (٧٣٤ ـ ٧٨٦ هـ)، فيما عاش الشهيد الثاني صاحب الشرح علىٰ اللمعة في الفترة ما بين (٩١١ ـ ٩٦٥ هـ).

إمّا الكتاب الثالث والأخير الذي يدرسه الطالب في السطوح، وهو كتاب المكاسب، فقد عاش مؤلّفه الشيخ مرتضىٰ الأنصاري في الفترة ما بين (١٢١٤ ـ ١٢٨١ هـ).

وبذلك يكون قد مضىٰ علىٰ تدوين الكتاب الأوّل في منهج الفقه في الحوزة أكثر من سبعمائة، بينما مضىٰ علىٰ أحدث كتاب يدرسه الطالب (وهو كتاب المكاسب)، أكثر من مائة وثلاثين عاماً.

وممّا لا شكّ فيه أنّ المؤلّف محكوم بمشكلات عصره، والتحدّيات الزمنيّة التي تواجه المجتمع الذي يعيش فيه، وكذا يمثّل ما يضيفه ذلك الإطار الحياتي الذي ينتمي إليه، إذ ليس بالإمكان أن يتجاوز الإنسان مشكلاته الحاضرة، ويتأمّل في معالجة مشكلات أُخرىٰ يفترض تجدّدها في العصور اللاحقة.

ولم يشأ أولئك الفقهاء العظام رضوان الله عليهم الذين تركوا لنا هذه الثروة الفقهيّة، أن يتجاوزوا مشكلات العصور التي عاشوا فيها، فقدّموا إجابات دقيقة وتفصيليّة علىٰ تلك المشكلات، ووجد الإنسان المسلم صياغة أمينة لمواقف الشريعة من الحوادث والقضايا التي كان في حيرة منها.

وبذلك كان الفقيه واعياً لحاضره، متنبّهاً لما للزمان والمكان والظروف الأُخرىٰ التي أحاطت به من تأثيرٍ في إحداث موضوعات أُخرىٰ للأحكام، وتغيير وإعادة تشكيل موضوعات تتناسب معها أحكام غير أحكامها.

فالفقيه الذي يكتشف مواقف الشريعة في مشكلات عصره، ويستطيع أن يبلور رؤىٰ الشريعة بما يتناسب مع ذلك العصر، هو الفقيه الذي يتمكّن أن يواكب حركة التطوّر الإجتماعي، والعلاقات المتغيّرة في الحياة الإجتماعيّة.

وقد أوضح أحد المراجع هذه المسألة بقوله: (... إنّ الزمان والمكان عنصران أساسيّان في الإجتهاد، إذ بلحاظ العلاقات الحاكمة في السياسة والإجتماع والاقتصاد في أحد الأنظمة، لعلّ حكماً جديداً يطرأ علىٰ مسألةٍ ما، كان الحكم السابق عليها فيما مضىٰ يختلف، بمعنىٰ أنّ الإحاطة الدقيقة بالعلاقات الإقتصاديّة والسياسيّة والإجتماعيّة، جعلت نفس ذلك الموضوع - بالظاهر - موضوعاً جديداً، فيستتبعه قهراً حكماً جديداً، ينبغي للمجتهد أن يكون محيطاً بأُمور زمانه ...).

* * *

في ضوء ما سبق هل استطاعت الكتب المقرّرة للدراسة في الفقه أن تمكّن

دارسها من استيعاب عنصري الزمان والمكان المتغيّرين؟

وهل إنّ كتاباً يعود إلىٰ ما قبل سبعمائة عام (شرايع الإسلام)، أو حتىٰ ما قبل أكثر من مائة وثلاثين عاماً (أحدث كتاب يدرسه الطالب في مقرّر الفقه، وهو المكاسب) أن يستوعب مشكلات الحياة المتجدّدة والمتغيّرة ،التي حدثت بعد تدوينه، مع ملاحظة أنّ وتيرة التغيير الإجتماعي قد تسارعت في السنوات الأخيرة، بسبب التقدّم التقني وما استتبعه من إنفجار معرفي، وتطوّر هائل في وسائل الإتّصال؟

وهل يستطيع طالب العلوم الإسلاميّة، الذي يبقىٰ مدّة طويلة منكبّاً علىٰ دراسة تلك الكتب، وقد لا يتوفّر لديه وقت إضافي بالمقدار الكافي للإطّلاع علىٰ غيرها من دراسات معاصرة، هل يستطيع والحال هذه أن يحيط إحاطة دقيقة بالعلاقات الإقتصاديّة والسياسيّة والإجتماعيّة في عصره، ومن ثمّ يكتشف رأي الشريعة المنسجم مع تلك المتغيّرات؟

لكي يتّضح الجواب علىٰ هذه الأسئلة وغيرها، ممّا يدور حول وفاء المنهج المقرّر للدراسة في الفقه بالحاجات الراهنة للمسلم المعاصر، نحاول أن نسلّط الضوء علىٰ هذا المقرّر وصلاحيّته للدراسة والتدريس في النقاط الآتية:

١ ـ من المعلوم أنّ الكتب المذكورة لم يصنّفها أصحابها لغرض أن تكون منهجاً مدرسيّاً في الحوزة العلميّة، وإنّما تمّ تبنّيها كمقرّر دراسي بعد عصر المصنّف.

وهنالك فرقٌ كبيرٌ بين الكتاب المدرسي وغيره من الكتب، كما قرّر ذلك علم التربية وطرق التدريس، واعتمد التعليم في العصر الحاضر علىٰ تلك المعطيات، فتمّ تدوين الكتب المدرسية في ضوء المواصفات التي حدّدها هذا العلم.

فالكتاب المدرسي لا بدّ أن يتميّز بالتدريج والتسلسل المنطقي للمباحث، بحيث يتمّ توزيع الموضوعات فيه كمّاً وكيفاً من الأقلّ إلىٰ الأكثر، ومن الأبسط إلىٰ الأكثف تبعاً للعمر الزمني للطالب، حيث يبدأ الكتاب بإعطاء معلومات أوليّة ميسّرة في كلّيّات العلم المراد تدريسه. بمعنىٰ أنّه يستوعب ألفباء العلم في أوّل الأمر، ثمّ ينتقل الدارس إلىٰ الكتاب الثاني الذي يتدرّج مع الدارس، فيرتقي في كميّة ونوع المعلومات التي يقدّمها له، علىٰ أساس ما بلغه في سيره المدرسي ونموّه العلمي...

وهكـذا يتحرّك الـطالب عبر مـراحل محـدّدة بصورةٍ تـدريجيّـة، حتّىٰ يستـوعب تمـام مباحث ذلك العلم.

وبنـاء علىٰ ذلـك لا بدّ أن يُصـاغ الكتاب المـدرسي بعبارات واضحـة سهلة، خالية من التعقيد والتكثيف والإبهام، كما تتوفّر الكتب المدرسيّة وبالذات في المراحل الأُولىٰ للتعليم علىٰ أمثلة مبسّطة منتزعة من واقع الحياة التي يعيشها الدارس، وعادةً ما تجعل في نهاية كلّ موضوع عدّة تمرينـات لشحذ ذهن الـطالب واختبار قـابليّته في استيعاب المادّة وتمثّلها.

بينما لا تتوفّر كتب الفقه ومعظم الكتب الأُخرىٰ في بقيّـة العلوم التي يدرسهـا الطالب في الحوزة علىٰ ذلك، لأنّ هذه الكتب ألّفها مؤلّفوها لبيان آرائهم وما وصـل إليه البحث العلمي في عصرهم، وغالباً ما كان المؤلّفون القدماء يعتـبرون مصنّفاتهم موجّهة للعلماء والبـاحثين من أمثـالهم، فيعمدون إلىٰ صيـاغة أفكـارهم بلغةٍ مكثّفـةٍ ودقيقةٍ وموجـزة، وربّما لجأ بعضهم إلىٰ صياغـة العبارات بـأساليب مـوهمة ومبهمـة وملغّزة، تبعاً لعرف علمي كان شائعاً آنذاك.

ولـذا يواجـه الطالب جهـداً كبيراً في تحليـل مضمون هـذه الكتب، ومعـرفـة دلالات ألفاظها، والمعاني التي يمكن استخلاصهـا من مجموع عبـاراتها، حتّىٰ أصبـح فنّ شرح العبـارة من الفنون المهمّـة التي يطمـح الطالب لبلوغهـا، فيضطرّ الـطالب أحياناً لـدراسة المـادّة غير مـرّة، فضلاً عن دراسـة أكثر من كتـاب أحيانـاً في عرض واحد في نفس العلم.

وقد يفهم الطالب في بعض الحالات الفكرة بشكلٍ واضح جليّ من الأُستاذ، إلّا أنّه يحتار هذه المرّة في تطبيق تلك الفكرة علىٰ العبارات في الكتاب المقرّر.

وبعبـارةٍ أُخرىٰ: بـدلاً من أن تكون عبـارة الكتاب هي الـدليل علىٰ الأفكار التي ذكـرتها في عنـاوينها، تكـون الفكـر واضحـة ـ من خـلال شرح الأُستـاذ ـ أمّـا استفـادتها من نفس العبـارة فهو أمـرٌ صعبٌ ودقيق يحتاج إلىٰ دُربـة خاصّـة لا يتقنهـا الطالب إلّا بعد جهودٍ مضنية.

وربّـما توهّم بعض الـطلّاب وجود تـلازم بين أهميّـة الكتـاب المـدرسي وعمق

مباحثه ودقّتها، وبين غموض عباراته وتعقيدها وتلغيزها.

وهكذا يكون الهمّ الأساسي للطالب في الحوزة، تحصيل القدرة علىٰ تفكيك العبارات المعقّدة، وإرجاع الضمائر التي تعود أحياناً علىٰ مسألة أو عبارة أو كلمة في صفحات سابقة من الكتاب.

ولعلّ الجهد المكثّف والوقت الكثير اللذان يستهلكهما الطالب في تحليل العبارات وفهم مضامينها يحولان أحياناً بين الطالب وبين مناقشة الفرضيّات أو النظريّات، التي دلّت عليها تلك العبارات، لأنّ العقبة الأساسيّة في دراسة مادّة الكتاب هي فهم العبارات، فحين يجتاز هذه العقبة بعد عناء كبير، يشعر أنّه بلغ هدفه في دراسة الكتاب.

٢ ـ عبّرت تلك الكتب الفقهيّة عن مشكلات عصرها الذي تمّ تأليفها فيه ـ كما ألمحنا لذلك قبل قليل ـ.

٣ ـ وفي الوقت الذي ضمّت الكتب الفقهيّة المقرّرة للدراسة في الحوزة، تلك المباحث التي تعتبر مباحث ليست ذات أثر عملي في الحياة المعاصرة، لم تشتمل علىٰ مسائل أُخرىٰ حدث بعضها بعد تدوين تلك الكتب في العصر الحديث، وهي تمثّل هموماً يوميّة في حياة المسلم، وتحديات راهنة للفقيه المعاصر.

إذ يمكن أن نجد أمثلة لهذه المسائل في: أسواق المال (البورصات)، البنوك، الشركات العملاقة، المعاملات التجاريّة الحديثة، التأمين، مسائل التنمية، مشكلات الإنتاج والتسويق والإستهلاك، القانون الدولي، نقل وزرع الأعضاء، أطفال الأنابيب، التلقيح الصناعي، الهندسة الوراثيّة، غير المسلمين في الدولة الإسلاميّة، نُظم الدولة، . . . وغير ذلك.

من هنا تتّضح إشكاليّة عدم إمكان المنهج الفقهي المقرّر للدراسة في الوفاء بمتطلّبات المسلم المعاصر، إذ مع أنّ المنهج لا يحتوي علىٰ هذه المسألة، فإنّه في الوقت نفسه يغيّب الطالب في مشكلات تنتمي إلىٰ عصورٍ أُخرىٰ.

وربّما نجم عن ذلك أن يعيش العقل الفقهي للطالب حركة إرتداديّة، بالإقلاع عن الإطار الزمني والحضاري للعصر الذي هو فيه، والعودة إلىٰ عصور

سالفة ، والعيش مع أمّة أخرى ميّتة ، وبحسب تعبير السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر المتقدّم: (... نعيش مع أُمّة قد مضىٰ وقتها، مع أُمّةٍ قد ماتت وانتهت بظروفها وملابساتها...).

٤ ـ تمّ تصنيف المباحث في هذه الكتب علىٰ أساس تجزيئي، يخلو من التنظير والتقنين، بمعنىٰ أنّ تدوين هذه الكتب كان بطريقة تقسيمها إلىٰ الأقسام التقليديّة في عرض المباحث الفقهيّة وهي:

القسم الأوّل: العبادات.
القسم الثاني: العقود.
القسم الثالث: الإيقاعات.
القسم الرابع: الأحكام.

وقد احتوىٰ كلّ قسم علىٰ مجموعة كتب (أي أبواب)، فمثلاً يقع قسم العبادات في عشرة كتب، هي:

الصلاة، الزكاة، الخمس، الصوم، الحجّ... وغيرها، وتمّ بيان كلّ كتاب في مجموعة مسائل.

والطريقة المتّبعة أن يبدأ الطالب في دراسة الكتاب المقرّر من أوّل العبادات إلىٰ نهاية القسم الرابع الأحكام، بشكلٍ ترتيبيّ غالباً.

وبذلك يدرس الطالب المسائل، مسألةً مسألة، وعلىٰ أساس هذه الكيفيّة في الدراسة يتكوّن عقله الفقهي، الذي يتحوّل إلىٰ أرشيف لحفظ تلك المسائل التي تقرّر أحكاماً متنوّعة.

بينما يحتاج دارسو الشريعة والقانون الإسلامي في عصر قيام الدولة الإسلاميّة، وتنوّع وتراكم متطلّباتها التشريعيّة والقانونيّة، إلىٰ دراسة الشريعة علىٰ أساس صياغة الأحكام المشتركة فيها علىٰ أساس كونها نُظُماً للدولة والمجتمع.

وبتعبيرٍ آخر:

إنّ الطالب الذي يدرس الفقه، تبعاً للطريقة المصنفة فيها مدوّنات التراث

الفقهي، لن يتمكّن فيما بعد من تقنين موقف الشريعة تجاه مشكلات الدولة الإسلاميّة والمجتمع الإسلامي المعاصر، في: السياسة، والحكم، والإدارة، والإقتصاد، . . . وغيرها.

فيما يستطيع الطالب الذي يدرس الشريعة، بعد تقنينها وصياغة أحكامها، علىٰ أساس الأنظمة والقوانين، أن يقدّم إجابات الشريعة علىٰ التحدّيات الراهنة في حياة المجتمع والدولة.

في ضوء ذلك ينبغي أن يتوفّر المنهج المقرّر في الدراسات الفقهيّة، علىٰ دراسة نظم الدولة الإسلاميّة كنظم، وليس دراسة أحكامها المتفرّقة التجزيئيّة، أي يضمّ المقرّر:

النظام الإقتصادي، والنظام الإداري، ونظام الحرب والسلم، ونظام الحكم، والقانون الجنائي، والقانون المدني، والقانون الدولي.

وتأسيساً علىٰ ما سبق ينبغي اعتماد مقرّر في الدراسة الفقهيّة في الحوزة، يعتمد علىٰ التنظير والتقنين الفقهي، ويتجاوز الفقه التجزيئي الشخصي، الذي كان نتاج النظرة الفرديّة، التي نشأت في سياق عوامل زمنيّة تأريخيّة خاصّة عاشها هذا الفقه.

* * *

لقد لخّص السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر آثار النظرة الفرديّة في الفقه بقوله:

(أخذ الإجتهاد يركّز باستمرار علىٰ الجوانب الفقهيّة الأكثر اتّصالاً بالمجال التطبيقي الفردي، وأُهملت المواضيع التي تمهّد للمجال التطبيقي الإجتماعي، نتيجة لانكماش هدفه، واتّجاه ذهن الفقيه حين الإستنباط غالباً إلى الفرد المسلم وحاجته إلىٰ التوجيه، بدلاً عن الجماعة المسلمة وحاجتها إلىٰ تنظيم حياتها الإجتماعيّة.

وهذا الإتّجاه الذهني لدىٰ الفقيه لم يؤدّ فقط إلى انكماش الفقه من الناحية الموضوعيّة، بل أدّىٰ بالتدريج إلىٰ تسرّب الفرديّة إلىٰ نظرة الفقيه نحو الشريعة نفسها. . . وكان من نتائج ترسّخ النظرة الفردية قيام اتّجاه عامّ في الذهنيّة الفقهيّة

يحاول دائماً حلّ مشكلة الفرد المسلم، عن طريق تبرير الواقع وتطبيق الشريعة عليه بشكلٍ من الأشكال).

إنّ الكتب الفقهيّة التي يدرسها الطالب، والتي تنتمي إلىٰ تلك المرحلة من التفكير الفقهي، التي أخذ الإجتهاد فيها يركّز علىٰ الجوانب الفقهيّة المرتبطة بالسلوك الشخصي، ترسّخ النزعة الفرديّة في العقل الفقهي للدارس، بعد استغراقها في التفاصيل الجزئيّة للمشكلات الفرديّة، والبحث في تقرير مواقف الشريعة تجاهها.

ولو حاولنا أن نقوم بعمليّة استقراء للإنتاج الفقهي الحاضر، سنجد أنّ هذا الإنتاج ما زال أسير تلك النزعة، لولا بعض المحاولات المحدودة في فقه الدولة التي استجابت للمشكلات والأسئلة التي أفرزها السعي لتطبيق الشريعة في بعض الدول الإسلامية.

٥ ـ تعتمد بعض المباحث في الكتب الفقهيّة علىٰ معطيات علميّة تعود إلىٰ التراث العلمي اليوناني القديم، كمباحث تحديد الوقت للصلاة والقبلة، التي تعتمد علىٰ علم الهيئة الذي وضعه بطليموس من قبل.

ومن المعلوم أنّه بعد اختراع التلسكوب، وتطوّر علم الفلك، أعاد علماء الفلك المتأخّرون بناء علم الهيئة في ضوء النتائج التي أبصروها بالتلسكوبات، وتبيّن وهم الفرضيّات التي ارتكز عليها علم الهيئة البطليموسي.

إلّا أنّ الطالب حين يصل في دراسة الكتب الفقهيّة إلىٰ تلك المباحث، يواجه صعوبة بالغة في فهم عبارات في علامات الإستدلال:

(وعلامة العراق ومن في سمتهم، جعل المغرب علىٰ الأيمن، والمشرق علىٰ الأيسر، والجدي خلف المنكب الأيمن، وللشام جعله خلف الأيسر، وسهيل بين العينين، وللمغرب جعل الثريّا والعيّوق علىٰ يمينه وشماله...).

ويواجه مصطلحات وقواعد لا يعرف معناها الدقيق إلّا بعد مراجعة الهيئة القديمة، ومن المعلوم أنّ تراث الهيئة يحتاج إلىٰ خبير بهذا الفنّ وتأريخه لكي يفهمه بدقّة.

٦ ـ تكرار المباحث نفسها في الكتب الفقهيّة الثلاث التي يدرسها الطاب، فهو يدرس في الكتاب الأوّل (شرايع الإسلام) دورة فقهيّة تامّة، تبدأ بكتاب الطهارة وتنتهي بكتاب الديّات، ثمّ يدرس المباحث عينها في كتاب (الروضة اليهيّة في شرح اللمعة الدمشقيّة)، وهو الكتاب الثاني الذي يدرسه بعد الشرايع، مع استدلال محدود، يعبّر عن مرحلة من مراحل تأريخ الإستدلال الفقهي، ثمّ ينتقل إلىٰ الكتاب الثالث (المكاسب)، والذي هو آخر كتاب يدرسه الطالب في مرحلة السطوح، ولا يشتمل هذا الكتاب إلّا علىٰ مباحث (المكاسب المحرّمة، والبيع، والخيارات) من الفقه، وكان الطالب قد درس هذه المباحث مرّتين فيما سبق، حيث يحتوي كتابي الشرايع واللمعة علىٰ مباحث المكاسب المحرّمة، والبيع، والخيارات، باعتبارها جزءاً من مجموع الدورة الفقهيّة، التي يحتويها كلّ كتاب من الكتابين الأوّلين، وإن كانت طريقة ومستوىٰ الإستدلال في الكتاب الأخير تختلف عن السابقين، باعتبار كتاب (المكاسب) ينتمي إلىٰ عصر متأخّر عن عصري كتاب (الشرايع) و(اللمعة)، ولذا فهو يمثّل مرحلة أخرىٰ من مراحل تطوّر الإستدلال الفقهيّ.

وكأنّه لا بدّ للطالب أن يواكب حركة تطوّر الفقه، وتأريخ المراحل التي مرّ بها الإستدلال في عدّة عصور، حتّىٰ يتوقّف في ما قبل قرن ونصف من زمنه الذي يعيش فيه.

بينما لا يحتاج الطالب في مراحل دراسته الأُولىٰ في الفقه (المقدّمات والسطوح)، إلّا إلىٰ التعرّف علىٰ المنهج الذي انتهت إليه تجربة الإستدلال الفقهي في عصرها الراهن، لا سيّما إذا لاحظنا أنّ هذه التجربة قد اغتنت وتطوّرت كثيراً فيما بعد عصر الشيخ الأنصاري (مؤلّف المكاسب)، أثر الإنجازات الكبيرة في قواعد ومباني الإستدلال، التي نقّحها علماء أُصول الفقه في الفترة التي تلت الشيخ الأنصاري.

فلماذا يُحرَم دارس الفقه من المعطيات الحاضرة للإستدلال الفقهي، فيما يستهلك عمره في أعماق التأريخ ليعيش مع تلك المعطيات الفقهيّة التي مضىٰ عليها مئات السنين؟!

مع العلم أنّ المناهج الدراسيّة الحديثة في الدراسات الإنسانيّة، فضلاً عن

العلوم الطبيعيّة، تعتمد علىٰ تبنّي النتائج الأخيرة التي بلغها ذلك العلم، في تدريس الطالب، وبالأخصّ في المراحل الأولىٰ في دراسته لذلك العلم.

بناءً علىٰ ذلك وجد تخصّصان في الدراسات الحديثة، الأوّل يتمثّل بدراسة نفس العلم، وهو يهتمّ بدراسة المصطلحات والمسائل والقواعد التي انتهى إليها العلم في شوطه الأخير، ولذا يتأهل الطالب، ويتحقّق لديه تخصّص في العلم، باستيعاب هذا العلم في مرحلة تطوّره الأخيرة، بينما يتمثّل التخصّص الثاني في دراسة تأريخ العلم، والمراحل التي اجتازها في نموّه، والظروف التي اكتنفته في تطوّره، ولذا يلزم أن يدرس الطالب في تأريخ العلم، نماذج من المدوّنات لهذا العلم، في كلّ مرحلة من المراحل التي تخطّاها هذا العلم في نموّه وتكامله.

ولذلك تأسّست أكاديميّات ومؤسسات بحث علمي خاصّة في تأريخ العلوم، وضعت علىٰ عاتقها دراسة تأريخ العلم، وتأهيل متخصّصين في ذلك.

وهذه مسألة واضحة في الدراسات المعاصرة، إذ الطبيب، غير المختصّ بتأريخ الطبّ، كما أنّ الكيميائي، غير المختصّ بتأريخ الكيمياء، فالطبيب يتخرّج من كليّة الطبّ، وهكذا الكيميائي يتخرّج من كليّة العلوم، بينما المختصّ بتأريخ الطبّ أو تأريخ الكيمياء يتخرّجان من كليّة أو معهد تأريخ التراث العلمي.

من هنا يمكن أن نكتشف الإزدواج الذي وقع فيه المقرّر المدرسي في الدراسات الحوزويّة، في الخلط بين تأريخ العلم ونفس العلم، لأنّ دراسة الكتب التي ألفت قبل عدّة قرون، من المقرّرات التي يهتمّ بها الدارس لتأريخ العلم، بخلاف مَنْ يهتمّ بالتخصّص في نفس العلم، الذي يلزمه أن يدرس كتب تتضمّن آخر النتائج النظريّة التي بلغها العلم.

وهنا ينبغي الإنتباه إلىٰ أنّ هذه الملاحظة لا تعني طلّاب البحث الخارج، التي يحتاج فيها الطالب إلىٰ رحلة سريعة يطلّ من خلالها علىٰ تأريخ المسألة، وتطوّر عمليّة الإستدلال فيها.

إذ أنّ التعرّف علىٰ الجذور التأريخيّة للمسائل، والظروف التي ولدت في إطارها، والأسباب الباعثة لبحثها، ونوع الإستدلال الذي أقامه أوّل من بحث

المسألة، ومن ثمّ التطوّر في كيفيّة الإستدلال، إنّ مثل هذه المعرفة ضروريّة في الدراسات الفقهيّة العميقة (البحث الخارج)، التي تساهم في تنقيح مباني المسألة، وتحرير استدلال صحيح يختزن كافّة المعطيات العلميّة حول المسألة بشكلٍ دقيق، في ضوء السياق الزمني لعملية الإستدلال.

* * *

تلك هي أبرز الملاحظات التي يمكن تسجيلها علىٰ الكتب الفقهيّة المقرّرة للدراسة في الحوزة العلميّة، التي يدرسها الطالب قبل مرحلة البحث الخارج، أمّا طبيعة الدراسات الفقهيّة العليا في البحث الخارج، فسنخصّص لها بحثاً مستأنفاً، بعد الفراغ من بيان الملاحظات علىٰ المناهج الأُخرىٰ التي يدرسها الطالب في السطوح.

وممّا ينبغي التنويه به، هو أنّ بعض الملاحظات الآنفة الذكر التي أوردناها علىٰ مقرّر الدراسة الفقهيّة، ترد بنفسها علىٰ مقرّرات المناهج الأُخرىٰ، وبالذات مناهج أُصول الفقه، لما بين علمي الفقه وأُصوله من علاقة عضويّة، وتفاعل متواصل علىٰ طول تأريخ العلمين، ولذا اشتركت الكتب المقرّرة للدراسة في العلمين في مشكلات متقاربة، وربّما تطابقت غير واحدةٍ من هذه المشكلات بينهما، فمثلاً ترد الملاحظة الأُولىٰ (وهي كون الكتب لم يؤلّفها أصحابها لغرض التدريس) علىٰ معظم الكتب المقرّرة للدراسة في أُصول الفقه أيضاً، بل إنّ هذه الملاحظة مشتركة بين أغلب الكتب المقرّرة للدراسة في الحوزة، في مختلف العلوم التي يدرسها الطالب.

كذلك الأمر في الملاحظة الأخيرة، التي أوضحت أنّ انتماء تلك الكتب لقرونٍ سالفة، يعبّر عن التطور التأريخي للعلم، فيما يحرم الطالب من التعرّف علىٰ صورة العلم الأخيرة.

فكتب أُصول الفقه التي يدرسها الطالب في السطوح، ينتسب جُلُّها إلىٰ زمان سابق ـ كما ستأتي الإشارة لذلك بعد قليل ـ، وهي من ثم تمثّل مراحل متعدّدة في تكوين وتكامل علم الأُصول.

ولذا سيتعرّف درسها علىٰ مراحل حركة علم الأُصول، ويتحرّك في دراسته في إطار أُفقها الزمني، طبقاً لترتيب دراسة تلك الكتب، إلّا أنّه سيُحرَم من استيعاب الصورة الحاضرة التي انتهىٰ إليها العلم.

مناهج أُصول الفقه:

الكتاب الأوّل الذي يدرسه الطالب في علم الأُصول، هو كتاب معالم الدين وملاذ المجتهدين، للشيخ جمال الدين الحسن بن الشهيد الثاني (٩٦٥ ـ ١٠١١ هـ)، أي أنّ هذا الكتاب أُلّف قبل أكثر من أربعة قرون، ثمّ ينتقل منه إلىٰ كتاب أُصول الفقه للشيخ محمّد رضا المظفّر (وهو معاصر)، وبعدها ينتقل إلىٰ كتاب فرائد الأُصول المعروف (بالرسائل) للشيخ مرتضىٰ الأنصاري (١٢١٤ ـ ١٢٨١ هـ)، وأخيراً يدرس كتاب (كفاية الأصول) للشيخ محمّد كاظم الخراساني المتوفّىٰ سنة ١٣٢٩ هـ.

فيما لجأ قليل من الطلّاب في العقد الأخير لدراسة كتاب: دروس في علم الأُصول بحلقاته الثلاث، للسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، بالإضافة إلىٰ المنهج السابق، أو بالتوفيق بين بعض الكتب السابقة وحلقات السيّد الصدر، أو قد يكتفي بالحلقات فقط.

ويحتاج الطالب المجدّ عادةً إلىٰ عدّة سنوات تتراوح بين (٦ ـ ٨) سنوات من الدراسة المكثّفة، والسعي الحثيث في المباحثة والمراجعة، لكي يستوعب مفردات هذا المنهج، ويتمّم دراسة تلك الكتب، ومن ثمّ يتأهّل لحضور البحث الخارج، الذي قد يطول مقامه فيه.

وكما ألمحنا آنفاً فإنّ بعض ما أوردناه من ملاحظات علىٰ مفردات المنهج الفقهي المقرّر للدراسة في الحوزة، ترد نفسها هنا علىٰ مفردات منهج الأُصول.

إلّا أنّ ملاحظات أُخرىٰ يمكن أن تُذكر هنا، حين نمعن النظر في هذه الكتب، ومن هذه الملاحظات:

١ ـ تضمّنت هذه الكتب مباحث عديدة، ليست ذات قيمة عمليّة في علميّة الإستنباط والإستدلال الفقهي، كمباحث الإنسداد، كما أنّ بعض المباحث الدقيقة

افترض لها الأصوليّون ثمرة افتراضيّة، لتسويغ دراستها في علم الأصول، حيث نجد الأصوليّين في أكثر من مورد يلجأون إلىٰ مسألة النذر، فيجعلونها ثمرة مفترضة لتلك الأبحاث التي يستنزف الطالب طاقة ذهنيّة هائلة لاستيعابها. لا سيّما إذا لاحظنا أنّ بعض تلك الكتب الأصوليّة، اهتمّت بعرض بحوث علم الأصول بشكلٍ تفصيليّ، مستوعباً للنظريّات والإشكالات المختلفة في المسألة الواحدة، وكل ما يحتمل أن يرد في الذهن عليها، ولذا أضحىٰ تصوّر مثل هذه المسائل بحاجة إلىٰ دقّة وتأمّل، وإمعان نظر، فضلاً عن التصديق بها.

وهكذا يجد الطالب نفسه بين حشد مكثّف من القواعد، والنظريّات، والفرضيّات، التي احتوتها هذه الكتب الأصوليّة، ولذا يضطرّ للإنكباب والمواظبة علىٰ الدراسة والمطالعة أعواماً عديدة، لكي يفهم تلك الكتب، إلّا أنّه سيكتشف في وقتٍ لاحق ـ لو واصل دراسته ومارس الإستنباط ـ إنّ جزءاً من المادّة التي درسها، وأمضىٰ فيها شطراً من حياته، ذا قيمة نظريّة بحتة، ولا يحتاجه في عمليّة الإستدلال الفقهي، وحينئذٍ يكون حال هذا الطالب كحال طالب يدرس في كليّة الطبّ مثلاً، وقرّرت هذه الكليّة دراسة (١٠٠٠) حالة مرضيّة علىٰ طلّابها، وهذه الحالات تعود إلىٰ نوعين:

النوع الأوّل: أمراض حقيقيّة، يصاب بها الناس، وتحتاج إلىٰ أن يشخّصها طبيب، ويصف لها الدواء، وعددها (٥٠٠) حالة مرضيّة، أي نصف تلك الحالات.

النوع الثاني: أمراض افتراضيّة غير حقيقيّة، بمعنىٰ أنّه لم تشاهد إصابة فرد واحد من البشر بها، وإنّما يدرسها الطالب علىٰ تقدير وفرض إصابة أحد من الناس بها.

بناء علىٰ ذلك سيحتاج الدارس إلىٰ ضعف المدّة الزمنيّة المقرّرة للدراسة التي تحتاجها الحالات المرضيّة الواقعيّة الخمسمائة التي تصيب أبناء البشر، كما سيحتاج إلىٰ ضعف أو أضعاف الجهود اللازمة للحالات الواقعيّة، لأنّ الذهن يواجه مشقّة أكبر في تمثّل واستيعاب المسائل النظريّة البحتة، التي ليست لها تطبيقات عمليّة.

ولا نخال أنّ هذا المنهج دقيق في تلقّي أيّ علم من العلوم، خصوصاً بعد التطوّر الكبير الذي تحقّق في مناهج البحث والدراسة، حيث أصبحت العلوم تتّجه نحو التكثيف، والإختزال باستبعاد كلّ المسائل الثانويّة، فضلاً عن القضايا الإفتراضيّة، واعتماد السرعة في تلقّي العلوم ودراستها.

ويعتبر التقدّم العلمي الذي تحقّق في الدراسات الحديثة، من معطيات ذلك المنهج العلمي، وخلّص الدراسات من الكثير من الزوائد والإضافات، والحواشي التي ليس لها صلة مباشرة وصميميّة بمباحث ذلك العلم، واستوعب المسائل ذات التطبيقات العمليّة، والتي لها ثمرات حقيقيّة في تحقيق أهداف ذلك العالم.

وهذه المشكلة ابتُليَت بها الدراسات الإسلاميّة القديمة عموماً، ولم تشأ الدراسات الإسلاميّة في الحوزة العلميّة التحرّر من هذه المشكلة، التي هي إحدىٰ الثغرات الكبيرة في المقرّرت الدراسيّة في الحوزة.

ولذا ينبغي أن تستبعد الكتب الحديثة التي تُعد للدراسة في الحوزة كلّ ما هو زائد، ذا ثمرة افتراضيّة، وقيمة نظريّة بحته، وليس له علاقة بوقائع الحياة المتغيّرة.

وآنئذٍ ستتقلّص تبعاً لذلك، لفترة الزمنيّة التي يستهلكها الطالب في دراسة العلوم الإسلاميّة، فضلاً عن ما يترقّب أن ينجزه الطالب من إنتاج علمي عملي، مستجيباً لتحديات الحياة الراهنة.

٢ ـ يعود تأليف الكتاب الأخير الذي يدرسه الطالب في علم الأُصول إلىٰ حدود المائة سنة، وهو كتاب (كفاية الطالب) للآخوند الخراساني، ومن المعلوم أنّ هذا العلم شهد تطوّراً ملحوظاً في هذا القرن الذي جاء بعد تأليف كتاب الكفاية، حيث أسهم تلامذة صاحب الكفاية الثلاثة الذين ورثوا استاذهم في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، وهم:

الشيخ محمّد حسين الإصفهاني المعروف بالكمپاني، والشيخ محمّد حسين النائيني المعروف بالميرزا النائيني، والشيخ آقا ضياء العراقي، وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم في النجف الأشرف، مثل: السيّد أبو القاسم الخوئي، والسيّد الشهيد محمّد باقر الصدر، وكذلك في الحوزات العلمية الأخرى، من أمثال: الشيخ عبد

الكريم الحائري ، والسيّد البروجردي ، والإمام الخميني ، فقد أسهم أولئك الأساتذة وغيرهم في المائة سنة الأخيرة ، في إعادة بناء ، واستكمال ، وتطوير ، وابتكار الكثير من القواعد والنظريات الأصوليّة .

وتراكمت الخبرة الأُصوليّة، واضطرد نموها، وتعاظم بناؤها النظري، وازدهر الدرس الأصولي ، حتّى بلغ حدّ الترهّل والإفراط في تحقيق الأبحاث ، وتوسيع المناقشات .

إلّا أنّ الطالب الذي يعتمد الكتب القديمة ـ التي ذكرناها سابقاً ـ في دراسته لأُصول الفقه،سيُحْرَم حتماً من التعرّف علىٰ الإنجاز الأُصولي في المائة سنة الأخيرة، وسيحول ذلك المنهج بين الطالب وبين دراسة الفكر الأُصولي المعاصر.

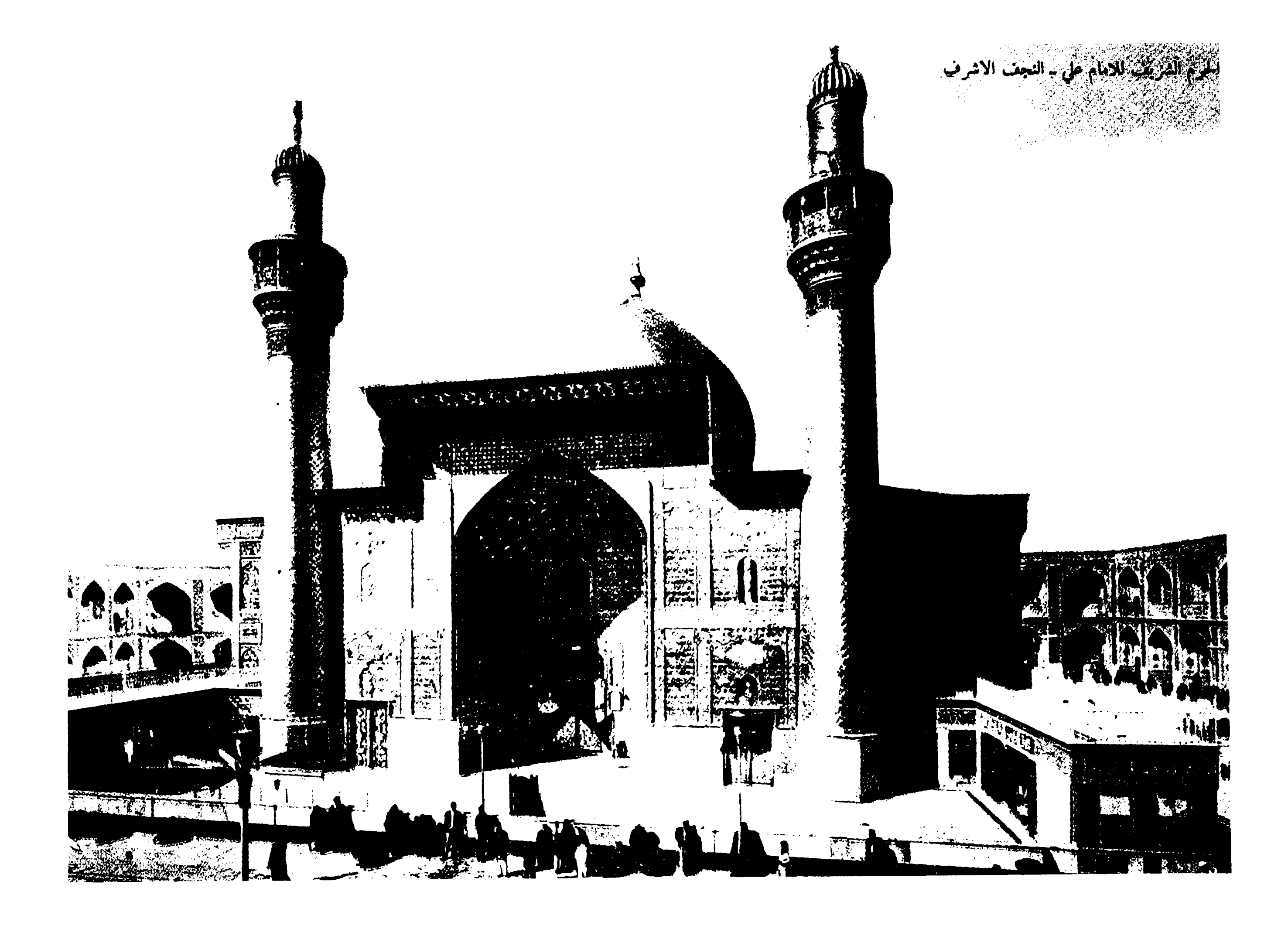
هذا مضافاً إلىٰ أنّ الطالب سيلتقي لأوّل مرّة حتماً في دراسات البحث الخارج بالنظريّات والجهود الجديدة في علم الأُصول، التي هي ثمرة البحث الأُصولي المتأخّر عن الكفاية، وحينئذٍ سيواجه الطالب مشكلات جمّة، في فهم تلك النظريّات أوّلاً، ثمّ استيعابها وتمثّلها ومحاولة مناقشتها بعد ذلك.

وبذلك يضيّع الطالب شطراً من حياته الدراسيّة، والسنوات الأُولىٰ الأساسيّة في تكوينه العلمي في مباحث تنتمي إلىٰ عصرٍ آخر، ثمّ يلتقي بدراساته العليا في البحث الخارج ونظريّات وأفكار أُخرىٰ تنتمي إلىٰ المرحلة الأخيرة في تطور البحث الأُصولي.

بينما يفترض أن توفّر الدراسات الأوّليّة (السطوح) دوراً تمهيديّاً، يؤهّل الطالب للإنخراط في المرحلة اللاحقة (البحث الخارج)، ويعدّه إعداداً جيّداً لاستيعاب البحوث التفصيليّة المعمّقة التي سيلتحق بها في مستقبل دراساته، فيكون انتقاله إلىٰ هذه المرحلة انتقالاً طبيعيّاً، من دون طفرة مفاجئة بين المرحلتين.

٣ ـ اشتملت الكتب الأُصوليّة المقرّرة للدراسة في الحوزة، علىٰ دراسات لغويّة مهمّة، حول: حقيقة الوضع، والمعنىٰ الإسمي، والمعنىٰ الحرفي، والإطلاق، والعموم، ودلالة المفاهيم: كمفهوم الشرط، ومفهوم الوصف، . . . وغير ذلك.

وهي تصنّف في كتب الأُصول عادة تحت عنوان مباحث الألفاظ.



الحرم الشريف للامام علي ـ النجف الاشرف

إلّا أنّ هذه المباحث، بالرغم من الدراسات المعمّقة، والنظريّات الدقيقة التي ابتكرها علماء الأُصول فيها، لم تتجاوز الإطار التقليدي في بحوث علم اللغة، حيث استمرّت تدور في فلكها القديم.

بينما شهدت الدراسات اللغوية، تطوّراً واسعاً في العصر الحديث، كما نلاحظ ذلك في الدراسات الألسنيّة، ودراسات علم الدلالة (السيميائيّة) في الأكاديميّات العلميّة المعاصرة، بعد التفاعل والتزاوج بين علم اللغة وبقيّة العلوم الإنسانيّة، كعلم النفس، وعلم الإجتماع، وعلم الإنسان (الإنثروبولوجيا)، . . . وغيرها من العلوم الإنسانيّة، حتّىٰ باتت بعض المدارس المعاصرة في العلوم الإنسانيّة، تعتمد اللغة ودراسة الألفاظ والنصوص ، كأداة أساسيّة في علم الإنسان ، ولم يعد التعامل مع اللغة بنفس الطريقة التقليديّة ، التي انتهت منذ سنين عديدة ، بعد الإكتشافات والإنجازات الكبيرة التي قدّمتها العلوم الإنسانيّة الحديثة للدراسات اللغويّة .

ولا يعني هذا الكلام التخلّي عن الدراسات اللغويّة، أو هجر ما انتهىٰ إليه البحث اللغوي في علم الأُصول هجراً تامّاً، أو تبنيّ كلّ فرضيّة غربيّة تصدر عن علماء اللغة الأوروبيّين، وإنّما يعني ذلك ضرورة مواكبة الإكتشافات والنتائج التي وصلها البحث العلميّ عند الآخرين، والإستفادة منها في تطوير الدرس اللغوي عند الأُصوليّين، إذ لعلّ مثل هذه الإكتشافات التي تكون ثمرةلبحوث علميّة طويلة، توصلنا إلىٰ حلّ بعض المشكلات العلميّة التي لم ينتهِ فيها البحث إلىٰ نتيجة قاطعة (والحكمة ضالّة المؤمن، أينم وجدها أخذها ولو من أهل الضلالة)، فما نراه صواباً من النتائج التي حقّقها أُولئك استعنّا به، وأمّا ما نتأكد من عدم صوابه رفضناه.

وربّما استطاع علم الأُصول أن يتخلّص من بعض المباحث اللغويّة (كمبحث تفسير حقيقة الوضع، مثلاً)، التي ساهمت في تضخّم هذا العلم وترهّله، بعد ترحيلها إلىٰ ذوي الإختصاص في علم اللغة الحديث، ثم يتلقّىٰ هو النتائج التي انتهىٰ إليها أُولئك المتخصّصون في بحثهم العلمي جاهزة.

وهكذا يمكن أن تُرحّل بعض المباحث الأُخرىٰ من علم الأُصول إلىٰ العلوم الأُخرىٰ ذات الإختصاص، كما في مباحث الحسن والقبح العقليّين، وغيرهما من

البحوث الكلاميّة والفلسفيّة في الأُصول، ومن ثمّ يتلقّىٰ الباحثون في علم الأُصول نتائج تلك المسائل من ذوي الإختصاص.

وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نختزل هذا العلم، وننتزع منه الكثير من المباحث اللغويّة، والكلاميّة، والفلسفيّة، التي أُقحمت به، وأصبح دارس علم الأُصول بحاجة إلىٰ جهد ووقت كبيرين لفهم واستيعاب تلك المباحث والإستدلالات والإشكالات حولها.

فيعود ذلك العلم بعد تجريده من تلك الإضافات، مقتصراً علىٰ القواعد اللازمة لعمليّات الإستدلال الفقهي واستنباط الأحكام الشرعيّة.

٤ ـ يتولّىٰ علم الأُصول تأمين القواعد العامّة في عمليات الإستدلال الفقهي، وقد ولد هذا العلم وترعرع في أحضان علم الفقه، حيث كانت العلاقة بينهما علاقة تفاعل وتكامل علىٰ الدوام، إذ كلّما تطوّرت التجربة الفقهيّة، وازداد البحث الفقهي، نما وتكامل تبعاً لذلك البحث الأُصولي، وولدت القواعد والنظريّات التي تهيّىء لعمليّة استنباط الأحكام الشرعيّة ما يلزمها من مبانٍ وأُسس وقوانين.

وكلّما ازدهرت التجربة الأُصوليّة وتطوّرت، تنامىٰ البحث الفقهي وتكامل أُفقيّاً وعموديّاً، تبعاً لما توفّره له القواعد الأُصوليّة المبتكرة من آفاق جديدة للإستدلال.

وكما ذكرنا فيما سبق، فإنّ الفقه الجعفري وبسبب العوامل التأريخيّة السياسيّة التي منعه فيها الطغاة من الحكم والإدارة، تبلورت فيه النزعة الفرديّة، فتركّز التشريع علىٰ شؤون الفرد، وسلوكه الشخصي، فيما تضاءل فيه البُعد الإجتماعي والسياسي، الذي يُعنىٰ بالتشريع للدولة والمجتمع.

وقد نشأ عن ذلك أن تتشكّل القواعد الأُصوليّة لتأمين حاجات الإستدلال الفقهي، الذي يهتمّ بالتشريع للفرد، لأنّ محور الأحكام الشرعيّة المستنبطة كان هو الفرد، فيما توارت عمليّة استنباط أحكام الدولة والمجتمع آنذاك.

من هنا ينبغي الحوار والتفكير في تأسيس قواعد أُصوليّة أُخرىٰ، تؤمّن

الحاجات التشريعية الحاضرة، التي نشأت بعد تأسيس الدولة الإسلاميّة، وأفرزها السعي لأسلمة مرافق ومؤسسات الدولة والمجتمع.

وربّما نشأ التلكؤ في صياغة وتقنين النظم الإسلاميّة، وتأخر ولادة التنظير الفقهي، من غياب ذلك النوع من القواعد الأُصوليّة اللازمة لتقنين الفقه، واكتشاف نظم الدولة الإسلاميّة. لأنّ عملية الاستنباط التي تهدف للتعرف علىٰ أحكام شرعيّة تنظم السلوك الشخصي للفرد، غير عملية الاستنباط التي تسعىٰ للتنظير الفقهي، وتحديد نظرية الشريعة في الحكم، أو الإدارة، أو الاقتصاد، أو غير ذلك.

وتبعاً لذلك ستتنوّع القواعد التي تلزم كلتا العلميّتين، ولذا ينبغي السعي لتأسيس نوع آخر من القواعد الأُصوليّة ينهض بمهمات التنظير الفقهي.

٥ ـ لم يتوفر المنهج الذي يدرسه الطالب في أُصول الفقه علىٰ بيان موقع هذا العلم من العلوم الاجتماعية الحديثة، أو علاقة هذه العلوم بعلم الأُصول.

مع العلم أن اكتشاف الدارس لهذه العلاقة، سيساهم مساهمة فعالة في فتح قنوات التواصل بين علم الأصول وتلك العلوم، وبين تلك العلوم وعلم الأُصول، وستُبنىٰ علىٰ أساس هذه العلاقة جسور معرفية بينهما، تكون ذات أثر كبير في خلق تفاعل بين علم الأصول والعلوم الاجتماعية، ومن المتوقّع أن يحقق هذا النوع من التزاوج والتفاعل نقلة نوعية في الدراسات الأُصولية، لأن العلوم الاجتماعية تتقدم باضطراد في السنوات الأخيرة، وقد حصلت علىٰ يديها اكتشافات مهمة في: تكوين النفس الإنسانية، وحوافز ودوافع السلوك الإنساني، وأشكاله، ومتغيراته، والتكيف الاجتماعي، والتغيير الاجتماعي، والعلاقات الاجتماعية. . . ومجمل الأنشطة الإنسانية المتنوعة.

ومن الواضح أن كل تطور يحصل في البحث الأُصولي، يستتبعه تطور آخر في البحث الفقهي ـ كما ألمحنا لذلك قبل قليل. إذاً، ستظهر ثمار تأسيس هذه العلاقة بين الأصول والعلوم الاجتماعية لاحقاً في الاستدلال الفقهي.

هذا من جهة تأثير هذه العلوم وتفاعلها مع علم الأُصول، فيما إذا فُتحت

الجسور بينهما. ومن جهة أُخرىٰ ما هو دور علم الأُصول تجاه العلوم الاجتماعية المعاصرة؟

إن مهمّة العلوم الاجتماعية اكتشاف شخصية الإنسان، والتعرف علىٰ قوانين السلوك الشخصي والاجتماعي، فهل يتجاوز علم الأصول مهمته في تأمين قواعد الاستدلال الفقهي إلىٰ تقنين أُسس وقواعد لأسلمة العلوم الاجتماعية؟

أم إنّ تلك العلوم نفسها في بُعدها القيمي أو المعياري، وليس بُعدها الموضوعي، هي ذاتها فرع من فروع الفقه الإسلامي، ومن ثم سيؤمّن لها علم الأُصول القواعد اللازمة، كما يؤمّنها لبقية الفروع الأُخرىٰ في الفقه؟

إنّ تجسير العلاقة بين علم الأُصول والعلوم الإجتماعيّة ينجم عنه تأثير متبادل بينهما، يخصب حركة تطورهما في خدمة الأهداف الكبرىٰ للإسلام.

٤ ـ مناهج العلوم العقلية (المنطق، والكلام، والفلسفة):

يهيمن المنطق الأرسطي علىٰ كافة العلوم التي يدرسها الطالب في الحوزة، وتتجلىٰ تلك الهيمنة في علمي الكلام والفلسفة، حيث يشيع تطبيق القياس الأرسطي في أشكاله المعروفة.

ويمكن القول إنّ العقل العلمي للطالب يصاغ صياغة أرسطية، في ضوء المنطق الذي يتعاطاه في دراسته، وتغلغل هذا المنطق وسلطته علىٰ العلوم الأُخرىٰ.

ومن المتعارف أنّ الطالب يبذل جهوداً كبيرة في دراسة المنطق، والكلام، والفلسفة، بالتنقل بين مجموعة من المدونات التي أغلبها مدونات تراثية في تلك العلوم.

وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نستأنف بعض الملاحظات التي أوردناها فيما سبق في علمي الفقه والأُصول، لأنّ معظم الكتب التي يدرسها الطالب في دراساته في الحوزة العلميّة لم تؤلّف لغرض الدراسة، كما أشرنا لذلك سابقاً. هذا من ناحية.

ومن ناحية أُخرىٰ فإنّ هذه الكتب تنتمي إلىٰ عصور سالفة، طُرِحت فيها شبهات، وتعمّقت إشكاليّات، وتردّدت أقوال، كانت قد نشأت في ظروف فكريّة

وثقافيّة معروفة، عاشها المجتمع الإسلامي، وتعرضت فيها بعض المرتكزات العقائدية للمسلمين للطعن والتشكيك، من قِبَل بعض الزنادقة، والفرق الأُخرىٰ الضالة.

فتركز اهتمام المتكلمين والفلاسفة من علماء الإسلام علىٰ مواجهة تلك التحديات، والإجابة عن الإشكاليات، والرد علىٰ الشبهات المطروحة آنذاك. وتنوّعن الإجابات والردود، وتعددت البراهين والأدلة، في تفنيد هذه الشبهات.

لكن الإشكاليات والتحديات التي يواجهها الفكر الإسلامي في هذا العصر، غير تلك التي أُثيرت قبل مئات السنين، وأسهم المتكلمون والفلاسفة المسلمون مساهمة فعالة في التصدي لها، وتزييف دعاواها.

ونود أن ننبه إلىٰ مسألة مهمة وهي:

إن هذه الملاحظات لا تعني التخلي عن التراث الفقهي، والأُصولي، والمنطقي، والكلامي، والفلسفي العظيم الذي أنجزه علماء الإسلام رضوان الله عليهم عبر عدة قرون، وإنما هي دعوة لاستيعاب التراث، وتفعيله، في ضوء المعطيات الحديثة للحياة الإنسانية، وإلاّ فلا يصح أبداً التضحية بهذا التراث المجيد الذي يمثل المقوم الأساسي للهوية الحضارية للأُمة الإسلامية].

* * *

قبل أن نختم موسوعتنا في الحديث عن الحوزة العلمية ومناهجها والحركة الإصلاحية، نقدّم إلىٰ القارىء برنامجاً مقترحاً من أحد المنتسبين إلى الحوزة العلمية في النجف، لتطوير وإدخال مناهج ومواد جديدة إلىٰ الحوزة قد استقاها من طبيعة سنواتنا المعاصرة، وهي جديرة بالتسجيل، فيما نأمل من الحوزات العلمية أن تتدارس هذا البرنامج الذي اقترحه وكتبه: السيد منذر الحكيم تحت عنوان :

البرنامج المقترح

لتطوير الدراسة الحوزوية
من خلال محورية القرآن الكريم
واعتماد الأسلوب العلمي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق﴾

تمهيد :

لقد فجّر القرآن الكريم الطاقات الكامنة في المجتمعات البشرية حين أحدث ثورته الثقافية التي عمّت كلّ مجالات المعرفة البشريّة .

وأول معهد علمي إسلامي هو المعهد الذي قد تمّ إنشاؤه علىٰ يد رسول الإسلام العظيم، فكان معهداً زاخراً بالحيوية والنشاط لحفظ القرآن الكريم ووعيه واستيعاب أهدافه وتعاليمه وتطبيقها بدقة لتتحقق خير أُمّةٍ أُخرجت للناس ولتكون الأُمّة الوسط التي يُخرج الله بها البشرية عامّة من الظلمات إلىٰ النور بإذنه ويهديها إلىٰ صراط الكمال الإنساني المستقيم.

لقد أراد القرآن لنا أن يكون عِلمنا نوراً نستضيء به في جميع مدارج الكمال، ولا نطلب العلم للعلم، فكان الهدفُ والمنهجُ والأسلوبُ ربّانيّاً مؤدّياً إلىٰ أسلَمَة العلوم مادة ومنهجاً وأسلوباً، كما هدانا إلى منهج فريد وأسلوب معرفة للتلقي الفهم من أجل اكتشاف الحقائق التي يلزم للإنسان معرفتها وفهمها لتسلق سلم لكمال في الحياة حتىٰ صرّح الرسول الكريم لأكثر من مرّة بأساليبه الحكيمة قائلاً ما مؤداه: «إذا أتىٰ عليّ يومٌ لا أزداد فيه علماً يقربني إلىٰ الله تعالىٰ فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم».

وما أبعد البون بين معاهدنا العلميّة في عصرنا هذا وبين ما خطّطه القرآن الكريم لنا مادة ومنهجاً وأسلوباً! إنّ هناك عوامل شتىٰ أدت بمدارسنا ومعاهدنا العلمية إلىٰ اهتمامها بالقشور أكثر من اهتمامها باللّباب.

وإنّ الذين بلغوا بعض قمم الكمال الإنساني الشاهقة لم يبلغوها بفضل المنهج الدراسي الموروث وإنما بلغوها بفضل نبوغهم وجهادهم العلمي والعملي، بينما لو كان المنهج

الدراسي في مؤسساتنا العلمية قادراً على تحقيق أهدافه المرتقبة لكانت النتائج أكبر حجماً وأكثر عمقاً وأوسع نطاقاً.

إن نقد المنهج الدراسي (الحوزوي والجامعي) نقداً بنّاءً، وتقديم البديل الذي يحقق الأهداف الربانية والإلهية ويعتمد المنهج والأساليب والوسائل التي اعتمدها القرآن الكريم نفسه لترشيد حركة الإنسان وهدايته إلىٰ قمم الكمال الإنساني يكون من أهمّ ما يلزم المهتمينّ بالتربية والقائمين بشوؤن الحوزات والمعاهد العلمية وتطوير مناهجها وأساليبها التعليمية والتربوية.

مجمل أهداف النظام النموذجي للتعليم:

١ ـ التعليم هو أهم وسائل التربية من أجل البلوغ إلى الكمال الإنساني المنشود.

٢ ـ الإنسان كائن ذو أبعاد شتّىٰ، والإسلام نظام كامل لتربية الإنسان في جميع مراحل الحياة، وجميع أبعاد وجوده، وينبغي أن لا يشذ النظام التعليمي لهذا الإنسان عن الشمول والتوازن والكمال اللائق بالإنسان، في المحتوىٰ والمراحل والأساليب.

٣ ـ «القرآن الكريم» كتاب الله الخالد ومعجزة الرسالة الخاتمة، والينبوع الثري في جميع مجالات المعرفة التي يحتاجها الإنسان في مسيرته التكاملية الرشيدة فمن الضروري أن يُستهدف وعيُه وتطبيقهُ، ويكون فهمه وتدارسه وحفظه والعمل به كما ينبغي هو المحور الأساس في النظام التربوي والتعليمي في معاهدنا العلمية (الحوزوية والجامعية)، وعلىٰ أساس الوعي والاستيعاب والعمل به تتم برمجة المواد الدراسية في جميع مراحل الدراسة.

وقد نشأت المعاهد العلمية في المجتمع المسلم وتطورّت من أجل تحقيق هذا الهدف السامي الذي ابتعدت عنه بالتدريج. فما أحوجنا لإعادة النظر في المحتوىٰ والمضمون سلامةً وعمقاً، والوسائل والأساليب تطوّراً وإثماراً لنبلغ الهدف المنشود في أقصر وقت وأحسن منهج.

٤ ـ إن اعتماد الدرس والفهم على (التحقيق) أمر ضروري جداً لتطوير

الحركة العلمية في معاهدنا الإسلامية لنبلغ بطلّابنا إلىٰ مستوىٰ الإبداع والتجديد في جميع مراحل الدراسة وأبعاد المعرفة في مختلف مجالات الحياة.

٥ ـ إنّ التخصص، والنظرة المستقبلية للإسلام والحياة، واستثمار الدراسات العلمية في جميع فروع المعرفة الإسلامية التي يحتاجها مجتمعنا الإسلامي اليوم وغداً، وتقديم الحلول الناجحة باستمرار للمشاكل التي يواجهها المجتمع الإسلامي المتنامي أمورٌ تستدعي الانتباه وتتطلب أخذها بنظر الاعتبار في النظام الدراسي والمنهاج التربوي في جميع المعاهد العلمية الإسلامية.

أصول وسمات المنهج المقترح

يعتمد هذا المنهج المقترح علىٰ جملة أمور أخذت بنظر الاعتبار فيه:

١ ـ «محورية القرآن الكريم»: وتعني بها جعل القرآن الكريم ـ وعياً وحفظاً وتطبيقاً واستشعاراً لمفاهيمه وهديه ـ هو الأساس الأوّل لفهم الإسلام المتجسّد في الكتاب والسنة الشريفة، كما صرّح بذلك القرآن نفسه وهدت إليه السُنة الشريفة.

٢ ـ ومن هنا كانت الموادّ والمراحل والوسائل والأساليب الدراسية مختارة ومبرمجة بحيث يمكن تحقيق الهدف المذكور بأحسن نحوٍ ممكن، مع أخذ متطلبات المرحلة الفكرية الراهنة والتراث العلمي الموروث والملابسات التي تعيشها معاهدنا وحوزاتنا العلمية بنظر الاعتبار.

٣ ـ ومن هنا أيضاً كان التدرّج في المواد الدراسية وتنوع موضوعاتها ومراحل تدريسها واستيعابها منسجماً مع التدرّج في فهم الطالب للقرآن الكريم بدءً بمرحلة القراءة الصحيحة فمرحلة فهم معاني المفردات ثم مرحلة فهم معاني الجمل إلىٰ مرحلة التعرف علىٰ بلاغة القرآن ثم مرحلة استيعاب أصول استنباط المعاني والمفاهيم من القرآن الكريم إلىٰ مرحلة الاستنباط نفسها.

٤ ـ ولا تعني هذه المحورية الابتعاد عن السنة أو أهمالها في المنهج وإنما تعني اعتبار (فهم القرآن الكريم) محوراً أساسياً لتفهّم الإسلام من مصادره الرئيسية حيث تدرّس السنة ضمن دراسة القرآن الكريم نفسه وبنفس الأسلوب الذي نحتاجه لفهم السنة الشريفة.

٥ ـ وعلىٰ هذا الأساس توظّف جميع الدروس بحيث تصبّ في رافد فهم

القرآن الكريم بجميع جوانبه ومستويات وعيه وفهمه، فالقرآن مرجع أساس لهذه الدروس وتتم التطبيقات ومراحل مهمة من التحقيق علىٰ أساسه، فتتهيأ أجواء الفهم والحفظ والاستيعاب والاستشعار لمفاهيم القرآن والعيش في ظل القرآن الكريم طيلة مدة التحصيل والدراسة والتحقيق.

٦ ـ لا يحتاج هذا المنهاج إلىٰ تدوين كتب دراسية خاصة لأنه يعتمد علىٰ أسلوب التحقيق في الفهم والدراسة منذ المراحل الأولىٰ وحتىٰ المرحلة الأخيرة وتتسّع عملية التحقيق وتزداد عمقاً كلما تقدم الطالب في مراحل الدراسة ودرجات الفهم.

٧ ـ ومن هنا ينسجم هذا المنهج في كل الأوضاع القائمة في الحوزات العلمية من حيث الكتب الدراسية المفروض دراستها ولا يستلزم إقرار شيء جديد لم تقرّه الحوزات العلمية.

٨ ـ وإنما يشرف الأستاذ مباشرة علىٰ كل درس ليأخذ بيد الطالب ويوصله من خلال التوجيه والرعاية المباشرة وتفجير طاقاته وقدراته وصولاً إلىٰ الأهداف المعينة من الدراسة في كل مرحلة وبإشراف الأستاذ علىٰ الدرس والتحقيق يمكن ضمان تسلّط الطالب علىٰ كل الكتاب الدراسي المفروض والمادة المراد استيعابها فضلاً عن قدرته على مراجعة ما يمتّ إلىٰ الموضوع بصلة بدءً من القرآن نفسه ثم السنة وسائر ما جادت به قريحة العلماء والمفكرين في كل مجال.

٩ ـ ومن هنا يلزم تعيين المواد الدراسية لكل مرحلة بالتحديد وتعيين الفصول المفروض دراستها مع الأسلوب المفروض اتباعه لكل مادة دراسية بالخصوص بالنظر لطبيعة المادة والمصادر المتوفرة لها. وعلىٰ الأستاذ أن يسعىٰ جاهداً للوصول إلىٰ الهدف مع الاختبار المستمر والتقويم الدقيق لما يدرسه الطالب، خلال عملية الدرس والتحقيق تحت إشراف أستاذ المادة بل يجب تلاحم الأساتذة وانسجام أساليبهم معاً، بل قد لا يُجبر الطالب علىٰ أخذ كل الدروس في المرحلة الواحدة جنباً إلى جنب بل يمكن تقديم بعضها والانتهاء منها ثم التوجه إلىٰ غيرها أو يمكن التوجه التفصيلي لبعضها مع التوجه الإجمالي للبعض الآخر بحيث تتحقق عملية الاستيعاب والفهم المطلوب.

١٠ ـ العمر الأنسب للطالب للدخول في هذا البرنامج هو الخامسة عشر أو بداية المرحلة الإعدادية من الدراسة المدرسية الدارجة. ويمكن لحاظ الاستثناءات بحسب اختلاف استعدادات الطلاب أيضاً.

المراحل الدراسية:

١ ـ المرحلة التمهيدية: مرحلة تجريبية يتم خلالها تقويم الطالب.

٢ ـ مرحلة المقدمات: (وتتكون من ثلاثة مراحل يجتازها الطالب المتوسط خلال ٣٠ شهراً).

٣ ـ مرحلة السطح الأوّل: وتتكون من مرحلتين يمكن اجتيازهما خلال سنتين.

٤ ـ مرحلة السطح العالي: وتتكون من مرحلة واحدة يمكن اجتيازها خلال سنتين أيضاً.

٥ ـ مرحلة الخارج (التخصص) لمدة ٣ سنوات.

المواد الدراسية:

١ ـ القرآن الكريم: التلاوة، الترتيل، التجويد، الحفظ، علوم القرآن، التفسير الترتيبي والموضوعي في جميع المجالات العلمية (حوزوية وجامعيّة).

٢ ـ اللغة العربية: المحادثة، الصرف، النحو، فقه اللغة، تأريخ الأدب.

٣ ـ لغة أجنبية.

٤ ـ المنطق وأصول الفقه، وأصول الفلسفة، أصول التبليغ، أصول التحقيق، أصول التدريس والتربية.

٥ ـ العلوم الإنسانية: علم النفس، علم الإجتماع، علم التربية، الإدارة، الحقوق، الاقتصاد.

٦ ـ الفقه والنظم الإسلامية «النظام: التربوي، التعليمي، العبادي،

الأسري، الحقوقي، الجزائي، السياسي، الإداري، الاقتصادي...».

٧ ـ أصول العقائد، الكلام، الفلسفة الإسلامية، فلسفة الغرب، الملل والنحل.

٨ ـ التأريخ: فلسفة التأريخ، تأريخ الأنبياء، تأريخ الإسلام، تأريخ المعصومين، تأريخ عصر الغيبة، التاريخ المعاصر.

٩ ـ جغرافية العالم الإسلامي، الجغرافية السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية للعالم في العصر الحاضر.

١٠ ـ الأخلاق والعرفان، فلسفة الأخلاق، النظام الأخلاقي الإسلامي، آداب التعليم والتعلّم.

١١ ـ علم الحديث، علم الرجال، أصول الفقه المقارن، الفقه المقارن.

١٢ ـ برامج جانبية: تعليم الخط، الرياضة، السباحة، تعليم أصول الدفاع، التدريب العسكري، أصول الصحة (التعليم الصحي) وغيرها مما يحتاجه الطالب في العصر الحاضر.

المرحلة التمهيدية
«مرحلة تعلّم القراءة الصحيحة للقرآن الكريم»

١ ـ مدة الفصل الدراسي = ستة أشهر.
٢ ـ المواد الدراسية لهذه المرحلة:
١ ـ القرآن الكريم = تعلّم التلاوة الصحيحة.
ختم القرآن خلال ستة أشهر تلاوةً.
تحت إشراف استاذ متخصص.
ينبغي تعليم آداب التلاوة مع تحفيظ نصوص قرآنية وروائية مناسبة.

٢ ـ الأخلاق = أ ـ آداب المتعلمين.
مع نصوص للحفظ من القرآن والسنّة.
ب ـ المهلكات والمنجيات
نصوص مختارة للحفظ من القرآن والسنّة.

٣ ـ الأحكام = أحكام التقليد + أهم مسائل الطهارة والصلاة والصيام.
نظرة عامة للأحكام في الإسلام + نظرة عامة للعبادة والعبادات.
نصوص قرآنية مختارة للحفظ.

٤ ـ أصول العقيدة = دورة عقائدية ميسّرة.
نصوص قرآنية وشواهد روائية موضحة.

٥ ـ الخط واللغة = دورة تحسين الخط.
دورة تعليم اللغة الفارسية لغير الفرس والعربية لغير العرب.

المرحلة الأولى
«مرحلة تعلّم معاني المفردات القرآنية»

١ ـ مدة الفصل الدراسي = ستة أشهر.

٢ ـ المواد الدراسية لهذه المرحلة:

١ ـ القرآن الكريم = أ ـ ترتيل، دورة كاملة خلال ستة أشهر.
بإشراف أستاذ متخصص.
ب ـ حفظ جزئين خلال ستة أشهر = كل أسبوع ١/٨ الجزء.

٢ ـ الصرف = أ ـ كليات علم الصرف (مبادىء وأصول علم الصرف).
ب ـ تفصيل مباحث علم الصرف مع تطبيقات قرآنية.

٣ ـ الأخلاق = منية المريد (أو ما يقوم مقامه ويؤدي دوره).
مختارات من قصص القرآن الكريم مع التأكيد علىٰ الجانب الأخلاقي لشخصية الأنبياء عليهم السلام ويحسن حفظ ايات مختارة في المجال الأخلاقي.

٤ ـ الأحكام = الأصول العامة للنظام الإسلامي للحياة.
حفظ الآيات الدالة علىٰ هذه الأصول.
خلاصة أحكام الزكاة والخمس والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ ـ أصول العقائد = دورة استدلالية مع تطبيقات قرآنية.

٦ ـ دورة مبسّطة من علوم القرآن + تعليم أصول التحقيق العلمي ومنهجه.
(تطبيق مبسّط تحت إشراف الأستاذ فيما يرتبط بإحدىٰ المواد الدراسية السالفة الذكر) + تعليمات صحيّة إسلامية + الرياضة البدنية + السباحة.

المرحلة الثانية
«مرحلة فهم معاني الجمل القرآنية»

١ ـ مدة المرحلة = سنة واحدة.
٢ ـ المواد الدراسية لهذه المرحلة:
١ ـ القرآن الكريم = أ ـ التجويد، بإشراف أستاذ متخصّص.
ب ـ حفظ أربعة أجزاء = كل أسبوع ٨/١ الجزء.

٢ ـ النحو = أ ـ دورة مبسّطة (مبادىء وأصول علم النحو) خلال ثلاثة أشهر.
تطبيقات قرآنية.
ب ـ دورة تفصيلية (مع تطبيق يستوعب القرآن كله)،
ومن خلال هذا التطبيق يحصل الطالب علىٰ دورة مبسّطة لتفسير القرآن الكريم.

٣ ـ تأريخ الأنبياء = شخصية الأنبياء وأساليب دعوتهم ومواجهتهم لأممهم، مع التأكيد الخاص علىٰ الخلق الرفيع لكل منهم.
(ويحسن تكليف الطالب بتحقيق علمي مبسّط في حقل التاريخ أو الأخلاق في القرآن الكريم بإشراف أستاذ المادة).

٤ ـ علم الكلام = تاريخه، أهمّ مسائله، موقف القرآن من كل منها: أساليب الاستدلال في القرآن الكريم.

٥ ـ الفقه = دورة فقهية مبسّطة عن سلوك الفرد المسلم في المجتمع الإسلامي اعتماداً علىٰ آيات الأحكام مع تفسير مبسّط والتكليف بحفظها.

٦ ـ فقه اللغة + التعرّف علىٰ بعض كتب التراث + ممارسة الكتابة في موضوعات يعيّنها الأستاذ + التعرف علىٰ الأدب بشكل عام والأدب العربي بشكل خاص.
الرياضة البدنية (تصعيد المهارة الدفاعية = الفروسية علىٰ حد تعبير النص).

المرحلة الثالثة

«مرحلة التعرف علىٰ بلاغة القرآن الكريم»

١ ـ مدة المرحلة = فصلان = سنة واحدة.

٢ ـ المواد الدراسية لهذه المرحلة:

١ ـ القرآن الكريم = أ ـ حفظ أربعة أجزاء.

ب ـ التفسير (الكاشف أو مختصر مجمع البيان).

٢ ـ البلاغة = تطبيقات قرآنية (دراسات فنية في قصص السور القرآنية) (دراسات في عمارة السورة القرآنية).

٣ ـ النحو = دورة تكميلية (مهذّب المغني. ويمكن إدراج هذه المادة في التفسير في هذه المرحلة).

٤ ـ المنطق = أ ـ خلاصة المنطق (المبادىء والأصول).

ب ـ دورة تفصيلية مع تطبيقات قرآنية.

جـ ـ منطق القرآن الكريم.

د ـ منطق الفقه (أصول الفقه بمستوىٰ الحلقة الأولىٰ).

٥ ـ التاريخ الإسلامي = تاريخ العصر المكي والمدني + سيرة النبي محمد صلّى الله عليه وآله من خلال آيات القرآن الكريم.

٦ ـ أصول العقائد = المعاد (في القرآن الكريم) = تفسير موضوعي + تحقيق علمي بإشراف الأستاذ.

٧ ـ دورة استدلالية بمستوىٰ (فقه الإمام الصادق عليه السلام) ويعتمد الأستاذ في بعض الأبواب علىٰ جهد الطالب تحت إشرافه وبذلك يمكن تدريس دورة فقهية كاملة خلال سنة واحدة.

المرحلة الرابعة
«مرحلة التعرّف علىٰ أصول الاستنباط»

١ ـ مدة المرحلة = فصلان = سنة واحدة.
٢ ـ المواد الدراسية لهذه المرحلة:

١ ـ القرآن الكريم = أ ـ تدريس بعض المراحل السابقة.
ب ـ حفظ أربعة أجزاء أخرىٰ.
جـ ـ التفسير بمستوىٰ مجمع البيان (الأجزاء التي يطلب حفظها).

٢ ـ أصول الفقه = بمستوىٰ الحلقة الثانية + تطبيقات قرآنية وروائية + محاولة استقراء الآيات المرتبطة بمباحث الحجج والأصول العملية.

٣ ـ الرجال والدراية = تطبيق ومراجعة لأمهات كتب الحديث والرجال.

٤ ـ الفقه = نظام العبادات ونظام الأسرة (فقه القرآن للراوندي وكنز العرفان).

٥ ـ الفلسفة = مبادىء وأصول الفلسفة وموقف القرآن منها.
نظرية المعرفة + مباحث التوحيد فلسفياً وقرآنياً.

٦ ـ مبادىء النظرية الأخلاقية والتربوية في الكتاب والسنة.

٧ ـ التاريخ = أ ـ فلسفة التاريخ في القرآن الكريم.
ب ـ دور الأئمة المعصومين في إحياء الإسلام.
دراسة تفصيلية لحياة كل منهم.
يستعان بالطالب للتحقيق وتكميل هذه المادة الدراسية.

٨ ـ أصول التبليغ وأساليبه + الثقافة الإسلامية في الأدب الفارسي.
تعلّم لغة أجنبية لأغراض علمية وتبليغية.

المرحلة الخامسة
«المرحلة التكميلية للتعرف علىٰ أصول الاستنباط»

١ ـ مدة المرحلة = فصلان = سنة واحدة.

٢ ـ المواد الدراسية لهذه المرحلة:

١ ـ القرآن الكريم = أ ـ تدريس بعض دروس المراحل السابقة.

ب ـ حفظ أربعة أجزاء أخرىٰ.

جـ ـ تفسير القرآن وعلومه: بحوث مختارة من «الميزان» + التحقيق في جملة من مباحث علوم القرآن. يحسن تكليف الطالب بهذا التحقيق تحت إشراف استاذ المادة.

٢ ـ الأخلاق = أ ـ فلسفة الأخلاق (النظرية الأخلاقية في القرآن الكريم).

ب ـ تحقيق علمي يقوم به الطالب عن النظام الأخلاقي في الإسلام تحت إشراف الأستاذ.

جـ ـ العرفان وموقف القرآن منه.

٣ ـ أصول الفقه المقارَن.

٤ ـ الفقه = النظام الاقتصادي والحقوقي والجزائي والسياسي والإداري (آيات الأحكام بشكل استدلالي = فقه القرآن وكنز العرفان).

٥ ـ النبوّة والولاية في القرآن الكريم. (دراسة وتحقيق علمي).

٦ ـ علم الاجتماع والقرآن الكريم.

٧ ـ تاريخ وجغرافيا العالم الإسلامي خلال عصر الغيبة.

الملل والنحل.

٨ ـ ممارسة التبليغ والتدريس والكتابة والتأليف.

المرحلة السادسة
«المرحلة الأولى لممارسة الاستنباط»

١ ـ مدة المرحلة = سنتان = أربعة فصول
٢ ـ المواد الدراسية:

١ ـ القرآن الكريم = أ ـ حفظ ستة أجزاء خلال سنتين.
ب ـ التفسير وعلوم القرآن (الميزان).

٢ ـ مبادىء التربية والنظام التربوي في الإسلام (الكتاب والسنة).
دراسة علمية تحقيقية يقوم بها الطالب بإشراف الأستاذ.

٣ ـ أصول الفقه = الحلقة الثالثة (وما يوازيها).

٤ ـ الفقه المقارن = (فقه استدلالي يقارن بين المذاهب المختلفة عند المسلمين).

٥ ـ الفقه الإمامي = أ ـ الفقه عند الإمامية وأساليب الفقهاء.
ب ـ مكاسب الشيخ الأنصاري/ جواهر الكلام.

٦ ـ الفلسفة المقارنة = الفلسفة الإسلامية والفلسفة المعاصرة.

٧ ـ الأديان + جغرفايا وتاريخ العالم الإسلامي في العصر الحاضر (الثورة الإسلامية المعاصرة = دراسة وتحليل).

٨ ـ الممارسات العملية (التدريس والتبليغ والتأليف).

المرحلة السابعة
«المرحلة الثانية لممارسة عملية الاستنباط»
مع التخصص في فرع من فروع المعرفة الإسلامية

١ ـ مدة المرحلة ثلاث سنوات

٢ ـ المواد الدراسية:

١ ـ القرآن الكريم = أ ـ حفظ الأجزاء الستة المتبقية.
ب ـ التفسير الموضوعي (دراسة وتحقيق).
جـ ـ تدريس بعض المراحل السابقة من التفسير.

٢ ـ أصول الفقه = الدراسات العليا (بحث الخارج).

٣ ـ الفقه = الدراسات العليا (بحث الخارج) مع حضور مجلس استفتاء.

الأسلوب المقترح للدراسة في هذه المرحلة هو تحضير البحث وتنظيمه وتدقيقه وكتابته تحت إشراف الأستاذ وقبل حضور الدرس. والأفضل في هذه المرحلة أن يكون الأستاذ مشرفاً قبل أن يكون معلّماً وملقّناً. وعلىٰ الطالب المباحثة والمناقشة للمادة قبل الحصول عليها جاهزة من فكر الأستاذ ليكون حضوره حضور تحقيق وتعمّق. وليكن الدرس لعلاج آخر الشبهات المتبقية لدىٰ الطالب.

٤ ـ الاهتمام والاختصاص في أحد الفروع التالية:
التربية، علم النفس، علم الاجتماع، الاقتصاد، الحقوق، التاريخ، السياسة، الفلسفة علوم القرآن، الأديان، الكلام، العرفان. . .

٥ ـ الممارسات = التدريس، التبليغ، التأليف.

البحث المتقدم تناول الدروس الحوزوية بنحو عام حيث قدم مقترحات لتطوير الدروس المشار إليها . أما الآن فنعرض مقترحاً آخر يتصل بالدرس البلاغي حيث قدم الكاتب[١] طرحاً جديداً للخطاب البلاغي ، فيما تدرّس البلاغة ـ كما نعرف ذلك جميعاً ـ في الحوزة العلمية في النجف بنحوها الموروث وهو أمر لا يتساوق مع حياتنا المعاصرة . لذلك ، فإن البحث الآتي توفّر على ابراز الجوانب السلبية للبلاغة الموروثة ، وقدم تبعاً لذلك مبادئ جديدة للدرس البلاغي تجمع بين الجانب الإيجابي من الموروث وبين البلاغة الحديثة .

ويجدر بنا أن نكتفي بعرض عابر للمسائل المذكورة مع الخطوط العامة للمنهج المشار إليه[٢] .

---

(١) الدكتور محمود البستاني .

(٢) نشر هذا البحث في مجلة الفكر الإسلامي العدد الثامن .

الدرس البلاغي والإصلاح

د. محمود البستاني

البلاغة القديمة التي لا تزال الحوزة معنية بها، تطبعها جملة من العيوب التي لا يمكن التغاضي عنها؛ بخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن صياغة قواعدها تمتد إلى أكثر من ألف عام، حيث حدثت تطورات فنية خلال هذا الزمن؛ بنحو يجعل البلاغة الموروثة قاصرة عن تمثل ذلك بطبيعة الحال.

طبيعياً؛ نحن لا نملك الحق في مطالبة البلاغيين القُدامى بأن يتجاوزوا حدود زمنهم، وأن يصوغوا القواعد التي لا تسمح بها ثقافتهم الفنية آنذاك، ولكننا نملك الحق في توجيه اللوم إلى المعاصرين الذين جمدوا على قواعد أسلافهم؛ بحيث يمكن القول بأن دراساتهم التقليدية أفسدت أذواقهم وعطّلتها بدلاً من أن تُنميها وتصقلها.

صحيح أن قسماً من هذه القواعد لا يزال يحتفظ بفاعليته وصوابه؛ إلاّ أن قسماً آخر منه يظل موسوماً بعيوب يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١ ـ عدم شموليتها لجميع القواعد؛ بمعنى أن البلاغة القديمة لم تتناول كل أشكال الفن وكل قواعده، بل اقتصرت على البعض منها دون البعض الآخر... فالقصة ـ على سبيل المثال ـ مع أنها تحتل مساحة كبيرة من نصوص القرآن الكريم لم تتحدث البلاغة القديمة عنها حتى بكلمة واحدة، علماً بأن بعض البلاغيين يصرح بأن هدفه هو: دراسة الإعجاز القرآني الكريم، فكيف يهمل أهم عناصر هذا الإعجاز وهو: القصة القرآنية!

٢ ـ تتسم البلاغة القديمة بالتناول (الجزئي) للنص بدلاً من التناول (الكلي)

له ؛ بمعنى أن قواعدها تتناول المُفردة أو الجملة أو الفقرة فحسب ؛ حيث تحصر ذلك في نطاق المسند والمسند إليه وقيودهما من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير . . في (حقل المعاني) ، وفي نطاق التشبيه والاستعارة والكناية . . . في (حقل البيان) ، وفي نطاق المحسنات اللفظية والمعنوية في (حقل البديع) ، وهي جميعاً لا تتجاوز المفردة أو الجملة أو الفقرات المحدودة ؛ علماً بأن النص الأدبي لا تنحصر جماليته في فقرات أو آيات مستقلة ، بل في كونه جملاً أو آيات يرتبط بعضها مع الآخر ، ويخضع لهندسة خاصة من حيث تنسيق الأفكار والمواقف . فمثلاً لو تناولنا (سورة الكهف) وأخضعناها للتناول الجزئي لما خرجنا بأكثر من آيات أو جُمل متناثرة منفصل بعضها عن البعض الآخر على نحو الأعضاء المنفصلة عن جسم الإنسان ، كاليد أو الوجه أو الصدر . . . لكننا لو أخضعناها للتناول الكلي لخرجنا بنتيجة أخرى هي مواجهتنا لنصّ فنيّ متناسق الأجزاء على نحو التناسق الذي نلحظه في تركيبة الجسم البشري ، أو سائر الأجسام أو الأشكال الطبيعة والمُصطنعة ، فالسورة بدأت بطرح فكرة خاصة ، وهي نبذ زينة الحياة الدنيا ﴿**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم** . .﴾[1] ثم قدمت قصّة (أهل الكهف) لتجسد لنا مفهوم (نبذ الزينة) عملياً من خلال اللجوء إلى الكهف ، ثم طرحت فكرة نبذ الزينة من جديد حينما قالت : ﴿ . . . **ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** . .﴾[2] حيث أعقبتها بقصة جديدة هي قصة صاحب الجنتين الذي بهرته ـ على عكس أصحاب الكهف ـ زينة الحياة الدنيا ؛ بحيث ظن أن جنتيه لن تبيدا أبداً ، بل شكك حتى بقيام الساعة . ثم تقدم النص بطرح فكرة زينة الحياة الدنيا للمرة الثالثة ؛ حينما قال : ﴿**المال والبنون زينة الحياة الدنيا** . . .﴾[3] بعد ذلك قدم قصتين : إحداهما عن شخصية موسى والعالم ، والأخرى عن شخصية ذي القرنين ؛ حيث جسد العالم شخصية مبهمة منعزلة عن الدنيا ، وحيث جسّد ذو القرنين شخصية مشهورة ملكت شرق الأرض وغربها ، إلاّ أنها لم تبهرها زينة

---

(١) ٧ .
(٢) ٤٦ .
(٣) ٢٨ .

الحياة الدنيا كما بهرت صاحب الجنتين . . . فالملاحظ هنا أن السورة الكريمة قد ارتبط بعضها مع الآخر بحيث لم تفصل الآيات بعضها عن البعض ، كما لم يفصل نثرها القصصي عن نثرها غير القصصي ، بل تلاحمت جميعاً وفق تخطيط هندسي قائم على فكرة (زينة الحياة الدنيا) بالنحو الذي لاحظناه ، وهو تخطيط يقابل بين أشخاص نبذ بعضهم زينة الحياة ، وتشبث البعض الآخر بها ، ويقابل بين أشخاص تملك بعضهم مزرعة صغيرة فبهرته ، بينما تملك بعضهم كل بقاع الأرض : شرقها وغربها ، دون أن تبهره الزينة المذكورة . .

إذاً : كم يتحسس القارئ بجمالية النص الأدبي وحيويته ؛ حينما يتناوله من خلال (الكل) وليس من خلال (الجزء) الذي يطبع البلاغة القديمة .

٣ ـ العيب الثالث الذي يطبع البلاغة الموروثة هو :

خطأ المفهومات البلاغية ذاتها . . . فمثلاً نجد في حقل (التشبيه) أن البلاغيين يذكرون بأن (التشبيه البليغ) ـ وهو ما حُذفت منه أداة الشبه ووجد الشبه ـ أشدّ بلاغة من التشبيه المقترن بالأداة ، وان (تشبيه التمثيل) ـ وهو ما كان وجه الشبه فيه منتزعاً من أطراف متعددة ـ أشد بلاغة من غيره . . . إن أمثلة هذه المعايير فضلاً عن أخطائها الملحوظة التي تشتمل على التناقض بينها ؛ تنطوي أيضاً على خطأ المعيار ذاته ، أما التناقض فيتمثل في ذهابهم إلى أن التشبيه الذي حذفت أداته ووجه الشبه فيه هو أبلغ من غيره ؛ فإذا كان حذف وجه الشبه دلالة على بلاغته ، فكيف يصبح تعدد وجه الشبه دلالة على بلاغته أيضا؟ ! وأما خطأ المعايير ذاتها فيتمثل في ذهابهم إلى كون التشبيه الذي حذفت أداته ووجه الشبه هو أبلغ من غيره ؛ حيث يترتب على ذلك أن تكون تشبيهات القرآن الكريم مثلاً ـ وهي في الغالب تشتمل على ذكر الأداة ووجه الشبه ـ أقل بلاغة من التشبيهات التي يصوغها البشر ، وهذا هو (الكفر) بعينه ببلاغة القرآن .

و ما نلحظه من خطأ المعايير البلاغية الموروثة في ميدان ما يسمى بـ(علم البيان) نجده في علمي (المعاني) و(البديع) أيضاً . . . فلو وقفنا ـ على سبيل المثال ـ عند معايير (السجع) للحظنا أن البلاغيين يزعمون بأن أحسن السجع ما تساوت عبارته ، ثم ما طالت عبارته الثانية ، ثم ما طالت عبارته الثالثة ، ولا

يحسن عكس ذلك . . . ويعللون ذلك بتعليل يفتقر إلى معرفة أبسط المبادئ النفسية ؛ حيث يدعون بأن السامع إذا واجه عبارة أقصر من الأولى ؛ يكون في استجابته للنص متعثراً .

ترى : هل أن قوانين الإدارك البشري وما يواكبها من قوانين الاستجابة تؤيد مثل هذه المزاعم التي ينشرها البلاغيون ؛ دون أن يلمّوا بمبادئ الإدراك البشري وطرائقه . .؟ !

أصحيح أن استجابة الإنسان لجمال العبارة ينحصر في مواجهته لعبارة قصيرة ، ثم لعبارة تكبر عن الأولى ، ثم لعبارة تكبر عنهما؟

إن أمثلة هذه المبادئ ـ فضلاً عن كونها لا تتسق مع قوانين الإدراك البشري ؛ حيث أن هذه القوانين تُخضع كل شيء للسياق ؛ بحيث تصح القاعدة التي ذكرها البلاغيون في سياق خاص ، ولا تصح في سياق آخر ، حيث يكون العكس هو الصحيح .

أقول : إن معايير البلاغيين المُشار إليها فضلاً عن كونها منافية لأبسط مبادئ التذوق الفنّي ، فإنها مخالفة لبلاغة القرآن الكريم ذاته . . . فكم من عبارات مسجوعة ؛ تبدأ طويلة ثم تقصر ، أو تبدأ قصيرة ثم تطول ، ثم تقصر من جديد ، أو تتوازن حيناً ، وتتأرجح بين الطول والقصر حيناً ثالثاً ، وهكذا . . .

إذن : إن أمثلة هذه المعايير تظل منافية لمبادئ المعرفة ، ولبلاغة القرآن ذاته . حينئذ هل يصح أن نعتمدعلى هذه المعايير المنحرفة عن القرآن وبلاغته في حقل البلاغة القديمة؟

إن هذه العيوب ونظائرها تحملنا على إعادة النظر في البلاغة الموروثة ، ومحاولة صياغتها من جديد في ضوء النصوص الشرعية (الكتاب) و(السنة) حيث نحاول آن ننتزع قواعدها من نصوص القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام ، وهي نصوص إعجازية تخطت حدود الزمن ؛ بحيث صيغت بنحو تتوافق مع سائر التطورات التي شهدتها العصور الأدبية ، ومنها : (المعايير البلاغية الحديثة) .

طبيعياً : إن الإسلام لم يقدم لنا قواعد جاهزة ، بل قدم لنا نصوصاً تنطوي على القواعد المُشار إليها ، والسر في ذلك هو : إن المشرّع الإسلامي ؛ سمح لكل شخص بأن يستخلص القواعد وفقاً لطبيعة الثقافة التي تغلفه والبيئة التي ينتسب إليها ، إلاّ في نطاق محدد من القواعد العامة التي تشكل تراثاً مشتركاً لجميع الأزمنة ، وهذا من نحو القاعدة العامة التي صاغها الإمام الصادق عليه السلام في تحديده لبعض جوانب البلاغة ، حيث قال : «ثلاثة فيهن البلاغة : التقرّب من معنى البغية ، والتبعّد من حشو الكلام ، والدلالة بالقليل على الكثير» فدقة المعنى والتركيز والاقتصاد لغوياً : تظل معايير فنية لا تخص ذوقاً أو جيلاً دون آخر ، بل تشكل معايير عامة لمطلق الأزمنة ، ولذلك اكسبها الإمام عليه السلام سمة (القاعدة) في حين أنه عليه السلام نسج صمتاً حيال القواعد البلاغية الأخرى حتى يترك لنا ـ نحن المعنيين بشؤون الفن ـ أن نُعنى باستخلاص القواعد وفقاً لطبيعة البيئة التي تفرض هذه القاعدة أو تلك فمثلاً ؛ نجد أن العصر الحديث قد اعتمد (النثر المرسل) بدلاً من (النثر المقفّى) أو ما يسميه البلاغيون بـ(السّجع) وقد تجيء أجيال جديدة فتعتمد النثر المقفى من جديد مثلاً . . وهذا يعني أن الإرسال أو التقفية تظل مجرد وسائل جمالية تفرضها مواضعات البيئة . . . ولذلك نجد أن القرآن الكريم مثلاً أو النصوص الأدبية المأثورة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام تجمع بين النثر المرسل والنثر المقفي ، فنجد سورة قصيرة مثل سورة (النصر) قد اعتمدت النثر المرسل ، ونجد أخرى قصيرة أيضاً ، إلا أنها اعتمدت النثر المرسل ، ونجد أخرى قصيرة أيضاً إلا أنها اعتمدت (النثر المقفى) وهي سورة (العصر) . . . وهذا يعني أن النص القرآني الكريم قد راعى ـ من جانب ـ لغة العصر ؛ حيث كان النثر المقفى في العصر الجاهلي يقف قبالة الشعر المقفى ، حتى لكأن الفارق بين النثر والشعر آنذاك هو : انتظام الوزن في تفعيلاته المعروفة فحسب ، ولكن القرآن ـ من جانب آخر ـ راعى مطلق المعايير الفنية متمثلة في (النثر المرسل) الذي يظل طابعاً لكل الأجيال الأدبية ؛ قديماً وحديثاً . . . وهذا يعني أن هناك معايير مُطلقة في (البلاغة الإسلامية) لا تخص بيئة دون أخرى ، مقابل معايير (نسبية) تراعى من خلالها طبيعة المرحلة التأريخية التي تطبع هذا العصر أو ذاك .

انطلاقاً من هذه الحقائق نحاول أن نقدم البلاغة الإسلامية وفق مبادئ مستقاة من النصوص الشرعية من جانب بصفة أنها تشتمل على ما هو عام وخاص ؛ حيث نستخلص منها ما هو عام ، وأن نستخلص ـ من جانب آخر ـ مناهج جديدة مستقاة من روح التشريع الإسلامي ؛ مما أتيح لمناخنا المعاصر أن يتوفر عليها ، وهو مناخ يفرض علينا أن نخطط لمنهج بلاغي يختلف بطبيعة الحال عن المنهج البلاغي القديم في تصوراته التي أشرنا إلى جانب منها ، مع ملاحظة أننا سوف نحتفظ ـ في الآن ذاته ـ بالخطوط الأصلية التي توفرت البحوث البلاغية الموروثة عليها . .

لذلك ، فإن التقسيم الجديد للبلاغة ، ينبغي ان يخضع لتقسيم يستقطب ما سبق ذكره ، حيث يقسّم إلى ثمانية عناصر هي : العنصر الفكري ، الموضوعي ، المعنوي ، الصوري ، الإيقاعي ، اللفظي ، الشكلي ، البنائي .

ومما يجدر ذكره ، ان التقسيم الثماني للقواعد البلاغية ، يتميز تماماً عن التقسيم الثلاثي للبلاغة في شكلها التقليدي المعروف ، إذ أنّ الأخير يقتصر على عنصرين رئيسين فحسب هما : (المعاني والبيان) حيث اصطلح عليهما مؤلف الكتاب الجديد بـ(العنصر المعنوي) و(العنصر الصوري) مع ملاحظة أن المؤلف أضاف قواعد جديدة بالنسبة إلى (المعاني) مثل : المماطلة والتشويق ، التنويع الزمني ، الوحدة والتباين . . . كما أنه استخلص عشرة قواعد في (البيان) أسماها بالعنصر الصوري : بينا اقتصر البيان التقليدي على ظواهر معدودة (مثل التشبيه ، والاستعارة ، والكناية والمجاز بعامة) . في حين أضاف المؤلف إليها ظواهر أخرى : كالتقريب ، والتمثيل ، والفرضية ، والاستدلال والإحالة . . فضلاً عن أنه طرح المسائل التقليدية كالتشبيه والاستعارة والرمز والكناية في أطر جديدة مستقاة من واقع النص الشرعي .

وأما العنصر الثالث من البلاغة التقليدية وهو (البديع) فيظل في جانب منه مرتبطاً بعناصر لها استقلاليتها في النص الأدبي مثل عنصر (الإيقاع) ، وأخرى بعناصر لفظية وهكذا ، بحيث لا تقدم إلى القارئ قواعد لها استقلاليتها في النص الأدبي بقدر ما جعلها مجرد تزيين له ، مع العلم أن (العنصر اللفظي)



واجهة الحضرة العلوية المشرفة حيث الذهب يكسو القبة والمنارتين والمدخل الكبير

مثلاً بما يتضمنه من قواعد تتصل بالعبارة المفردة ، والعبارة المركبة ، والعبارة الحوارية ، ، ، يشكل عنصراً له استقلاليته في النص ، وكذلك سائر العناصر التي أهملتها البلاغة التقليدية ، لذلك فإن التقسيم الجديد الذي توفر عليه كتاب (القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي) يظل متجاوزاً أمثلة هذا الخلل في البلاغة التقليدية ، حيث جعل لكل عنصر استقلاليته التي تساهم في إضفاء البعد البلاغي على النص . فالمؤلف تحدث أولاً عن : (العنصر الفكري) للنص بصفته المادة الرئيسة التي يستهدفها النص (أي الفكرة التي يريد توصيلها إلى الآخرين) وتحدث ثانياً عن : (العنصر الموضوعي) حيث تحدث عن (المادة) التي تجسد الفكرة المشار إليها ، بصفة إن (الفكرة) تحتاج إلى (مادة موضوعية) تجسدها ، وتحدث ثالثاً عن : (العنصر المعنوي) بصفته عنصراً يحدد أساليب الدلالات الجزئية والكلية التي يتضمنها (الموضوع) كالتقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والتضاد والتقابل ، والوحدة والتنوع ، و . . . تحدث رابعاً عن : (العنصر الصوري) أي الأساليب المجازية التي يستخدمها النص في التعبير عن الحقائق بدلاً من الأسلوب المباشر وهذا كالتشبيه والاستعارة والرمز والتمثيل و . . . ، هذه الفصول الأربعة تتناول المضمون الداخلي للنص الأدبي .

وأما الفصول الأربعة الأخرى فتتناول (الهيكل) الخارجي للنص الأدبي وهي(العنصر اللفظي) حيث تناول المؤلف فيه مستويات الصياغة الفنية للمفردات والتركيبات اللغوية ، مضافاً إلى أشكال اللغة من سرد وحوار ، ثم تقسيمات الحوار إلى داخلي وخارجي ومستويات كل منهما : حسب ما فرضته البيئات الحديثة في الأشكال القصصية والمسرحية ونحوهما مما استخدمته النصوص التشريعية وأهملته البلاغة الموروثة . وفي الفصل السابع تناول المؤلف فيه : أشكال النص الأدبي فيما صنفها إلى أشكال شرعية (كالنص القرآني) و(الدعاء) ونحوهما ، وأشكال مشتركة بين ما هو شرعي وأرضي ، كالخطبة والخاطرة والمقالة ، وبين ما هو أرضي : كالقصة والرواية والمسرحية ،و . . .

وأما الفصل الأخير فهو حمل عنوان (العنصر البنائي) حيث أوضح فيه مستويات البناء العماري للنص من حيث كونه هيكلاً فنياً يقوم على هندسة خاصة من البناء للعناصر السبعة السابقة من حيث (الموضوعات) و(العرض)

و(الشكل) من حيث صلة النص بالموضوعات والأفكار وطريقة بنائها أي حيث صلة مقدمة النص ووسطه ونهايته؛ بعضها مع الآخر فيما يتم ذلك من خلال (السببّية) و(النمّو) ونحوهما، وتجانس ذلك مع سائر العناصر التي يتضمنها النص، ثم من حيث أشكال البناء الذي يتخذ نمطاً (أفقياً) و(طولياً) و(مقطعياً)، و . .

ان ما يتميز به مثل هذا التقسيم الجديد للقواعد البلاغية، هو :

١ ـ اتكاؤه على المفهوم المعاصرة للبلاغة .

٢ ـ انتخابه من البلاغة الموروثة : ظواهرها المشتركة في جميع العصور، وإهمال ما لا يتسق مع الثقافة الحديثة .

٣ ـ استخلاص القواعد من النصوص الشرعية (القرآن الكريم) و(نصوص المعصومين عليهم السلام) حيث اقتصر الكتاب على الاستشهاد بهذه النصوص فحسب؛ بصفة أن هذه النصوص ـ كما أشار المؤلف ـ في مقدمة كتابه تتناول (الخاص) و(العام)، اي الخاص في زمن التشريع، والعام الذي تساوق مع جميع الأجيال الأدبية حيث استخلص المؤلف منه (أي : العام) القواعد المشار إليها .

* * *

قبل أن نطوي ملف الحديث عن الاتجاهات الهادفة إلى إدخال المناهج الجديدة في الدرس الحوزوي ، وجدنا من المناسب أن نعرض لوجهة نظر مضادة للاتجاهات المذكورة ، حيث تمثّل الصوت الحوزوي ، إلا أنها تطرح ذلك من خلال المناقشة الوادعة ، وذلك من خلال تساؤلها : أي الاتجاهين أكثر فائدة للطالب الحوزوي : الدراسة الحرة المتعارفة ، أم الحديثة ، وهذا ما طرحه السيد (محمد تقي الطباطبائي) ضمن عنوان :

أي الدراستين أجدى؟

الحرة المتعارفة.. أم المنهجية الحديثة

للعلامة السيد محمد تقي الطباطبائي

إذا أردنا أن نحكم على الأمور بنتائجها ، فلا مناص من الحكم لصالح كل ما يعطينا نفعاً أكثر وثمراً أطيب .

هناك طريقتان في الدراسات العلمية في النجف الأشرف تتنازعان المشتغلين بها ، إحداهما طريقة الحلقات المتداولة منذ ما يقارب ألف عام ، والأخرى طريقة الدراسة المنهجية الحديثة ، ولكل منهما مؤيدون ، ومنهم من يتطرف في تأييد هذه وشجب تلك ومنهم من يتطرف في تأييد تلك وشجب هذه ، وهناك من يقف وسطاً لا يميل إلى إحداهما كل الميل ، ولا يميل عنهما كل الميل ، بل يرى لهذه فوائدها ومزاياها وعيوبها ، كما يرى لتلك .

ولا بد من التنبيه إلى أن تجربة كل منهما قد وقعت بالفعل ، وأعطت نتائجها ، بفارق : إن تجربة إحداهما قد بدأت قبل عشرة قرون ولا تزال مستمرة في إعطاء نتائجها وثمارها ، في حين أن تجربة الأخرى لم يمر عليها سوى زمن يسير ، مع انعدام الدلائل التي تشير إلى ضمان قدرتها على الاستمرار في إعطاء النتائج والثمرات ، وأنا حين أحكم على شيء ، فلا بد أن ينعكس في هذا الحكم ـ عن قصد أو غير قصد ـ ما بلوته وخبرته وجربته . أما أن يكون حكمي مطابقاً للواقع أو مخالفاً له ، فليس ذلك حتماً وبالضرورة .

وأول ما يستقبلنا من وجوه المقارنة العديدة بين الطريقتين . . هو هذه الحرية الواسعة في طريقة الحلقات ، من حيث اختيار الكتاب الدراسي ، وتقديم دراسة بعض العلوم على آخر ، والحضور عند هذا الأستاذ أو ذاك ، وتعيين المكان والزمان ، ولا نجد مثل هذه الحرية في الطريقة المنهجية ، فالكتب الدراسية قد عينت مسبقاً ، والزمان والمكان لا دخل لإرادة الطالب وظروفه فيهما . فضلاً عن رأي الطالب في أستاذه أو العلم الذي يتلقاه منه ، أو الطريقة التي يستخدمها هذا الأستاذ في تدريسه . على أن الأمر لم يقف عند هذه الحرية ، فنحن جميعاً نعرف أن طلب العلم على طريقة الحلقات تعني الشغل والدأب المتواصل ، حتى يسعنا أن نقول : إنه لا فراغ في حياة الطالب هنا ، بينما يكثر الفراغ في الدراسة المنهجية الحديثة ، وما رأيك في عطلة لا تقل عن أسبوعين في منتصف العام ، وأخرى طويلة الأمد لا تقل عن ثلاثة أشهر وقد تزيد ، وهي الواقعة في فصل الصيف من كل عام .

ونقطة أخرى أحببت الإشارة إليها ، وهي أن طالب الحلقات لا يبتغي بدراسته سوى الحق والصدق ، وليس من هدفه أن ينال جاهاً أو رفعة ، أو يحصل على شهادة مهما كان نوعها ، بينما يغلب في الدراسة المنهجية أن يكون الدافع إليها والباعث عليها هو الحصول على الشهادة ونيل الشهرة ، عن طريق ما يحصل عليه من ألقاب ، يزود بها على حسب تقدمه في الدراسة وتوغله فيها .

ولعل هناك من لا تفوته الفرصة في أن يأخذ على طريقة الحلقات قلة إنتاجها من العلماء والفقهاء ، ممن يصلح الرجوع إليهم والأخذ عنهم ، وهنا لا أراني ملزماً أن أجيب عن مثل هذا ، فالكل يعلم أن القليل النافع لا يقاس به الكثير العقيم ، وما رأيك إذا بحثنا في طلاب الدراسات المنهجية فلم نعثر على واحد يصلح أن يرجع إليه ، ويؤخذ عنه شيء ، ولا أظن أنا نعثر على هذا في ما سنستقبل من العمر ، ثم الطلاب على الطريقة الأولى قليلون ، والحقيقيون منهم أقل مما يبدو في الظاهر ، والطلاب على الطريقة الثانية كثيرون وهم أكثر مما يلزم في الواقع .

الطالب الأول إما أن يطلب العلم بجد وإخلاص فذاك ، وإما أن لا يطلبه

بجد وإخلاص فليس بطالب ، واما الطلاب على الطريقة الثانية فمطلوب منهم حفظ أو فهم مواضيع بعينها ، ويراد منهم بعد ذلك اجتياز امتحان توضع له أسئلة وفيها ما يخير فيه الطالب بين الإجابة أو الإعراض عنه .

ولا أدري إلى أي حد ستنتهي بي المقارنة بين الطريقتين ، ولعلها تنتهي إلى ما لا تحمد عقباه ، ثم لا علينا إذا ألقينا نظرة على نظام الامتحانات التي يحشد لها الطالب في الطريقة المنتهجية كل قواه فإذا هو بعد فترة الامتحان لا يدري ماذا كان السؤال ، وماذا كان الجواب ، وإذ هو لا يذكر شيئاً بعد فترة قد تطول من الزمان ، ولا نجد في الطريقة الأولى امتحاناً . فالطالب فيها هو المسؤول عن نفسه ، يطالبها دائماً بأن تستحضر جميع المسائل المتعلقة بمهمته وما يدور حولها ، وكأنه دائماً على موعد مع الامتحان ، ولعلي مصيب إذا قلت : إن الامتحان يعطي عكس الأثر المطلوب ، فهو إذ يراد به الإحاطة بالعلم وفهمه واستيعابه يؤدي إلى ضياع العلم وفقدانه أو ضعف في فهمه على الأقل ، وخير الأمور ـ فيما أظن ـ أن تقاس بنتائجها من أن تقاس ببدايتها .

وقبل أن نفترق أرى أن ألخص المقارنة هذه في نقطتين أساسيتين :

١ ـ الأصالة والعمق في الطريق الأولى ـ الحرة المتعارفة ـ وهما ناشئان من الرغبة المجردة عن أي شائبة دنيوية ، ومن الحرية الواسعة ، وعدم الفراغ ، وحالة التأهب الدائمة المستمرة . . والشكلية (الروتينية) في الطريقة الثانية ـ المنهجية الحديثة ـ ، وهذه ناشئة من العبودية للنظام وللشكل والهندام وإذا أردت الهزل فأقول وللقعود والقيام ، وعدم وجود مجال كاف لحرية الكلام .

٢ ـ الإنتاج المحدود توأم تلك الأصالة وذلك العمق في الدراسة الحرة ولكنه انتاج يصلح لأن يرجع إليه ويؤخذ عنه ، والانتاج الكثير غير المحدود في الدراسة المنهجية ـ الذي هو توأم الشكلية (الروتينية) ، وكل هذا الانتاج ـ أو جله على الأقل ـ لا يصلح للرجوع إليه والأخذ عنه .

وأخيراً أتمنى للقارئ من طلال العلوم الدينية اختيار أية طريقة تلائم مزاجه العلمي وذوقه الفني ، وأرجو له نجاحاً في ما يلائم مزاجه وذوقه ، وكل ما فعلت ـ الآن ـ هو تسجيل ما خبرته من تجربة ـ في الدراسة المنهجية ـ قد يمكن

وصفها بالمرارة على ما ضاع فيها من وقت، وما هدرت فيها من جهود، وقد يكون هذا مختصاً بفرد، ولا سبيل له إلى التعميم.

وملاحظة لا أود إغفالها وهي أن هذا الموضوع لا ينبغي له أن يكتب بهذا الشكل من الضغط الهائل على جميع جهاته الست، بل يراد له شيء كثير من تفصيل، وإعطاء بيانات وأرقام، ووضع نقاط على حروف ـ كما يقال ـ وذلك ما سينبري له آخرون قد يصلون منه إلى ما لم أصل إليه، ويأخذون منه بما لم آخذ فيه، وقد ينالون في ذلك من النجاح والتوفيق أكثر مما نلت أو أدركت.

***

قبل أن نغادر حديثنا عن الأفكار الإصلاحية ونتجه إلى المرجعية ورجالها، يجدر بنا أن نعرض وجهة نظر أكبر شخصية حوزوية (السيد محمد باقر الصدر) حيث تحدث عن المرجعية والدرس الحوزوي مقترحاً ومخططاً لجملة قضايا عبر فقرتين كتبهما أحد الدارسين[1]، نقدمهما إلى القارئ بهذا النحو :

١ ـ الفقرة الأولى تحت عنوان (جامعة النجف الأشرف) .

٢ ـ الفقرة الأخرى تحت عنوان : (المرجعية في حياة الشهيد الصدر) .

---

(١) الكاتب هو محمد الحسيني .

معالم جامعة النجف الأشرف

لمدرسة النجف الأشرف معالم متميزة وخصوصيات فريدة تفتقر إلى بحث مستقل لاستعراض جوانب العظمة فيها والمظاهر السلبية معاً .

ولست بصدد البحث عن هذه الجوانب فإن له محلاً آخر وهو يفتقر إلى الدقة والاستقراء والتأني واستنطاق الأجواء التي عاشتها هذه المدرسة العظمية ، ولكني سأذكر باختصار وبإيجاز بعض المعالم التي طبعت هذه المدرسة ـ وهي ظاهرة للعيان ـ لأمهد للحديث عن دور السيد الشهيد (قده) في هذه الجامعة الكبرى وموقعه القيادي فيها وما قدمه من إنجازات عظيمة ومكاسب مهمة رغم قصر الفترة الزمنية التي تصدى السيد الشهيد (قده) فيها لتولي هذه الزعامة والإشراف القيادي .

من المعالم المتميزة لهذه المدرسة أنها تتبع أسلوب الدقة في الدراسة والبحث والتحقيق بشكل لا مثيل له في جامعات العالم ، ولذلك جاءت الدراسات والنتائج التي توصلت إليها هذه المدرسة في مختلف ميادين العلم بدرجة من المتانة والأحكام والسبك منقطعة النظير ، ومن أجل ذلك يقضي العلماء والطلاب أعمارهم في تحصيل العلم وغالباً ما يكون الدافع لذلك هو الكشف عن الحقيقة والوصول إلى النتائج الصحيحة دون أن ينتظر الباحث نيل الشهادات المتعارفة ـ في الدراسات الأكاديمية ـ سوى درجة الاجتهاد التي تؤهله لاستنباط الأحكام الشرعية وهي ما يمنحه أكابر العلماء لتلامذتهم بعد التأكد من أهليتهم لذلك وبعد أن يقضي هؤلاء التلامذة أعمارهم في طلب العلم وتحصيله وقد لا ينال

ذلك الكثير من هؤلاء بالرغم من انقضاء عشرات السنين على دراستهم لعدم توفر أهلية هذه الدرجة .

وتبدو آثار القدم واضحة على هذه المدرسة العظمية في أسلوب الدراسة والمناهج والتنظيم والتفكير والكتابة ، وغالباً ما يرفض رجالها كل جديد دون مناقشة ، ويشعرون إزاءه بالضيق والحرج ، فإنهم باستصحابهم القديم في غنى عن الجديد وعن مشاكله ، يجد دعاة التجديد في مدرسة النجف مقاومة شديدة جداً تتجاوز الاستهزاء والاتهام والتشنيع ، فلم يقدر النجاح لدعاة التجديد سوى البعض منهم من أكابر العلماء ممن يتمتع بالحزم والجرأة والثبات وعدم المبالاة تجاه الطراز القديم ، ومكنتهم ظروفهم العائلية والاجتماعية من المضي في متابعة مشاريعهم الإصلاحية . وكانت أولى عمليات الإصلاح والتغيير في طابع مدرسة النجف ما قام به الشيخ محمد رضا المظفر وصحبه من العلماء الواعين وذلك عندما تصدى لتأسيس مدارس «منتدى النشر» سنة «١٣٥٤هـ» ثم أقدم على تأسيس كلية الفقه سنة «١٣٥٧هـ» بعد صبر طويل على المعاناة .

وكانت الهوة كبيرة بين المحافظين ـ إذا صح التعبير ـ وبين المجددين فالمحافظين يرفضون كل جديد دون أن يقدموا على دراسة معطياته وإمكانية الاستفادة منه ، والمجددون يصرون على التجديد واستبدال كل ما هو قديم .

وكان لكل من الفريقين حجته ـ وهم صادقون جميعاً في خدمة هذه المدرسة ـ بيد أن الأجواء لا تسمح لهم بالجلوس على طاولة واحدة للمناقشة والمفاوضة من أجل الوصول إلى الحلول السليمة لأن الواقع كان لا يسمح بمثل ذلك .

ومن المناسب أن أنقل بعض الكلمات لأحد العلماء المجددين السيد محمد تقي الحكيم وهو يتحدث عن الصراع وذلك في الستينات إذ يقول :

«وإذا قدر لهذا الصراع أن يعرى من وجهه العاطفي فإن دارسي هذه الفترة يجدون في وجهات النظر على اختلافها ما يقربها نسبياً من الحق .

فالقائلون بضرورة الإبقاء على أسلوب وكتب ومناهج الدراسة في هذا البلد كانوا يرون في طابع الحرية الذي يسود في أنظمتها ، سواء في اختيار الطالب

لأستاذه أم الكتاب الذي يدرسه ما ينمي ملكته ويقوي من شخصيته العلمية وكانوا يعزون إلى هذا النظام ما عرف به طلابها من حرية فكرية في ميادين المناقشة والجدال مع قدرة التحرر من جميع مسبقاتهم الفكرية إذا اتضح من خلال المناقشة مجافاتها للحق الذي يهدفون إليه .

وكان أبلغ حججهم على سلامة هذه الأساليب الدراسية : أن عطاء هذا النوع من الدراسة في هذه البلدة المقدسة لا يعدله أي عطاء في أية جامعة منظمة وحسبه أن يكون من عطائه ما تخرج عنها من مئات المجتهدين أمثال الشيخ الأنصاري والإمام الشيرازي الكبير وغيرهم ممن وصلوا بعمق تجاربهم وصلابة إيمانهم إلى أرفع مراكز القيادة في الأمة الإسلامية .

أما الآخرون فكانوا يرون في هذا النوع من الدراسة شيئاً من انعدام المسؤولية وكثرة الإدعاء وتطويل المسافات على الطلاب وربما قصر الكثير منهم شوطه على الاستمرار في مواصلة الدراسة للتعقيد السائد في بعض كتبها بالإضافة إلى ما يرون من ضرورة تطعيم معارفها بما جد من ثقافات ومعارف قد تكون لبعضها أكبر العلائق برسالة رجل الدين في هذا العصر . وجاء دور الرواد الأوائل لفكرة هذه المؤسسة بفكرة تمخضت عن دراستهم لواقع هذا الصراع وفحواها هو : الأخذ بأواسط الحلول وذلك بالاحتفاظ بمزايا بل أهم المزايا لتلكم الأفكار المتعاكسة والتخلي عن بعض جوانبها الأخرى .

فالدراسة في هذا البلد يجتاز فيها الطلاب عادة مرحلتين طويلتي الأمد ـ أولهما مرحلة الإعداد التهيؤ وهي مرحلة (دراسة السطوح) وكانت تأخذ من الطالب المجد إذ ذاك أكثر من عشر سنوات تدرّس فيها مقدمات النحو والمنطق والبلاغة والفقه والأصول والفلسفة أحياناً .

وثانيهما مرحلة التخصص بالفقه والأصول وهي : التي تأخذ فيها الدراسة طابع المحاضرة بأدق صورها ويتولاها عادة أكابر العلماء المجتهدين .

وقد لاحظوا أن المرحلة التي تحتاج إلى التعليم المنظم هي المرحلة الأولى فحسب لاحتياج الطالب فيها إلى تضخيم الشعور بالمسؤولية وتوفير الوقت له بتقصير المسافة الدراسة عليه بالأخذ بقسم من المناهج الحديثة في تيسير الكتاب

وتبسيط مفاهيمه وتطويرها ثم إضافة علوم أخرى إلى العلوم السائدة في هذه المرحلة اقتضتها طبيعة ما جد من تطورات في هذه العصور وبالأخص ما يتصل بالجوانب العقائدية ليكون الطالب الذي يجتاز مرحلته الأولى بمستوى رسالته الخالدة التي يراد له تأديتها كاملة سواء انتقل إلى المرحلة الثانية أو وقف عند حدود المرحلة الأولى .

أما المرحلة الأخرى ـ أعني مرحلة التخصص ـ فقد بلغت النجف على يد مراجعها العظام بفضل إيمانهم بفتح أبواب الاجتهاد المطلق أقصى ما يمكن أن تبلغه دراسة واعية معمقة . ومن واجب النجف في رأيهم أن تحافظ على هذا المستوى أسلوباً وفكراً ومضامين إذا أرادت لنفسها الاستمرار بدور الاضطلاع بمثل المسؤولية القيادية لهذه الأمة ـ على أساس من هذه الدعامة الموضوعية لطبيعة الصراع قامت فكرة هؤلاء في تأسيس (مدارس منتدى النشر) بمراحلها المختلفة لتأخذ على عاتقها دور الإعداد والتهيؤ لحضور المرحلة الثانية من قبل طلابها وهم مزودون بعلوم ومعارف تلائم ما يحتاج إليه رجل دين في هذا الصعيد .

ثم بدأوا فخططوا لهذه الفكرة ورسموا لها مراحل نموها وفضلوا ـ وهم في وسط ذلك الصراع العاطفي ـ أن يبدأوها صغيرة شأن كل مولود سويّ ثم يمدونها بكل ما يملكون من تجارب وحكمة لتنمو نمواً طبيعياً يأخذ واقعه ومكانته من الحياة وأهم ما كان يهمهم أن يؤمن الجميع أن هذه الفكرة انتزعت من واقع هذا البلد المقدس وهي له لا للقائمين عليها ما دام هدف الجميع خدمة الأمة وعقيدتهما المقدسة . وكان من الطبيعي أن لا تلتقي عندها جميع الأفكار في بداية الأمر ولكن عامل الزمن وطبيعة القيادة المتمثلة في رئيسها الراحل[1] والأرقام التي قدمها الرادة الأوائل من الجد والإخلاص والتقوى والمثابرة انتزعت هذه من نفوس الجميع ورأسهم أعلام أمتنا وقادة فكرتها الإصلاحية وهكذا تجسد الحلم فكان (كلية للفقه) وسيتحول بعون الله وتسديده إلى جامعة إسلامية في القريب العاجل[2]» انتهى .

---

(١) يعني الشيخ محمد رضا المظفر (ره) .

(٢) من مقال للسيد محمد تقي الحكيم (المنتدى تأريخ وتطور ـ أضواء على الفكرة) نشر في مجلة (النجف) الصادرة عن كلية الفقه ـ العدد الثاني ـ السنة الثالثة ـ ذي الحجة ١٣٨٧هـ ـ آذار ١٩٦٨م ـ ص٨١ ، ص ٨٤ .

ولم يقتصر رجال هذه الجامعة في إضفاء طابع القدم والمحافظة عليه على أسلوب الدراسة وحسب، بل تسرب هذا الطابع ليطبع كل شؤون هذه الجامعة وكل مرافقها ومؤسساتها وهذا ما جعل مدرسة النجف شريحة غير منسجمة وغير متجانسة.

ومن المعالم الأساسية لهذه الجامعة الكبرى هو تعدد الجنسية ـ إذا صح التعبير ـ في تكوينها فتجد العلماء والطلاب من جنسيات مختلفة يجمعهم العلم والمثابرة والجد في تحصيله.

ويتألف النسيج الاجتماعي لهذه المدرسة من الإيراني والأفغاني والهندي والباكستاني والتركي إلى جانب الطلاب العرب من لبنان ودول الخليج.

وقد يبدو واضحاً قلة العنصر العراقي في هذه الجامعة بالنسبة إلى العنصر الأجنبي وهو ما يشكل خطراً كبيراً على واقع هذه الجامعة دون أن يشعر به أحد سوى الإمام الشهيد الصدر (قده) كما سيأتي بيانه.

تتأطر مدرسة النجف الأشرف بأطرز تقليدية قد تكون أحياناً حالات مرضية تستهدف كيان هذه المدرسة وصرحها العظيم، وفي مقدمة هذه الأطر التقليدية الحالة الأسرية التي شاعت في أزمنة وظروف خاصة هيأت لها أن تنمو وتستفحل فظهور عدة شخصيات علمية في أسرة ما توفر لهذه الأسرة المكانة الاجتماعية والدينية المرموقة فإذا ما وجد من رجال الأسرة من يحمل توجهات فاسدة فإنه يسعى لتكريس هذه الحالة للقفز على الآخرين ولتحقيق مآربه المنحرفة.

وثمة عدد كبير من أبناء العلماء ورجال المؤسسات الدينية من استغل هذه الحالات وأحدث شرخاً كبيراً في الحركة الإسلامية والتوجهات الدينية.

وغالباً ما يستعين العلماء والمراجع ببطانة (حاشية) تمثل المؤسسة التنفذية والجهاز الإداري الذي يتحرك المراجع من خلاله.

وقد يجتمع في هذا الجهاز التنفيذي ثلة من المرتزقة والمتملقين ويختفي من ورائهم أحياناً كثيرة أبناء الأسرة من أقارب وأرحام هذا المرجع أو ذاك.

ولا يخفى أن لهذا الجهاز تأثيراً كبيراً في تصورات المراجع وقراراتهم ومواقفهم لأنهم غالباً ما يظنون صدق هذا الجهاز ويعولون عليه بحسن نية وحملاً لأعمال

رجاله على الصحة ، كما أنهم لا يتوقعون من هؤلاء الرجال ما يدفعهم إلى الشك في هذا الجهاز ، كما يحاول رجال هذا الجهاز بالحيلولة دون تسرب المعلومات التي لا يرغبون بوصولها إلى المراجع والعلماء .

وقد غلب على مدرسة النجف طابع التقوقع والانكفاء على الذات ، وقد ساعد في بلورة هذا الطابع عوامل في مقدمتها :أن مدرسة النجف اقتصرت في إعداد رجالها أعداداً فقهياً وأصولياً وما يرتبط بهذين العلمين دون الاهتمام بميادين العلم وأبواب المعرفة الأخرى وهذا ولد ضعفاً في طريقة التعامل بين رجال هذه المدرسة وقواعدها الشعبية التي تعيش الحياة الجديدة وتستهويها العلوم والمعارف الحديثة[١] وتضيقت علائق الارتباط بينهما ثم أخذت الهوة تتسع شيئاً فشيئاً نتيجة لعوامل عديدة لا مجال لذكرها ذاتية منها وخارجية أخرى .

دور الشهيد في جامعة النجف:

تناولت وبشكل إجمالي معالم جامعة النجف للتعرف على إسهام الإمام الصدر في بناء هذه المدرسة ومحاولة تطويرها ومعالجة مشاكلها والقضاء على الأشكال التقليدية من أجل دفع المسيرة العلمية فيها ودعمها ، وإشاعة روح المسؤولية في رجالها . وقبل التعرف على ما للشهيد من أياد بيضاء في هذه المدرسة ، وإنجازاته العظيمة نلقي الأضواء ـ وبإيجاز ـ على العلاقة المتميزة بين الشهيد وطلابه وتلامذته من أبناء ورجال هذه المدرسة .

لقد كان لمعظم المراجع وأكابر الفقهاء علاقات طيبة مع تلامذتهم ، أما الشهيد الصدر فكانت علاقاته متميزة وهادفة تتعدى أجواء مجالس البحث ومواطن لقاء الأستاذ لتلميذه ، لتفيض على جوانب الحياة الأخرى الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ويشوبها الحب والود والشوق بعيداً عن العلاقات الموسمية[٢] والروتينية .

---

(١) استثمر الخطباء هذه الفرصة فكانوا أقدر من العلماء على مخاطبة القواعد الشعبية . والخطباء هم ممن لا يواصلون دراسة الفقه والأصول للتخصص كما هو شأن العلماء ويولون المعارف الحديثة والاجتماعية العناية والاهتمام .

(٢) أعني بالعلاقات الموسمية العلاقات التي لا تتعدى حلقات الدرس ومجالس البحث فإذا افترق الأستاذ عن تلميذه والتلميذ عن أستاذه فلم يَعُد بإمكان الآخر أن يفكر بالآخر ويعيش همومه .

فكان الشهيد يعيش مع تلامذته في حضورهم وغيبتهم، أفراحهم ومآسيهم في غناهم وحالة عوزهم ليعيش همومهم ومعاناتهم، فلا يغيب عنه أحد إلا وافتقده حتى على البعد يزور القريب في بيته[١] ويبعث للبعيد ما يعبر عن حنانه وعطفه بل لوعة الفراق بينه وبين تلميذه.

أما جامعة النجف ومدرستها والحركة العلمية فيها فقد كانت محل عناية السيد الشهيد واهتمامه يسعى بكل جهده لحمايتها ووقايتها من الأخطار الداخلية والخارجية لتبقى مركز الإشعاع الفكري والمرجع الروحي والقيادة السياسية.

إن طابع القدم واستصحاب الماضي ـ كما أسلفنا ـ يشكل عقبة كبيرة أمام حركة مدرسة النجف ولذلك كان الشهيد الصدر يفكر ملياً بهذا الواقع ويلتمس له العلاج الناجع.

فأسلوب الدراسة الكلاسيكي الذي يتمثل في الدراسة الحرة وإعطاء الطلاب الحرية في اختيار أساتذتهم وأوقات الدراسة والكتب التي يدرسون ـ له ما يبرره ويسوّغ الأخذ به.

أما الأسلوب المنظم للدراسة فهو ضرورة أيضاً في مجتمع جديد فتحت أمامه آفاق جديدة وهو يوفر للطلاب وقتاً أقصر ويفسح لهم المجال واسعاً أمام المعارف الجديدة وأبواب وميادين العلم الحديثة، ومناهج البحث الأكاديمية التي تفتقر إليها جامعة النجف ضمن أسلوب الدراسة الكلاسيكي.

والسيد الشهيد لا يرفض القديم لقدمه ولا يقبل الجديد لحداثته وجدته، فلكل منهما مزايا وحسنات، وان أحدهما ليكمل الآخر، ولذلك خص السيد الشهيد كلا الأسلوبين بالتأييد ومنحه العناية والاهتمام.

فالمدرسة التي أسسها السيد محسن الحكيم (قده) المعروفه بـ«الدورة» والتي نظمت فيها الدراسة ضمن المرحلة الأولى والتي تسمى بـ(السطوح) وهي ما قبل

---

(١) قليلٌ من أكابر العلماء من يتفقد تلامذته في دورهم ولعلّ الشهيد الصدر يعتبر نادرة لا مثيل لها في تأريخ هذه المدرسة.

الدراسات العليا ـ تحت رقابة وإشراف هيئة إدارية كانت من مقترحات السيد الشهيد وهو الذي أقنع السيد الحكيم بضرورة تنظيم الدراسة بهذا الشكل وكان له الدور الكبير في إدارتها وتوجيهها فمعظم أساتذتها هم من تلامذة السيد الشهيد، وأغلب مناهجها الفكرية والثقافية من كتبه كفلسفتنا واقتصادنا[١]. فتنظيم الدراسة ومناهجها[٢] وتوجيه الطلاب والإشراف على تهيئتهم موضع اهتمام بالغ وعناية فائقة لدى السيد الشهيد (قده) لضرورة هذا التنظيم والتجديد، ولكنه لا يعني التنكر لكل ما هو قديم ونبذه.

أما الأسلوب الكلاسيكي فقد حظي أيضاً بتأييد الإمام الشهيد الصدر لتوفر عدة مزايا تعود بالنفع على الحركة العلمية، فالحرية تفتح الآفاق الرحبة أمام الطلاب وتمنحهم القدرة على تفجير طاقاتهم، ولكن هذا الأسلوب مع توفر هذه المزايا فيه لا بد من تغييره وإزالة الشوائب القديمة والترسبات التي تعيق فاعلية هذا الأسلوب، بيد أن تغيير هذا الأسلوب ليس تغييراً جذرياً بل يكون بإدخال بعض الإصلاحات لترميمه.

لقد عمد السيد الشهيد وضع أطروحة تتناسب مع الدراسات الحديثة وذلك بالرغم من إبقاء الأسلوب الكلاسيكي في الدراسة وتتلخص هذه الأطروحة في قيمومة المرجع وإشرافه على فعاليات هذه المدرسة والحركة العلمية فيها وتنظيم الدراسة فيها دون إلغاء حق الحرية ويكون ذلك عن طريق استقراء للعلماء والأساتذة مع التعرف على قدراتهم وعددهم، وهذا يوفر للمرجع الإشراف على الدراسة ـ على الأقل ـ وتنظيمها فيلجأ الطلاب إلى الهيئة التي أوكلت إليها القيام بعملية الاستقراء هذه لتعين لهم الأستاذ المناسب وترشدهم إليه، كما أنها تعينهم على اختيار المناهج الدراسية التي تعود بمزيد من الفائدة عليهم.

---

(١) الجهاد السياسي للسيد الشهيد الصدر، صدر الدين القبانجي ص ٤٢.

(٢) من مظاهر إيمان السيد الشهيد الصدر بضرورة تنظيم الدراسات الإسلامية مساهمته الفعالة في كلية أصول الدين ببغداد التي أفتتحت سنة (١٩٦٤) وقد شارك في وضع بعض مناهجها الدراسة فكتب مادة (علوم القرآن) للسنة الأولى والثانية ومادة (الاقتصاد الإسلامي) وكتب (المعالم الجديدة في علم الأصول) لتدريسه في الكلية أيضاً.
كما شارك (ره) في المجلة التي كانت تصدر عن هذه الكلية وهي مجلة (رسالة الإسلام).

ولم تكن هذه الأطروحة نظرية لا نصيب لها من التطبيق ولا حظ لها من الواقع بل أخذت تتمظهر في عدة مصاديق أبرزها تكليف السيد الشهيد لبعض تلامذته بهذه المهمة وإيكال هذه العملية على عواتقهم، وشاءت الأقدار أن تعيش هذه التجربة زمناً لا بأس به[١].

ومن أجل تنظيم الدراسة في جامعة النجف شعر السيد الصدر بضرورة تجديد المناهج الدراسية والكتب التي مضت عليها قرون طويلة ولم تعد تتناسب مع الحركة الفقهية والأصولية والفكرية التي قطعت أشواطاً بعيدة في التطور والتجديد.

هذا بالإضافة إلى كونها كتباً لا تتوفر فيها خصائص المناهج الدراسية ولم يهدف واضعوها ومصنفوها جعلها موضع التدريس وإنما كانت تمثل نظرياتهم وآرائهم النهائية التي توصلوا إلى اكتشافها وصياغتها.

ويعتبر السيد الشهيد عملية وضع المناهج الدراسية الجديدة أضئل مظاهر التغيير في هذه الجامعة الكبرى ولذلك كان يتذمر ويظهر ذلك في مناسبات عديدة إذ يقول: «لا بد لنا أن نتحرر من النزعة الاستصحابية من نزعة التمسك بما كان حرفياً بالنسبة إلى كل أساليب العالم هذه النزعة التي تبلغ القمة عند بعضنا حتى ان كتاباً دراسياً مثلاً ـ أمثل بأبسط الأمثلة والكلام ما زال للسيد الصدر ـ إذا أريد تغييره إلى كتاب دراسي آخر أفضل منه حينئذ تقف هذه النزعة الاستصحابية في مقابل ذلك.

إذا أريد تغيير كتاب بكتاب آخر في مجال التدريس وهذا أضئل التغيير حينئذ يقال: لا ليس الأمر هكذا، لا بد من الوقوف، لا بد من الثبات والاستمرار على نفس الكتاب الذي يدرس فيه الشيخ الأنصاري (قده) أو المحقق القمي (قده).

هذه النزعة الاستصحابية التي تجعلنا دائماً نعيش مع أمة قد مضى وقتها، مع أمة قد ماتت وانتهت بظروفها وملابستها، لأننا نعيش بأساليب كانت منسجمة مع أمة لم يبق منها أحد[٢]».

---

(١) جريدة الجهاد: العدد ٣٣٣/ ٤، شعبان ١٤٠٦هـ، ١٤/ نيسان/ ١٩٨٦ ص ٦.

(٢) من محاضرة للسيد الشهيد في كتاب «المحنة» ص ٧٨.

وقد توج السيد الشهيد دعوته إلى التجديد والتغيير في المناهج الدراسية بكتابته منهج علم الأصول لطلاب ما قبل مرحلة الدراسات العليا (بحث الخارج) وهي المرحلة التي ينبغي تنظيم الدراسة فيها دون مرحلة الدراسات العليا التي ترك أمرها وشأنها للمجتهدين والفقهاء.

والمنهج الجديد في علم الأصول الذي وصفه السيد الشهيد في ثلاث مراحل ـ والذي مر الكلام عنه تفصيلاً ـ كان بمثابة ثورة جديدة وانقلاباً جذرياً في دراسة هذا العلم وما زال هذ المنهج ينال إعجاب العلماء والطلاب على السواء وقد ترجم إلى الفارسية في وقت قريب..

وكان في نية السيد الشهيد (قده) وضع منهج جديد في علم الفقه لمرحلة ما قبل الدراسات العليا ولكنه لم يحقق نيته هذه وحالت الظروف دون ذلك.

ولم تكن عناية الشهيد الصدر تقتصر على تطوير المناهج الدراسية الملائمة لروح العصر الجديد بل أولى الثقافة الإسلامية والإيديولوجية الفكرية ومدارس ومذاهب الفكر الحديث الاهتمام والعناية الفائقة فحبَّذ لطلاب هذه الجامعة العلمية مزيداً من الاطلاع على أبواب المعرفة المختلفة دون الاكتفاء بعلم الفقه والأصول وما يرتبط بهما وذلك شعوراً منه بضرورة تنمية المجالات لدى علماء وطلاب جامعة النجف لتوفِّر لهم القدرة والقابلية على مخاطبة القواعد الشعبية وتوجيهها بطريقة لا يأباها ذوقة ولا تعجز عنها مداركه.

يقول السيد الحائري: «ذات يوم قال أستاذنا الشهيد ـ قدس سره ـ لصفوة طلابه: إنَّ ما تعارفت عليه الحوزة من الاقتصار على الفقه والأصول غير صحيح ويجب عليكم أن تتثقفوا بمختلف الدراسات الإسامية، وأمرهم بمباحثة كتاب «فلسفتنا» فيما بينهم. فعقدوا بحثاً في بيتي.. وفي أول يوم شرعوا في المباحثة وجدنا طارقاً يطرق الباب ففتحت الباب، وإذا بأستاذنا الشهيد فدخل وحضر المجلس وقال: «إنني إنما حضرت الآن في هذا المجلس لأنني أعتقد أنه لا يوجد الآن مجلس أفضل عند الله من مجلسكم هذا الذي تتباحثون فيه في المعارف الإسلامية فأحببت أن أحضر هذا المجلس الذي هو أفضل المجالس عند الله»[1].

---

(١) جريدة الجهاد، العدد/ . ٢٣٣/ السنة السابقة ـ ٤ / شعبان/ ١٤٠٦هـ ص٦.

وكان السيد الشهيد يوصي تلامذته ممن يشرف على تدريس طلاب المراحل ما قبل الدراسات العليا وهي ما تسمى بمرحلة (السطوح) بإعدادهم فقهياً وفكرياً ورفع مستوياتهم الثقافية .

وكان السيد الشهيد يهدف من كل ذلك توثيق العلاقات وتوطيدها بين جامعة النجف الأشرف وبين قواعدها الشعبية لأنه كان يتقطع ألماً للهوَّة الكبيرة التي أخذت تتسع يوماً بعد آخر ، وكان يحذِّر العلماء من مخاطر هذه الفجوات وضرورة ردمها وهو يهتف بصريح عباراته ويلقيها في مسامعهم وهو يقول إن هذه الجامعة ما زالت تتعامل مع أجداد هذه الأمة ومع موتاهم ومن أجل ذلك كله ابتعدت هذه الأمة عن مركز التوجيه وأخذت تتخبط تخبيطاً عشوائياً هنا وهناك .

وكان من معالم مدرسة النجف ـ كما أسلفنا ـ تعدد الجنسية ، فهي تستقبل الوافدين عليها من كل مكان لتسبغ عليهم من فيض عطائها الوافر .

وهذا النسيج الاجتماعي المتعدد له ما يبرِّره ، فجامعة النجف مركز الإشعاع على مدى عشرات القرون ولذلك يشدُّ العلماء الرجال إليها للحضور لدى أكابر علمائها وأساطين فقهائها ، فكل مدارس العلم ومعاهده وجامعاته عيالٌ عليها .

وكانت مدرسة النجف وعلماؤها ـ بوصفهم قادة الأمة ـ شوكة في عيون الظالمين ، وأملاً في نفوس المستضعفين ، فقد سهر رجالها على مصالح المسلمين والذود عن حياض الشريعة الإسلامية على مدى قرون ، ولذلك كانت السلطات الحاكمة ـ على مدى هذه القرون ـ تحسب لها حسابها وتُخطِّط للحدِّ من فاعليتها وتعجيزها بطرق كيدية متنوعة . وقد استغلت السلطات الحاكمة هذه الظاهرة ـ وهي تعدد الجنسية ـ لتمزيق أوصال هذه المدرسة وشرخ عظمتها ، فوجدت في عملية التهجير غايتها وتحقيق مآربها ، وغالباً ما تكون عمليات التهجير إما بدعوى التدخل في الشؤون الداخلية ـ باعتبار أن معظمهم من الأجانب ـ أو بعدم منحهم الإقامة والترخيص لهم بذلك في الأراضي لأسباب تضعها السلطات .

وكانت أول تجربة لعمليات التهجير الواسعة إبان الحكم (الحالي) في أوائل

السبعينات ، وقد اتصفت هذه الحملة بالشراسة المنقطعة النظير فطارد أزلام السلطة العلماء وطلاب هذه المدرسة تحت كل حجر ومدر ، في الشوارع والمساجد ، والمدارس والبيوت .

وكانت هذه العملية أقوى ضربة تتلقاها مدرسة النجف الأشرف عُرّضت الحركة العلمية فيها للتدهور لفترة زمنية ليست بالقصيرة .

وكان للسيد الشهيد الصدر موقف اتّسم بالشجاعة والجرأة والحكمة ـ مع ضيق الوقت والحرمان من الأخذ بزمام المبادرة ـ فشمَّر عن ساعديه للدفاع عن تراث هذه الجامعة وصرحها الخالد ، وكان السيد الخوئي ـ زعيم الحوزة العلمية يومذاك ـ معتلاً يشكو المرض وقد تدهورت صحته وكان من المفترض أن يغادر العراق في تلك الفترة إلى لندن رجاء شفائه ، ووجد السيد الشهيد الصدر في مغادرة السيد الخوئي خطراً على مستقبل الجامعة وحركة العلم فيها فقد يتذرع المتخاذلون والكسالى بذلك ويمنحهم الفرصة للتراجع أمام السلطات ، ولذلك أسرع السيد الشهيد لزيارة السيد الخوئي في المستشفى وشرح له واقع المدرسة ومخاطر مغادرته من العراق في هذه الظروف فاقتنع السيد الخوئي بفكرة السيد الشهيد وترامى هذا الخبر إلى مسامع مئات العلماء ففسخ العديد منهم عزمه على مغادرة النجف[١] ، وكانت هذه الخطوة حكيمة وموفقة للحيلولة دون تحقيق مآرب السلطات الحاكمة كاملة وعدم تسهيل مهمتها وتشجيعها في المضي على تنفيذ خطتها لعرقلة مسيرة الفكر في هذه الجامعة الخالدة .

وما كادت هذه الهجمة الشرسة لتغيب عن خاطر الشهيد الصدر فكان يفكر ملياً وباستمرار لإضاعة الفرصة أمام السلطات الحاكمة في استغلال هذه الظاهرة ، ولذلك عمد رضوان الله عليه إلى تشجيع الشباب من أبناء العراق للانخراط في هذه الجامعة وزيادة نسبة العراقيين بحيث تفوت الفرصة أمام النظام وتبدو عمليات التهجير ومضايقة العلماء غير العراقيين غير مجدية أو أقل ضرراً على كيان جامعة النجف الأشرف ، فلم يعد بإمكان السلطات مطاردة العلماء العراقيين بحجة التدخل في الشؤون الداخلية أو عدم السماح بالإقامة للإجانب ،

(١) الجهاد السياسي عند الشهيد الصدر ، ص ٧٤ .

وهذا بغض النظر عن مدى تأثير العلماء العراقيين في قواعدهم الشعبية في مختلف مناطق العراق بشكل لا يتوفر لغيرهم في التأثير على هذه القواعد . وقد وفّق السيد الشهيد رحمه الله في ذلك على قدر كبير لولا مبادرة السلطات لاعتقاله وفرض الإقامة الجبرية عليه ثم إعدامه رحمه الله .

ولم يهدف السيد الشهيد رحمه الله في خطوته الى تعميق الحسّ القومي بما عُرف عنه رحمه الله حبّه ورعايته لرجال هذه الجامعة على اختلاف جنسياتهم دون أن يفرق بينهم في العطاء والعشرة وحسن السيرة .

ومن الظواهر التي حظيت باهتمام الإمام الشهيد الحالة الأسرية لهذه المراجع وكان يلتمس لها الحلول الناجعة وتطهيرها من النماذج العفنة والشخصيات المشبوهة ، لتستعيد مدرسة النجف الأشرف رفعتها وفاعليته في صفوف الأمة الإسلامية .

ولم يكن الشهيد رحمه الله يستهدف استبدال بطانة المراجع وإعادة هذا الوجود لأن البطانة هذه تمثل الجهاز التنفيذي للمرجع ، ولكنه استهدف تنقية هذا الجهاز وتنظيفه لتدارك مخاطر الانزلاق ومكامن الانحراف ، وذلك باختيار العناصر الخيِّرة والنظيفة للقيام بهذه المهمة .

أما الحالة الأسرية فإنه كان يرفضها مطلقاً ، ولم يُعرف عنه تكريس هذه الحالة مع أنه من أسرة علمية لا تجاريها أسرة في العراق بعراقتها وأصالتها وتأريخها وشرف رجالها .

ومن أروع مواقفه ومصاديق رفضه لهذه الحالة أنه رحمه الله كان يصلي في الناس بالحسينية الشوشترية فاتفق ذات يوم أنه غاب عن الصلاة لعذر طرأ له فطلب جمعٌ من المؤمنين من السيد محمد الصدر ابن الموحوم السيد محمد صادق الصدر أن يؤمَّ الناس في ذاك اليوم بدلاً عن الأستاذ فاستجاب السيد محمد الصدر لطلب المؤمنين (وهو من حفدة عمّ الشهيد الصدر ومن تلامذته وكان معروفاً بالزهد والورع والتقوى) فصلى الناس خلفه جماعة ، ثم اطّلع الشهيد الصدر على ذلك فبان عليه الأذى ومنع السيد محمد الصدر عن أن يتكرر منه هذا العمل ، وكان السبب في ذلك ـ رغم علمه بأن حفيد عمّه أهل

ومحل لإمامة الجماعة ـ أنه تعارف لدى قسم من أئمة الجماعة الاستعانة في غيابهم بنائب عنهم يُختار من أقربائهم أو أصحابهم لا لنكتة موضوعية بل لأنه من أقربائه أو أصحابه، فقد يُحمل ما وقع من صلاة حفيد العمّ في نظر الناس غير المطلعين على حقيقة الأمر على هذا المحمل[1].

(١) مقدمة مباحث الأصول ص ٥١.

المرجعية في حياة الشهيد الصدر

المرجعية هو التعبير الديني للقيادة السياسية في أوساط الشيعة الإمامية فالمرجع هو القائد السياسي وخليفة الإمام المنصور ونائبه وكان ذلك بعد غيبة الإمام المهدي عليه السلام بناءً على التوقيع الشريف الصادر عنه «وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا . . .» .

وكان للمرجعية الدور الكبير في الدفاع عن الإسلام والذود عن حياضه مما حدى بالاستكبار العالمي وأعداء الإسلام الكيد لجهاز المرجعية والتقليل من شأنه وتحديد فاعليته ، ووقفة عابرة وفاحصة في آن واحد تظهر عظمة هذا المنصب الجليل والدور الكبير والمسؤولية الضخمة الملقاة على عاتق هذا الجهاز ، وتجلت بطولة المراجع ـ جزاهم الله خيراً ـ في أدوار مختلفة وأزمان متعاقبة .

ـ فقضية التنباك التي وقعت في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي ما زال صداها عالياً سوّياً حين أقدم الإمام السيد المجدد الشيرازي على إصدار فتواه الشهيرة بتحريم استعمال التبغ والتي كان نصها : «بسم الله الرحمن الرحيم ، استعمال التنباك والتتن حرام بأي نحو كان ، ومن استعمله كمن حارب الإمام عجل الله فرجه . التوقيع محمد حسن حسيني الشيرازي»[1] . وكان السبب في إصدار هذه الفتوى أن حكومة الشاه في إيراه ناصر الدين منحت إحدى الحكومات الإحتكارية الإنجليزية امتيازاً بزراعة التبغ الإيراني وبيعه وتصديره لمدة خمسين عاماً فتصدى علماء إيران لهذه المحاولات فلم تغن فاستغاثوا بالسيد

---

(١) تأريخ الحركة الإسلامية في العراق ، الرهيمي : ص ١٢٨ .

المجدد الشيرازي فكتب إليه أن يذعن لمطالب الشعب فأبى فأصدر هذه الفتوى المدوية .

ولم تكن قضية التبغ المظهر الوحيد لعظمة السيد الشيرازي فإنه كان قد رفض استقبال شاه إيران ناصر الدين عند مدخل النجف أو زيارته في محل إقامته واكتفى السيد بملاقاته في الحضرة العلوية وكانت هذه الخطوة بمثابة الحطّ من هيبة الشاه وإيحاء الشيرازي له بدعم المؤسسة الدينية المعارضة التي بدأت تنمو في إيران منذ عام ١٨٢٦م[١] .

ومن مواقفه المشرفة وتمسكه بوحدة المسلمين الشيعة والسنة مما فوّت الفرصة مراراً على الإنجليز في العراق[٢] .

ـ والحركة الدستورية كانت من وحي المرجعية في النجف الأشرف التي تمثلت في الشيخ محمد كاظم الخراساني شيخ الأصوليين ويدعمه الشيخ عبدالله المازندراني واضطر الشاه إلى الموافقة على الدستور سنة ١٩٠٦م . وكانت النجف مركز القيادة لحركة ثورية في إقليم إيران والتي اسقطت الشاه محمد علي ونصّبت أحمد شاه بدلاً عنه ، وهذا يدلّ على الفاعلية التي لا مثيل لها في تأريخ العالم السياسي التي تتمتع بها المرجعية وموقعها القيادي .

ـ أما المقاومة الشعبية ضد إحتلال الإنجليز للعراق فكانت هي أيضاً وليدة التبني المرجعي ، فما إن هبطت القوات البريطانية أرض العراق حتى أعلنت الثورة في مختلف المناطق العراقية وتوجه علماء النجف الأشرف إلى ساحات المعركة أمثال المرجع الشيخ شيخ الشريعة والسيد مصطفى الكاشاني وبعث السيد كاظم اليزدي المرجع الأعلى وقتئذ نجله السيد محمد اليزدي ، وفي سامراء أفتى الشيخ محمد تقي الشيرازي بوجود القتال وأرسل نجله الشيخ محمد رضا للانضمام إلى المقاتلين .

وقد استطاعت المرجعية تعبئة الأمة رغم قلة السلاح وضعف الإمكانات والقدرات العسكرية فبلغ عدد المقاتلين ثمانية عشر ألف[١] مضافاً إلى الاحتياطي

---

(١) تأريخ الحركة الإسلامية في العراق ص ١٢٧ .

(٢) تأريخ الحركة الإسلامية في العراق ص ١٢٨ ، ثورة الخامس عشر من شعبان ص ٥٩ .

الكبير من المجاهدين .

وبذل المجاهدون ما بوسعهم للدفاع عن أرض العراق والحيلولة دون احتلاله من قبل الجيوش البريطانية ولكن قدراتهم الضعيفة جعلت المعركة غير متكافئة واستطاعت الجيوش الغازية دخول العراق ، وبدأت المعركة ترتدي زيّاً سياسياً بعيداً عن السلاح وذلك منذ عام ١٩١٧م ـ ١٩٢٠م التي التهبت فيها الثورة العراقية الكبرى بقيادة الشيخ محمد تقي الشيرازي قائد الثورة .

وقد وقعت عدة عدة مجابهات متفرقة هنا وهناك في مختلف المدن العراقية غير أنها كانت تواجه بالعنف والقتل والتشريد والنفي .

و كان في مقدمة الحوادث التأريخية المواجهة السياسية لعملية الاستفتاء في أواخر عام ١٩١٨ وأوائل عام ١٩١٩م والتي انتهت بثورة العشرين ، وكانت الحكومة البريطانية في العراق استعدت في عام ١٩١٨م لعملية استفتاء في ضمن ثلاثة أسئلة وهي[٢] .

١ ـ هل ترغبون بحكومة عربية مستقلة تحت الوصاية الإنجليزية يمتد نفوذها من أعالي شمال الموصل إلى الخليج الفارسي؟

٢ ـ هل ترغبون في أن يرأس هذه الحكومة أمير عربي؟

٣ ـ من يكون ذلك الأمير الذي تختارونه؟

وقد ظهر الشيخ محمد تقي الشيرازي في عملية الاستفتاء هذه بعد أن انتقل من سامراء مقر إقامته إلى كربلاء وبعد تخلي السيد كاظم اليزدي عن القيادة وسانده في ذلك عدة علماء من أمثال الشيخ «شيخ الشريعة» والشيخ عبد الكريم الجزائري ، وأصدر الشيخ الشيرازي فتواه الشهيرة وحكمه بشأن الانتخابات والاستفتاء والتي كان نصها «ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطة على المسلمين»[٣] .

---

(١) انظر تأريخ الحركة الإسلامية في العراق ص ١٧٢ .

(٢) تاريخ الحركة الإسلامية : ص ٢٠١ .

(٣) ن ،م : ص٢٠٤ .

وقد أدت هذه الفتوى إلى حملة استقالات أخذت في التزايد بمرور الوقت، وبروز الدور القيادي أكثر فأكثر للشيخ محمد تقي الشيرازي وانقياد الشعب العراقي لقيادته.

وكان الشيرازي يومئذ أعظم شخصية دينية سياسية عرفها العراق، وتمثلت سياسته في عدة إنجازات وخطوات كان في مقدمتها:

١ ـ وحدة الموقف العلمائي بعد غياب السيد اليزدي وتوحيد المرجعية في شخصه.

٢ ـ طرح مسألة استقلال العراق على مستويات مختلفة العربية منها والدولية وأرسل الرسائل بذلك الشأن.

٣ ـ اتبع الشيخ الشيرازي أسلوب المقاومة الحادّة مع الإنجليز.

٤ ـ قضى الشيخ الشيرازي على الصراعات والنزاعات التي كانت تعيق حركة المقاومة الإسلامية وجمع صفوف المسلمين ووحَّد كلمتهم وأيد الجهود الوحدوية في بغداد.

٥ ـ إعلان الثورة بعد استنفاد جميع الوسائل السلمية والسياسية.

ـ وحدثت إثر هذا الإعلان ثورة العشرين في الثلاثين من حزيران عام ١٩٢٠م وخرج الشعب العراقي في ما يزيد على (١٣٠) ألف مقاتل ودعمت بـ(١٩٠) ألف مقاتل احتياطي[١].

وفوجئ الشعب العراقي برحيل الشيخ الشيرازي إلى الرفيق الأعلى فخلفه الشيخ فتح الله الأصفهاني الشيهر بشيخ الشريعة الذي اهتدى بسيرة سلفه الشيخ الشيرازي واستمر في إدامة الثورة وقيادتها بصلابة وجرأة.

ـ وفي عام (١٩٢٢م) كان للمرجعية المتمثلة بالسيد أبي الحسن الأصفهاني موقف آخر اتسم بالصرامة والوعي الإسلامي وهو ما يسمى بمشكلة انتخابات المجلس التأسيسي والتي أفرزت حوادث أخرى في مقدمتها نفي السيد الأصفهاني

---

(١) تاريخ الحركة الإسلامية ص ٢٢٢.

في عام ١٩٢٣م بعد إبعاد الشيخ الخالصي . وكان كل من السيد الأصفهاني والشيخ الخالصي حكم بمقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي . وكان نص فتوى السيد الأصفهاني : «إلى أخواننا المسلمين . . . إن هذه الانتخابات تميت الأمة الإسلامية فمن انتخب بعد علم بحرمة الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته ولا يجوز ردّ السلام عليه ولا يدخل حمّام المسلمين»[١] .

إن هذه المواقف البطولية الرابعة كانت من وحي التفكير المرجعي وتخطيط المرجعية إلا أن هذه الحركة سرعان ما انتكست في التعهد الذي وقع عليه السيد أبو الحسن الأصفهاني والميرزا النائيني وغيرهم بعدم التدخل في الشؤون السياسية لقاء عودتهم إلى العراق ، فعاد كل من السيد الأصفهاني والنائيني باستثناء الشيخ الخالصي الذي رفض التعهد بذلك .

والحقيقة إن هذا التعهد لم يكن شرعياً ليلتزم به السيد الأصفهاني وصحبه بيد أنهم التزموا به خشية النفي مرة أخرى بحجة نقضه ، وقد نقضه السيد الأصفهاني في عدة مناسبات ، ولكن هذه الحالة تسربت في أوساط العلماء وطبعت سلوكهم شيئاً فشيئاً وانصرف العلماء عن البحث في الشؤون السياسية ، غير أن التأريخ العلمائي شهد خروجاً على هذه القاعدة على يد بعض أكابر العلماء من أمثال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيد محسن الحكيم ، وانهار هذا المبدأ على يد الإمام الخميني في ثورته الكبرى ، فيكون عمر هذه القاعدة ما يزيد على الخمسين عاماً شكلت منعطفاً خطراً في تأريخ المرجعية هيأ الله من أنقذها منه بالجهود المتظافرة التي بذلها المراجع الواعون طيلة هذه الفترة[٢] .

الشهيد الصدر يؤرِّخ للعمل المرجعي:

كان الشهيد يتأمل في تأريخ المرجعية وأدوارها التأريخية وخصائص كل دور عن الأدوار الأخرى ومنجزات ومكاسب كلٍّ من هذه الأدوار وعطاء المرجعية

---

(١) ن ، م ص ٢٦٠ .

(٢) ما ذكرناه يمثل وقفات وقبسات المرجعية كتمهيد للبحث ولسنا بصدد أن نعرض تأريخ المرجعية السياسي .

خلالها ، وكان كّل ذلك من أجل معرفة طبيعة هذا الجهاز وإمكان تطويره وإصلاحه فيقول الشهيد الصدر مؤرخاً للعمل المرجعي : «هذه الحوزة العلمية لها تأريخها الطويل الذي مرّ بعدة مراحل :

١ ـ **مرحلة الاتصال الفردي** : وقد كان فيها هذا الكيان يعبّر عن اتصالات فردية بين علماء مجتهدين وقواعد شعبية في بلاد أولئك العلماء المجتهدين ، يستفتى العالم فيفتي . وكان الارتباط يقوم بشكل فردي ومباشر بين الناس وبين العالم المفتي . وهذه المرحلة هي المرحلة الأولى التي عاشها أصحاب الأئمة ـ عليهم السلام ـ واستمرت هذه المرحلة إلى أيام العلامّة الحلي ، إذ كان الوضع لعام لهذا الكيان إلى أيام العلامة الحلّي رضوان الله عليه هو وضع علماء مجتهدين يوجد كل منهم في مكان ويرتبط به شعبه يستفتونه فيفتي ثم بعد هذا دخل مرحلة أخرى .

٢ ـ **مرحلة الجهاز المرجعي** : وقد دخلها ـ بحسب ما أفهم من سير الأحداث ـ على يد الشهيد الأول رضوان الله عليه هذا الذي قدّم دمه في سبيل نقل هذا الكيان من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية فعلى عهده رضوان الله عليه أصبح هذا الكيان عبارة عن أجهزة من الوكلاء وعلماء الأطراف يرتبطون بالمرجع ويتصلون بالقواعد الشعبية ، يعني أن هذا الوضع الموجود للمرجعية فعلاً ـ أنا لا أعرف تطبيقاً أسبق من الناحية التأريخية له من تطبيق الشهيد الأول رضوان الله عليه قام بهذا التطبيق في لبنان وسوريا وعيَّن الوكلاء وفرض جباية الزكاة والخمس على القواعد الشعبية . وبذلك أنشأ كياناً دينياً قوياً للشيعة مترابطاً لأول مرة في تأريخ العلماء وكان إنشاؤه لهذا الكيان هو من أهم الأسباب التي أدت إلى مقتله رضوان الله عليه في قضية لا مجال الآن للتوسع فيها .

٣ ـ **مرحلة التمركز والاستقطاب** : واستمرت هذه المرحلة (مرحلة المرجعية مع الجهاز) إلى أن دخلت المرجعية (المرحلة الثالثة) على يد الشيخ كاشف الغطاء ومعاصريه من العلماء وهي مرحلة التمركز والاستقطاب لأن المرجعية في المرحلة الثانية بالرغم من أنها كانت ذات أجهزة لكنها لم تكن متمركزة بنحو مستقطب للعالم الشيعي كلّه . وفي عهد الشيخ كاشف الغطاء وعن طريق علاقات

وارتباطات واسعة بين العراق وإيران أمكن وضع بذرة للاستقطاب والتمركز ونشأت المرجعية المركزية التي تستقطب أنظار العالم الإسلامي وكان لهذا الإنشاء ولهذا التطوير تضحياته الكبيرة وجهوده التي لا مجال الآن أيضاً للتوسع في حديث عنها .

وفي هذه المرحلة الثالثة مرّت على هذه المرجعية فترة طويلة من الزمن في عهد الحكم العثماني قبل عصر الاستعمار .

٤ ـ **مرحلة القيادة** : ثم حينما دخل المسلمون عصر الاستعمار وُجِد نوع من التحول والتطور في هذا الكيان لأن هذا الكيان الذي كان قد أصبح مركزياً يستقطب أنظار العالم الشيعي بدأ يتسلم زمام القيادة ، بدأ يدخل الصراع مع الكافر المستعمر ويتبنى مصالح المسلمين ويدافع عنهم ، وهكذا دخل هذا الكيان مرحلة أخرى هي مرحلة (القيادة) زيادة على استقطابه وتمركزه وذلك من حوالي خمسين أو ستين عاماً منذ أحداث دخول النفوذ الاستعماري إلى هذه المنطقة في العراق وإيران ولبنان وغيرهما من أنحاء العالم الشيعي . غاية الأمر أن هذه القيادات كانت تتذبذب بين مدّ وجزر ، بين ظهور وخفاء حسب الظروف والملابسات التي تُمنى بها خلال عملها . .»[1] .

إنّ ما يقدّمه السيد الصدر من رسم الخطوط الرئيسية للعمل المرجعي ليس عملاً ترفيهياً وإنما يمثل دراسة لوضع المرجعية في أدوارها المختلفة لاختيار المناسب للدور المعاصر والعهد الجديد ، وهذا ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الشهيد الصدر في ظل المرجعية:

لقد أراد الصدر للمرجعية أن تبسط نفوذها على قلوب القواعد الشعبية بمختلف شرائحها دون أن تستثني أحداً ليتم للمرجعية الجوّ المناسب والظرف الملائم لسريان قراراتها دون أن تتخلف يوماً ما ، وقد استظل السيد الصدر ـ مع جلالة قدره وقدراته وقابلياته العظيمة ـ بمرجعية غيره من الفقهاء قبل وبعد مرجعيته ولم يُرد وراء ذلك غير وجه الله تعالى ومرضاته ، وهذا ما لا تجد

(١) من محاضرة للسيد الشهيد ، انظر كتاب «المحنة» ص ٤١ ـ ص٤٥ .

مصداقاً له غير شهيدنا العظيم، ولذلك عمل كل ما بوسعه لدعم المرجعية واحترامها وعدم التطاول عليها حتى لو اختلف معها بالرأي وأسلوب العلم بل لو تجاوز كل ذلك، وهذا ما وعته جماهيره ومحبوه وأنصاره بل أعداؤه وخصومه أيضاً.

ففي مرجعية السيد محسن الحكيم وجد السيد الصدر في شخص الحكيم ما يؤهله لهذا المنصب فراح يدعم مرجعيته وهو يومذاك من أبرز أساتذة جامعة النجف فقيه مجتهد يُشار إليه بالبنان ولم يكن رضوان الله عليه ممن تتلمذ على السيد الحكيم أو من بطانته الخاصة ليدعمه عن مصلحة شخصية أو حالة نفسية من قبل تلميذ تجاه أستاذه، وإنما بالغ في دعم مرجعية السيد الحكيم لأنها كانت الأليق بالتصدي والأجدر على الأخذ بزمام الأمور.

وكان رضوان الله عليه يتألم من تشتت الكلمة وتعدد الكيانات المرجعية فإنه لما سافر إلى لبنان لاحظ أن مرجعية السيد الحكيم في سوريا تتعرض للتصدع بسبب وجود بعض الشخصيات وحاول السيد الصدر أن يحول دون إفشاء هذه الحالة وهذا ما كتبه لبعض أصدقائه « .. وسمعنا هناك .. ما يفتت الأكباد من وضع الشيعة في الشام بسبب تصرفات .. نكسة الكيان الشيعي هناك وتفتته وتشتت كلمة الطائفة وبالتالي نكسة كيان سيدنا دام ظله هناك بسبب ألوان من التصرف التي أجد من الوظيفة الشرعية لزوم التحقيق بشأنها وإيصال خبرها إلى السيد الحكيم لئلا يضيع الكيان الشيعي بعد جهود مئات السنين في الحفاظ عليه ورصّ صفوفه وقد طلبت من : .. أن يكتب للسيد يتحدث بذلك وظهر لي أنه ينوي الكتابة»[1].

ولمّا حصلت المواجهة بين السيد الحكيم والحكم البعثي في العراق عام ١٩٦٩م دعيت الجماهير في الصحن الحيدري الشريف باسم السيد الحكيم لإعلان التأييد لسماحته وفضح النظام العراقي واحتشدت القواعد الشعبية وكانت فكرة هذا الاجتماع من وحي تخطيط السيد الصدر إذ اقتنع السيد الحكيم بذلك بل إن كلمة السيد الحكيم والتي قرأها نيابة عنه نجله الشهيد السيد مهدي كانت بقلم الشهيد الصدر.

(١) الجهاد السياسي للسيد الشهيد الصدر ص ٣٧.

صورتين لمدخل وباحة جامعة النجف الدينية (كلانتر) إحدى مدارس الإصلاح

وقد خاطر السيد بحياته حينما سافر إلى لبنان لأجل حملة إعلامية للدفاع عن النجف والمرجعية المتمثلة بالسيد الحكيم ، وقام رضوان الله عليه بعملية ضخمة وجريئة بنفس الوقت وفي فترة زمنية قصيرة .

ومن الوثائق التي تخص هذه الحملة رسالته التي بعث بها من لبنان إلى بعض أصدقائه شارحاً طبيعة عمله وما تم إنجازه إذ يقول في بعض فقراتها .

«أكتب إليكم هذه السطور بعد أسبوعين كاملين من دخول لبنان وأودّ أن أعطيك صورة عن الموقف في حدود رؤيتي له وأشعر بأن وجود صورة لك عن الموقف شيء مفيد على خط العمل .

لا أدري كيف أصنف الحديث : أتصور إني أبدأ بما تم من عمل ثم أتحدث لك عن الموقف بشكل عام ثم عن المشاكل والمكاسب .

أمّا ما تم من عمل فهو كما يلي :

أولاً : خطاب استنكار وقّع عليه حوالي أربعين عالماً .

ثانياً : ملصقة جدارية ألصقت في كثير من المواضع في بيروت تطالب بإنقاذ النجف .

ثالثاً : برقيات طيّرها أبو صدري ـ السيد موسى الصدر ـ إلى جميع رؤساء وملوك الدول العربية والإسلامية باسم المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى يشرح فيها لهم المأساة ويستنجد بهم وقد جاءه الجواب حتى الآن من جمال عبد الناصر وفيصل والأرياني الرئيس اليماني . . وقد أرسل أبو صدري برقية إلى الشيخ محمد الشريعة وتلقى منه رسالة وبرقية يقول في الرسالة إن الشعب الباكستاني رئيساً وعلماء شيعة وسنة كلهم هزتهم المأساة التي اعتبرها الجميع ضربة للإسلام .

كما ينقل أن المودودي وجملة من السياسيين السنّة قاموا باستنكار الموضوع وأعلنوا تأييدهم المطلق للنجف»[1] .

---

(١) الجهاد السياسي للشهيد الصدر ص ٣٩ .

وكان سفر السيد الشهيد إلى لبنان والحملة الإعلامية التي قادها ضد الحكم في العراق بمثابة إعلان الحرب ضدهم وكان متوقعاً اعتقال السيد الصدر أو مطاردته فيما لو عاد إلى العراق وهذا ما كان يخشاه السيد الحكيم نفسه ولكن السيد الصدر أصر على العودة وكان يتوقع ذلك ويستعد لمواجهته فسلّم كلّ ما لديه في العودة لرفيقه خشية اعتقاله، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث(١) . ومن المؤكد أن الحكم وضع هذه السفرة في القائمة التي أعدها لمتابعة ورصد تحرك السيد الصدر والتخطيط لعملية القضاء عليه والتخلص منه ولكنهم تركوا ذلك لعامل الزمن ريثما يسمح بمثل هذه العملية .

وكان الشهيد الصدر جريئاً في الدفاع عن المرجعية إلى حدّ التضحية لأنها مصلحة الإسلامي ومستقبل الأمة الإسلامية التي تسمو على كل مصلحة شخصية وهذا ما حصل فعلاً في مراحل حياته كلها منه مع السيد الحكيم ومنه مع غيره ولعله مع مرجعية السيد الحكيم أوضح من حيث توفر المصاديق لدينا فإنه عندما اتهمت السلطات العراقية نجل السيد الحكيم الشهيد السيد مهدي بالتجسس وداهمت سلطات الأمن دار السيد الحكيم لاعتقال نجله كانت العملية مقصودة ومنظمة لأجل هدر كرامة المرجعية والتطاول عليها ولذلك سارع السيد الشهيد إلى زيارة السيد الحكيم في داره دون أن يعبأ بالحصار الأمني والنفسي ـ جدار الخوف ـ وحاول معالجة هذا الشرخ الكبير فكان يرى إصدار بيانات لاستنكار هذا العمل وتوقيع العلماء عليه حتى لو أدى إلى القتل(٢) .

وكان يرى رضوان الله عليه ضرورة الطاعة والانقياد للمرجعية حتى لو كان يختلف معها في وجهات النظر وهذا ما حصل فعلاً في عملية انسحابه من حزب الدعوة الإسلامية بناء على طلب السيد الحكيم .

ومن أجل ذلك كله كان السيد الصدر رضوان الله عليه لا يتجاوز المرجعية في قراراته، فإنه لو اقتنع بعمل أو أسلوب ما وفائدته ونجاحه فإنه لا يبت فيه

---

(١) الجهاد السياسي الشهيد الصدر ص ٤١ .

(٢) جريدة الجهاد العدد/ ١٨١/ بتاريخ ١٧/ رجب/ ١٤٠٥هـ ص٨ .

دون معرفة رأي المرجعية أو قبول مرجع واحد على الأقل وهذا ما كان منه ليس فقط في مرحلة ما قبل مرجعيته بل في مرحلة تصديه للمرجعية أيضاً .

وقد نقل السيد كاظم الحائري عنه في فترة التسفير واعتقال العلماء إذ يقول : «حدثني الأستاذ (ره) ذات يوم فقال إنني أتصور أن الأمة مبتلاة اليوم بالمرض الذي كانت مبتلاة به في زمن الحسين عليه السلام وهو مرض فقدان الإرادة .

وعلينا أن نعالج هذا المرض كي تدبّ حياة الإرادة في عروق هذه الأمة الميتة وذلك بما عالج به الإمام الحسين عليه السلام مرض فقدان الإرادة في نفوس الأمة وقتئذ وهو التضحية الكبيرة التي هزّ بها المشاعر وأعاد بها الحياة إلى الأمة إلى أن انتهى الأمر بهذا السبب إلى سقوط دولة بني أمية فعلينا أن نضحي بنفوسنا في سبيل الله ونبذل دماءنا بكل سخاء في سبيل نصرة الدين الحنيف ، والخطة التي أرى ـ والكلام للسيد الصدر ـ تطبيقها اليوم هي أن أجمع ثلة من طلابي ومن صفوة أصحابي الذين يؤمنون بما أقول ويستعدون للفداء ونذهب جميعاً إلى الصحن الشريف متحالفين فيما بيننا على أن لا نخرج من الصحن أحياء وأنا أقوم خطيباً فيما بينهم ضد الحكم القائم ويدعمني الثلة الطيبة الملتفة من حولي ونثور بوجه الظلم والطغيان فسيجابهنا جمع من الزمرة الطاغية ونحن نعارضهم (ولعله قال : ونحمل السلاح[1]) إلى أن يضطروا إلى قتلنا جميعاً في الصحن الشريف وسأستثني ثلة من أصحاب عن الاشتراك في هذه المعركة كي يبقوا أحياء من بعدي ويستثمروا الجوّ الذي سيحصل نتيجة لهذه التضحية والفداء .

قال ـ رحمه الله ـ إن هذا العمل مشروط في رأيي بشرطين :

الشرط الأول : أن يوجد في الحوزة العلمية مستوى من التقبل من هذا القبيل أما لو أطبقت الحوزة العلمية على بطلان هذا العمل كونه عملاً جنونياً أو مخالفاً لتقية واجبة فسوف يفقد هذا العمل أثره في نفوس الأمة ولا يؤتي ثماره المطلوبة .

(١) ما بين القوسين أي الترديد للسيد الحائري .

والشرط الثاني : أن يوافق أحد المراجع الكبار مسبقاً على هذا العمل كي يكتسب العمل في ذهن الأمة الشرعية الكاملة . فلا بد من الفحص عن مدى تواجد هذين الشرطين .

أما عن الشرط الأول فصممّ الأستاذ (ره) على أن يبعث رسولاً إلى أحد علماء الحوزة العلمية ليعرض عليه هذه الفكرة ويستفسره عن مدى صحتها وبهذا الأسلوب سيعرف رأي عالم من العلماء كنموذج لرأي يتواجد في الحوزة العلمية وقد اختار (ره) بهذا الصدد إرسال ـ سماحة ـ الشيخ محمد مهدي الآصفي ـ حفظه الله ـ إلى أحد العلماء وأرسله بالفعل إلى أحدهم كي يعرض الفكرة عليه ويعرف رأيه ثم عاد الشيخ إلى بيت أستاذنا الشهيد وأخبر الأستاذ بأنه ذهب إلى ذاك العالم ولكنه لم يعرض عليه الفكرة وكان السبب في ذلك أنه حينما دخل المجلس رأى أن هذا الشخص مع الملتفين حوله قد سادهم جوّ من الرعب والانهيار الكامل نتيجة قيام الحكومة البعثية بتسفير طلبة الحوزة العلمية ولا توجد أرضية مثل هذه الفكرة عليه إطلاقاً .

وأما عن الشرط الثاني فرأى أستاذنا الشهيد (ره) أن المرجع الوحيد الذي يرتقب بشأنه أن يوافق على فكرة من هذا القبيل هو الإمام الخميني ـ رحمه الله ـ الذي كان يعيش وقتئذ في النجف الأشرف فلا يصح أن يكون هذا العمل من دون استشارته فذهب هو رضوان الله عليه إلى بيت السيد الإمام وعرض عليه فكرته مستفسراً عن مدى صحتها فبدا على وجه الإمام التألم وأجاب على السؤال بكلمة : (لا أدري) .

يقول السيد الحائري : وكانت هذه الكلمة تعني أن السيد الإمام كان يحتمل أن تكون الخسارة التي ستوجه إلى الأمة من جراء فقد هذا الوجود العظيم أكبر مما قد يترتب على هذا العمل من فائدة . وبهذا وذاك تبين أن الشرطين مفقودان فعدل أستاذنا الشهيد (ره) عن فكرته وكان تأريخ هذه القصة بحدود سنة (١٣٩٠هـ) أو (١٣٩١هـ)»[(١)] انتهى .

---

(١) مقدمة المباحث : ص ٤٩ ، ص ٥١ .

كان هذا قبل ظهور مرجعيته أو بعد ذلك وقبل انتشارها . أما بعد تصديه للمرجعية فإنه كان أحرص على تحقيق الوحدة والوفاق دون إثارة الشقاق فكان رضوان الله عليه لا يقدم على عمل إلا بعد معرفة موافقة غيره من المراجع أو بشكل لا يثير حفيظتهم ولا ينتقص من شأنهم ومنزلتهم ، وإجلاله للسيد الخوئي يكاد يكون منقطع النظير ، وقد رأيته رضوان الله عليه في نهاية شهر رمضان لعام من الأعوام السالفة وقد قدمت جموع المؤمنين تستنطقه بشأن رؤية هلال شوال وانقضاء شهر رمضان فأبى أن يحكم برؤية الهلال ـ رغم أنها كانت ثابتة عنده ـ وأوصى بالذهاب لمنزل السيد الخوئي لاستعلام ذلك وهذا أمر ليس بدرجة من الأهمية ولكنه رضوان الله عليه كان يهدف إلى رصّ الصفوف وتوحيد الكلمة ما أمكن .

وأكثر من ذلك فإنه رضوان الله عليه لا يبعث وكيلاً أو ممثلاً له في منطقة ما من مناطق العراق أو خارجه إلا بعد إطلاع السيد الخوئي ومنح هذا الوكيل إجازة السيد الخوئي مضافاً لوكالة السيد الشهيد نفسه وكان يحرص أشد الحرص على احترام وكلاء السيد الخوئي ـ رغم المؤاخذات على بعضهم ـ تكريماً لشخص السيد الخوئي وصوناً لهيبته وإجلالاً لمقامه ، وهنا عشرات القصص التي لا يليق ذكر بعضها أو لضيق المجال .

إن أخلاقية الشهيد الصدر هذه كانت هادفة إلى خلق الأجواء الممهدة لإصلاح الحوزة وإدخال التجديد في بنائها وهيكلها وإدارتها دون إثارة الغوغاء ، وقد وجد أكثر من مبرر لتطوير العمل المرجعي وتحديثه وتجديده بشكل يتناسب والمرحلة الحاسمة التي تمر بها الرسالة الإسلامية وما يهددها من أخطار داخلية وخارجية ، وكان رضوان الله عليه دائماً يهتف في أسماعهم بضرورة الإسراع في إنجاز هذه الخطوة وكان يقول : «الشهيد الأول رضوان الله عليه قبل قرون وقرون فكر في تنظيم شؤون الدين والمرجعية بشكل من الأشكال كما قلنا ونقل الكيان الديني من مرحلة إلى مرحلة . لكن أليس بالإمكان أن يفكّر مئات العلماء الذين جاؤوا بعد الشهيد الأول إلى الآن ومئات العلماء الموجودون فعلاً ومئات العلماء الذين سوف يخلفون هؤلاء العلماء بعد ذلك؟ أليس بالإمكان أن يفكر هؤلاء المئات من العلماء في تطوير أساليب الشهيد الأول؟ في تحسينها في تنقيتها ، في

تطويرها؟ أليس بالإمكان هذا؟ فكّر الشهيد الأول في أن يضع قواعد لهذه المرجعية لكن هذه القواعد هي هي؟ لا بد أن تبقى بحدودها التي كانت في أيام المماليك؟ تلك الحدود التي كانت في أيام المماليك في سوريا تصدق على ما هو موجود اليوم في العالم مع تغيير العالم؟ وليس العالم اليوم عالم المماليك.

فإذا كنا نؤمن بأن الأساليب تتغير وإن كانت النظرية ثابتة إذن فلا بد لنا أن نفتح باباً للتفكير في هذه الأساليب كما نفكر في النظريات الفقهية والنظريات الأصولية، كما نفكر في الترتّب وفي بحث اجتماع الأمر والنهي، كما نفكر في أن العصير العنبي هل هو محكوم عليه بالحرمة والنجاسة أو غير محكوم عليه بالحرمة والنجاسة. كذلك لا بد وأن نفكر إلى جانب ذلك بأساليب العمل.

هذا هو جزء من وظيفتنا، لأننا ندرس العلم للعمل ولا ندرس العلم لكي نجمده في رؤوسنا «نحن ورثة الأنبياء» بحسب زعمنا، والأنبياء عاملون قبل أن يكونوا علماء، هم علماء لكي يكونوا عاملين، وليسوا عالمين من دون عمل. فإذا كنّا نحن ورثة الأنبياء فيجب أن نفكر في أننا عالمون لكي نعمل لا إننا عالمون لكي نعلم، فإذا كنا عالمين لكي نعمل فلا بد وأن نجعل جزءاً من وظيفتنا أن نطرح على أنفسنا، أن نطرح على أساتذتنا، أن نطرح على زملائنا، أن نطرح في كل مكان هذه الأسئلة: ما هو العمل؟ كيف نعمل؟ ما هي أساليب العمل؟.

كيف يمكن تجديد أساليب العمل بالشكل الذي ينسجم مع الأمة اليوم؟ نحن نتعامل مع عالم اليوم لا مع عصر المماليك. إذن كيف نتعامل مع عالم اليوم؟.

هذه أسئلة قد يكون جوابها صعباً في بداية الأمر لأنه ليس هناك مطالعات وترويض فكري على الجواب عليها. وقد تجد أن الجواب على مسألة أصولية أسهل، لأن هذا الإنسان الذي نسأله قد درس الأصول عشرين سنة، وأما مثل هذه الأسئلة فحيث أنها نفسها أيضاً مسألة دقيقة ومرتبطة بمدى خبرة الإنسان وتجاربه واطلاعاته على ظروف العالم، لهذا قد يجد الصعوبة في الجواب على هذه الأسئلة لكن هذه الأسئلة لا بد من تذليلها بالبحث والتفكير ومواصلة البحث والتفكير. إذن فلا بد وأن نجعل جزءاً من وظيفتنا أن نفكر دائماً في أنه كيف نغيّر أساليب العمل كيف نسنجم مع وضعنا وبيئتنا؟.

لماذا تعيش الحوزة العلمية في هذا البلد مئات السنين ثم يعد هذا يظهر إفلاسها في نفس هذ البلد الذي تعيش فيه!!؟ وإذا بأبناء هذا البلد أو ببعض أبناء هذا البلد يظهرون بمظهر الأعداء والحاقدين والحاسدين والمتربصين بهذه الحوزة!!.

ألا تفكرون في أن هذه هي جريمتنا قبل أن تكون جريمتهم؟ في أن هذه هي مسؤوليتنا قبل أن تكون مسؤوليتهم؟ لأننا لم نتعامل معهم، نحن تعاملنا مع أجدادهم ولم نتعامل معهم! فهذه الأجيال التي تحقد علينا وتتربص بنا اليوم، تشعر بأننا نتعامل مع الموتى، لا نتعامل مع الأحياء! ولهذا يحقدون علينا، ولهذا يتربصون بنا، لأننا لم نقدّم لهم شيئاً لأننا لم نتفاعل معهم..»[١].

وكلّ ذلك دعا الشهيد الصدر (ره) إلى التفكير في إصلاح الحوزة وتغييرها وكان من أهم أطروحاته المرجعية الموضوعية: المرجعية ذات الأجهزة الإدارية والمنظمة لا المرجعية الذاتية التي تعني تعدد المراجع والقرارات الفردية التي تؤثر فيها في معظم الأحيان أهواء الحاشية والبطانة وجلّهم من أصحاب البطالة والمتقاعسين والطفيليين.

المرجعية الذاتية:

لعلّ المرجعية الذاتية هي التعبير الطبيعي في المراحل الأولى لتعاظم العمل المرجعي وتضخم دوره في قيادة الأمة فبعد ظهور المرجعية بشكلها المتمركز والقيادي كانت مرجعية ذاتية تتسم بالقرارات ذات الطابع الذاتي وانعدام الأجهزة والإدارة والتنظيم ولكن هذا الشكل من أشكال المرجعية لم يكن ضرورة شرعية لا يمكن الخروج عليها ولا يجوز التمرد عليها وهذا ما دعا الواعين من أكابر الفقهاء إلى دراسة وضع المرجعية ومعرفة وتشخيص المخاطر التي تعيق حركتها لاختيار ما يتناسب ودورها في المجتمع ومسؤولياتها الإسلامية الكبيرة.

ولعلّ أوضح المخاطر التي تهدد مسيرة هذا الكيان هو:

(١) محاضرات الشهيد الصدر «المحنة» ص ٨٠ ـ ص ٨٤.

ـ لقد فرضت المرجعية الذاتية وانعدام التنظيم حالة تعدد المراجع وظهور عدد كبير من الفقهاء يتصدون للقيادة وهذا يؤدي بدوره إلى خلق حالة تعدد القرارات تبعاً لذلك فتجد أن المواقف والقرارات الصادرة عن مراكز هذه القيادات متباينة ومتناقضة في أحيان كثيرة ، ويبدو أن هذه الحالة في مقدمة المخاطر التي تؤثر سلباً في حركة المرجعية وقيادتها للمجتمع فلم يكن موقف علماء النجف واحداً من حركة المشروطة في إيران وإنما كان هناك تياران سمي أحدهما بالمشروطة وهو الجناح المؤيد للمبادئ الدستورية وسمي الآخر بالمستبدة وقد كان يتزعم هذين التيارين كل من الملا كاظم الخراساني على رأس المشروطة بينما يتزعم اليزدي المستبدة وقد سبب هذا النزاع الكثير من المشاكل وخاصة من العوام والمندسين[1] . بل إن تعددية القرارات وعدم الانضباط وتفرّق الكلمة كان يؤدي إلى استباحة الدماء أحياناً كما حدث للشهيد الشيخ نوري فضل الله .

ومن المظاهر البارزة موقف المرجعية في العراق من ترشيح الملك فيصل ملكاً للعراق فمثّل السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني موقف الرفض بينما مثّل الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية وآخرون موقف القبول[2] .

وهناك عشرات بل مئات المظاهر التي أودت بالحركة الإسلامية إلى مصير الفشل نتيجة تناقض القرارات والمواقف لعلّ من آخرها ما حدث في مرجعية الشهيد الصدر (ره) فإنه اتخذ قراراً بشأن تحريم الانتماء لحزب البعث في العراق فلم يكن موقف المراجع الآخرين الصمت والسكوت بل تمثل في الردّ حتى قال أحدهم في معرض ردّه على سؤال ورده بشأن صحة ما نقل عنه في قضية تحريم الانتماء فأجاب أنه لم يحرِّم الانتماء للحزب الشيوعي فكيف يحرِّم الانتماء لحزب البعث .

وبالطبع كان لهذا الموقف الأثر الكبير في النقض على فتوى الشهيد الصدر وهذا الموقف هو الذي أرغم السيد الصدر في أواخر أيامه إلى مقاطعة هذه الوجودات العلمائية بعد تيقنه بفشل كل المساعي التي بذلها (رض) لإقناعهم على توحيد المواقف والقرارات .

---

(١) تاريخ الحركة الإسلامية في العراق : ١٤٨ .

(٢) تاريخ الحركة الإسلامية : ٢٤٢ .

ـ من مظاهر المرجعية الذاتية وانعدام التنظيم تسرّب العناصر المشبوهة والمنحرفة إلى حواشي المراجع والاختفاء خلف كثير من قرارات المرجعية التي غالباً ما يصوغها وينتجها البطّالون والمتقاعسون وأحياناً المشبوهون أيضاً .

وهذا المظهر كان موضع اهتمام أكابر الفقهاء ففكروا في ضرورة التخلص من هذه الطفيليات وكان همّ السيد الشهيد كبيراً في هذا المجال والسيد الإمام الخميني في خطاباته وكتبه وطالب العلماء بتحديد مواقفهم بشأن هذه المظاهر وكذلك المفكرون وعلماء الأمة أمثال الشهيد الشيخ مرتضى المطهري في كثير من كتاباته ومحاضراته .

وتسرب هذه العناصر من شأنه أن يؤثر على كثير من قرارات المرجعية لأن انطباعات المرجع وتصوراته انعكاس لما تمليه هذه العناصر عليه من صور وحكايات وتصورات ولعبت الحواشي الدور الكبير في إدارة شؤون المرجعية وهناك الصور المخزية التي نترفع عن ذكرها لانحطاط هذه العناصر وما تقوم به من أدوار .

وطبيعي أن تؤثر هذه الجماعات في قرارات المرجع لأنها الجهاز التنفيذي والاستشاري الذي يعتمد عليه وغالباً ما تكذب هذه الجماعات على المرجع دون أن يعي ذلك لوثوقه بهم وعدم الشك في تدينهم لأنهم من أصحاب الدهاء والمكر والخديعة ممن تمرَّس عمليات النفاق والتلون .

ولست بصدد ذكر ما يؤيد قولنا ، فهناك العشرات بل المئات من المصاديق والصور .

السيد محسن الحكيم ـ رحمة الله عليه ـ عندما تصدى للمدّ الأحمر وأصدر فتواه الشهيرة «بكفر وإلحاد الشيوعية» التي خسرت الشيوعية بسببها كثيراً من مواقعها في العراق ، وقف إلى جانبه معظم المراجع والفقهاء وأصدروا فتاوى التأييد للسيد الحكيم وتكفير الشيوعية باستثناء من حاولت الحواشي إغراءه لتقنعه أن المسألة شخصية يراد منها فقط وفقط دعم مرجعية السيد الحكيم فاقتنع بذلك وامتنع عن إصدار فتوى بذلك .

وغالباً ما يكون لبعض هذه العناصر ارتباطات مشبوهة مع الحكام بطريق خفي لعل بعضه ليس أكثر من ارتباط عائلي أو صداقة قديمة أو علاقة مخابراتية أحياناً أخرى وهذا ما شهدته النجف وشعر به الكثيرون وكان لهذه الفئات دورها ـ كما ذكرنا ـ في إثارة الشبهات ضد السيد الصدر وجماعته في الأضواء في قضية التنديد بالشاه عندما اعترف بإسرائيل .

ومن ذلك الرسالة التي بعثها السيد الحكيم للإمام الخميني حينما كان في إيران إبّان التصعيد الثوري في المراحل الأولى للثورة الإسلامية إذ طلب من السيد الإمام والعلماء في إيران أن يهاجروا وبصورة جماعية إلى العراق وكانت هذه الرسالة من تدبير السافاك الإيراني بتوسط عملائه ممن يعمل داخل الحوزة بحيث استطاع هؤلاء إقناع السيد الحكيم دون أن يعلم حقيقة الأمر ، وكان قد طلب من الإمام الخميني في إيران من قبل هيئة شكلت من رئيس شرطة قم ورئيس السافاك والحاكم العسكري فيها وذهبت إلى الإمام فرفض استقبالها وكان الغرض من ذلك إبلاغه رسالة الشاه التي سلمت إلى السيد شريعتمداري لينقلها بدوره إلى الإمام وكان مضمون الرسالة «ستصلكم برقية من آية الله الحكيم تدعوكم إلى الهجرة إلى النجف فإذا شئتم أن تهاجروا فإن الحكومة ستوفر لكم وسائل السفر ، أما إذا أردتم أن تثيروا الصخب والفوضى بسبب هذه البرقية فإننا سنبعث بعناصر الكوماندوس للهجوم على بيوتكم في كل مكان وذبحكم وهتك أعراضكم ونهب أموالكم وإن هذه الرسالة الملكية المباركة جديّة ولا تعني مجرد التهديد»[١] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد تنفرد هذه الجماعات في صياغة المواقف والقرارات المرجعية دون أي اطلاع مسبق من المراجع ومن ذلك موقف النجف من ثورة الإمام الخميني فإن بعض مواقف المراجع كانت مرتجلة وليدة التفكير وتخطيط هذه الجماعات ففي الأيام الأولى للثورة في إيران اعتقل الإمام الخميني وأشيع هناك ما يشير إلى إقدام الشاه على إصدار حكم الإعدام بشأنه فبادر

---

(١) الثورة والقائد : مهدي الحسيني : ص ٨٠ ـ ص ٨١ .

علماء النجف إلى دراسة الردّ على ذلك والحيلولة دون إقدام الشاه على هذه الخطوة وكان من المقرر أن يجتمع المراجع ليتدبروا الأمر ويتخذوا الخطوات الكفيلة بمنع الشاه وتم التمهيد لهذا الاجتماع وقام بعض أفاضل العلماء بذلك وتم إبلاغ المراجع وزيارتهم لغرض اجتماعهم وذهب بعض أفاضل العلماء إلى منزل أحد المراجع فخرج إليهم نجله الكبير وأبلغهم أن الوالد يقضي قيلولة للراحة فأشاروا عليه بإيقاظه لحراجة الموقف الذي يستدعي الإسراع فيه حرصاً على مستقبل الثورة وخشية من أقدام الشاه بشكل جنوني على نزوته فلم يجبهم نجله فألحوا عليه فقال لهم : إذا أعدم الخميني فإنه سيقيم مجلس الترحيم على روحه .

وهذه المواقف والقرارات اللامسؤولة تدل على نفوذ هذه الجماعات وتؤكد ضرورة القضاء على هذه الحثالات المنحرفة .

ـ عدم الانضباط مكّن هذه الجماعات لتقرير مصير المرجعية والتخطيط ليس لحاضرها فحسب بل لمستقبلها أيضاً وقد ساعد على ذلك الادعاء وعدم النظام في أوساط العلماء فيكتفي أحد العلماء أن يجمع حوله ثلة من هذه الجماعات ليرتقي منصب المرجعية ويوكل لهذه الجماعات التبشير لشخصه والدعاية لمرجعيته وقد يكون هذا صعباً ولكنه ممكن التحقيق وقد تمكن البعض من تحقيق ذلك بالرغم من عدم أهليته ووجود كثرة العلماء الصالحين ممن تتوفر فيهم الأهلية والكفاءة .

أحدهم دفع أخاه ليشهِّر بالسيد الصدر وينتقص منه ويكيل ألوان التهم والأكاذيب المخجلة ويحول دون إقبال العلماء حضور بحث الشهيد وعوتب أحد الفقهاء لكونه يوصي العلماء والطلبة بحضور بحث الشهيد الصدر . بل إن هذا ـ المذكور ـ لم يكتف بما أسنده لأخيه فتبرع ليصف الشهيد بأنه «وهابي» إثر صدور كتابه القيم «بحث حول الولاية» وحاول التشكيك ببعض عبارات ذلك الكتاب .

وحينما يخشى من وفاة السيد الخوئي وانتقال المرجعية ـ كاملة ـ للسيد الشهيد لعدم وجود المنافس ومن يضاهيه في ذلك المقام تسعى بعض الجماعات

لتدارك الموقف قبل أن تُهدّد مصالحهم من قبل الشهيد ـ لما يعلمون من حزمه ووعيه وإرادته وإخلاصه ـ فعمدت هذه الجماعات إلى ترشيح إحدى الشخصيات ـ بالرغم من عدم مضاهاته للسيد الصدر ـ ودَفْع الكثير من الطلبة بأساليب مختلفة لحضور بحثه والتبشير له ليحلَّ محلَّ السيد الخوئي لو قُدِّر القدر .

ولكن شاءت الأقدار أن ينتقل الشهيد الصدر إلى جوار ربه مضرجاً بدمائه الزكية خالداً كريماً وتنتقل هذه الشخصية إلى جوار ربها قبل رحيل السيد الخوئي .

وكي لا يُساء بمقام مراجعنا العظام أقول : إن كل ذلك إنما يجري في الخفاء وخلف الكواليس ، ولو علمت المرجعية بذلك لما غفرت لهم هذه الجرائم ولا يقال إن المرجعية تعلم ـ ولو إجمالاً ـ بذلك ، لأن هذه الجماعات تظهر للمراجع الالتزام والخلق الإسلامي لتوحي للمرجع بنظافتهم ونزاهتهم .

ـ إن هذه المظاهر التي مُنيت بها المرجعية الذاتية دعتها إلى عدم الثقة في نفسها ويبدو ذلك واضحاً في حركة المرجعية وجهادها فإنها غالباً ما تنصرف إلى شؤونها الخاصة بعد كل ثورة وانتفاضة دون إكمال المسيرة كما حصل في ثورة العشرين بالعراق وثورة التنباك وحركة الدستور في إيران[1] .

ولعل السبب في ذلك يعود إلى قناعة المرجعية بما تعانيه من افتقار للكوادر التي تعينها في مواصلة المسيرة وإكمالها .

وكل ذلك يدعو إلى التعويض عن هذه الخسائر وذلك بإعدام هذه المظاهر ـ ولو جزئياً ـ والقضاء عليها ، وهذا ما دعا الشهيد الصدر لإعلان «المرجعية الموضوعية» .

المرجعية الموضوعية:

لقد بحث السيد (ره) طيلة عدة أسابيع أطروحة «المرجعية الموضوعية» ـ على حد تعبيره ـ ثم أمر السيد الحائري أحد تلامذته بكتابة هذه البحوث فامتثل

---

(١) انظر «الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري» للشهيد مطهري : ص ٩٣ .

السيد الحائري أمره فقام بكتابتها ثم قدّمها للسيد الشهيد فقام هو رضوان الله عليه بدوره بإعادة صياغتها وكتابتها . ولذلك سيكفينا عناء البحث والمشقة . وكانت أطروحته بقلمه الشريف[1] .

(١) مقدمة مباحث الأصول : ص ٩١ .

الفهرس

فهرس كتاب
موسوعة النجف الأشرف/ج٩